

كتابي
الجزء الأول
مدام بوفاري
جوستاف فلوبير
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع



مدام بوڤاري

جوستاف فلوبير

جوستاف فلوبير

دراسة تحليلية لحياته ، وادبه

للمحرر

المراجع

Flaubert par lui-même (par : La Varende)

Gustave Flaubert (par : Edouard Maynial)

Sept Visages De l'Amour (par : André Maurois)

Flaubert and « Madame Bovary »
(by : Somerset Maugham)

Gustave Flaubert (by : Henry Thomas)

جميل .. كآلهة الإغريق !

● فى سنة ١٨٤٠ هبط باريس ، ليدرس القانون ، فتى فى الثامنة عشرة ، غريب الأطوار : فهو وسيم الخلقة ، خجول الطبع ، رث الهندام ، مرهف الاحساس، لاذع اللسان، ظاهر الخشونة والفظاظة .. او بعبارة اخرى : كتلة من المتناقضات!

وكان مظهره اشبه بإله من آلهة الإغريق ، يرتدى قميصا من قماش الفانلة الأحمر ، وسترة زرقاء ! .. وكان قليل الكلام ، ولكن « إذا ما فتح فمه ليتكلم فكانما غمس لسانه فى إناء من الخل ! » .. وكان يظهر احتقارا شديدا للتقاليد ، وينظر إلى كل إنسان ــ بما فى ذلك نفسه ــ نظرته إلى احمق غبى .. وهو يقول فى هذا : « ان اول ابله اراه كل يوم هو شخصى ، حين اقف امام المرآة فى الصباح كى احلق لحيتى !.. وآخر ابله هو اى إنسان يصادف ان اتحدث إليه قبل أن آوى إلى فراشى ! » .

من يكون هذا الفتى الشاذ ؟ .. اراد زملاؤه من تلاميذ مدرسته ان يعرفوا .. وقيل لهم : « إنه فلوبير .. جوستاف فلوبير .. ابن كبير جراحى مستشفى (روان) » .

وسال واحد من التلاميذ فلوبير : « لابد انه امر شائق ان تكون ابن رجل مشهور مثل ابيك ! » .

فأجابه الفتى فى عدم مبالاة : « وما هو الأمر الشائق فى ذلك ؟ » .

ــ يا للعجب ، فكر فى عدد الأرواح التى ينقذها ابوك !

فزفر الفتى من انفه وقال ساخرا : « **نعم .. ان أبى ينقذ الغبى كى يواصل غباءه فى المستقبل !** » .

* * *

● وقد نشأ فلوبير غريب الأطوار منذ البداية ، يهتم دائما بالجانب المعتل المختل من الحياة .. فقد كان أول ما تفتحت عليه عيناه فى دنياه مشاهد العراك مع الموت ، بين جدران مستشفى أبيه .. أو على حد وصفه : « كان مدرج المستشفى يشرف على حديقتنا ، وكم من مرة تسلقنا — إخوتى وأنا — تكعيبة الكروم ، كى نتأمل الجثث الممددة تحتنا ، والشمس تحرقها بنارها ، والذباب ينهشها فى غير رحمة .. الذباب عينه الذى يحوم حولنا نحن ويطن فوق هامات الازهار ! » .

ويؤثر المنظر عقل « فلوبير » الباطن .. حتى يكبر ويغدو رجلا ، فيكتب إلى خليلته « لويز كوليه » يوما رسالة يقول فيها : « ان منظـــر المـــراة العـــارية يجعلنى اتخيل هيكلها العظمى ! » .

وقد ولد دقيق الملاحظة ، شغوفا بمراقبة البشر ، حتى انه بدأ بسجل ملاحظاته عن مسلك الناس بمجرد ان اتقن الكتابة .. وكان يجد متعة خاصة فى تأمل المجاذيب والبلهاء ، ويتصور أنهم بدورهم يجدون متعة خاصة فى تأمله هو ! .. وبقدر ما كان أبوه ولوعا بتشريح الاجسام البشرية ، صـــار هو ولوعا بتشريح « النفـــوس » البشرية ، والتعمق إلى باطنها ، وتأمل « الهيكل العظمى » للأفـــكار الشريرة التى تختبىء فى أعماق أنقى الناس سيرة ، فى الظاهر ! .. فاذا

الخطاب الأول الذى يكتبه الصبى وهو فى سن التاسعة ، إلى أحد أصدقائه ، يتضمن هذه العبارات : « يا صديقى ، انك محق فى ملاحظتك سخف الاحتفال برأس السنة .. إن اكثـــر تصرفات الناس تبدو لى سخيفة غبية ! » .

وحياة فلوبير هى فى الواقع ثورة عنيفة طويلة الأمد ضد غباء بنى البشر! .. فقد شب ساخطا حانقا على اولئك الرجال « الذين تستغرق حياتهم عاطفتان : جمع المال ، والحياة من اجل ذواتهم فقط ! » .

نشأ متشائما .. فى اسرة سعيدة !

● ولد « جوستاف فلوبير » فى مدينة (روان) فى ١٢ ديسمبر سنة ١٨٢١ — وكان ابوه « اشيل كيلوفاس فلوبير » يومئذ فى السابعة والثلاثين ، وأمـــه « كارولين فلوبير » فى السابعة والعشرين — ورغم أن الصبى نشأ فى كنف اسرة سعيدة ، رفيعة المكانة ، فإن حســـه المرهف وخياله الجامح اضفيا على نفسيته ذلك الشعور بالوحدة ، او الوحشـــة الداخلية، الذى يلازم ذوى الاحساس المرهف طيلة حياتهم!.. كما قد يعزى «تشاؤمه» منذ شبابه الباكر إلى ان «الرومانتيكية» كانت يومئذ فى عهد ازدهارها ، والتشاؤم كان « موضة » العصر ! .. لكن هذا الاعتبار وحده لا يكفى فى الواقع لتبرير شعور الفتى بسخف الحياة ونفوره من الناس ، وهو الذى كان ينعم ببيت سعيد وابوين عطوفين ، وشـــقيقة تدلله ، واصدقاء يحبونه .. وينعم فوق ذلك كله بصحة سابغة !

وقد ادخل الصبى المدرسة ، لأول مرة ، متأخـــرا عن

الوقت المناسب بسنوات ــ إذ كان قد جاوز العاشرة بشهور حين التحق بمدرسة « الليسية » فى (روان) ! ــ ولعل ذلك كان المنبع الأول لنزعة الخجل التى لازمته بعد ذلك ــ ربما لأنه وجد نفسه بين زملاء متفوقين عليه فى الدراسة ، بحكم الأسبقية ــ فكانت تلك بذرة من بذور « مركب النقص » الذى عانى منه طويلا !

وقد ساهمت فى تغذية مخيلة الصبى « فلوبير » قبل إدخاله المدرسة ، خادمة الأسرة الوفية « جولى » ــ التى ظلت فى خدمتها ٥٨ عاما ! ــ فقد دابت على اشباع خياله بطوفان من الحكايات والأقاصيص .. فلما التحق بالمدرسة بدا ميله الواضح إلى دراسة التاريخ ، وشغف بقصصه ، حتى لقد اصدر وهو بعد فى الرابعة عشرة صحيفة مدرسية نشر فيها الكثير من القصص والموضوعات التاريخية والأدبية ، التى كان منها : وفاة مرجريت دى بورجونى ، صور من حياة لورد بيرون ، يدان فوق التاج ، سر الملك فيليب الحذر ، قصة نورماندية من القرن العاشر ، اليد الحديدية ، احلام الجحيم .. الخ .. ثم تقدم خطوة اخرى حين نشرت له إحدى صحف المدينة المحلية بحثا فى « التاريخ الطبيعى » !

غرامه الأول !

● وفى تلك الفترة ، بدأ الغلام يرتاد مجاهل الحب ، لأول مرة ! .. كانت فاتنته الأولى فتاة إنجليزية تدعى «هنرييت كولييه» ، كان أبوها ملحقا بحريا لبلاده فى فرنسا ، وقد اسرت قلبه بعذوبتها وعاطفيتها .. لكن تعلقه بها لم يجاوز الإعجاب البرىء ، الذى لم يبلغ حتى درجة الغزل ! .. وكان

هو يومئذ على نصيب « صارخ » من الوسامة ، بل الجمال! .. ذا قسمات دقيقة منتظمة ، وبشرة شقراء وردية ، وعينين زرقاوين ، وشعر ناعم .. كان جماله يبهر البصر ويسلب اللب ! وصفته « مدام ألفونس دوديه » ــ زوجة الكاتب الكبير ــ فقالت : « كان شابا غير عادى .. ذا نظرة صافية، نظرة زرقاء ، عاشقة و .. مرهفة ! » .. وقال فيه « موريس دريفوس » : « كانت له عينان فيهما زرقة عذبة . عينان طيبتان بالغتا الرقة ، ومفرطتان فى القوة ! » .. وقال « اميل برجيرا » : « كانت فى عينيه عذوبة خارقة للطبيعة .. عينان واسعتان زرقاوان ، تحف بهما أهداب طويلة « مذهبة » ! ».

واقبل الصيف ، صيف عامه الخامس عشر ، وبدات التجربة الأولى « الجدية » فى حياة الفتى العاطفية .. التجربة التى تعتبر بحق « حبه الأول » ! .. كانت اسرته قد ذهبت للاصطياف فى (تروفيل) ، التى كانت يومئذ « قرية » متواضعة محاذية للبحر ، ليس فيها غير فندق واحد ! .. وهناك التقى الفتى بشخص يعمل ناشرا للنوتات الموسيقية، يدعى «موريس شليسنجر » ، كان يقضى الصيف مع زوجته وطفله . وقد وصف فلوبير الزوجة فيما بعد بقوله : « كانت طويلة ، سمراء ، ذات شعر أسود « فاخر » ، تنسدل خصلات منه على كتفيها . وكان انفها اغريقيا ، وعيناها تشعان نارا ، وحاجباها عاليين مقوسين ، وبشرتها متوهجة كما لو كانت « مغبشة » بالذهب ! .. وكانت رشيقة ، فاتنة ، تشف رقبتها الارجوانية عن شرايينها الزرقاء ، وترتسم على شفتها العليا سمة نشاط متوثب .. وبالاختصار، كان سحرها يخسف

حسن اجمل شقراء ! .. وكانت تتكلم فى أنـاة ، بصـوت موسيقى ، ناعم ، دافىء ! » .

كانت « اليزا شليسنجر » يومئذ فى السادسة والعشرين .. وكان فلوبير خجولا ، بحيث ما كان ليجد الجرأة على مجرد التحدث إليها ، لو لم يكن زوجها رجلا مرحا طيب القلب ، يسهل على المرء ان يرفع الكلفة معه .. فصار يستصحب الفتى معه فى نزهات ركوب الخيـل ، وفى مناسـبة ما خرج ثلاثتهم — والزوجة بينهم — فى نزهة نهرية بالقارب ، فجلس فلوبير و « اليزا » جنبا إلى جنب ، وقد تلامس كتفاهما ، كما لمس طرف ثوبها يده .. وكانت تتكلم بصوت عذب ، خفيض ، لكنه كان فى دوامة من الانفعال لم تترك فى ذاكرته كلمة مما قالته ساعتئذ !

وانتهى الصيف .. وغادرت أسرة « شليسنجر » البلدة ، وعادت أسرة فلوبير إلى روان .. واستأنف الفتى الدراسة ، وقد تمكنت من قلبه اقوى عاطفة صادفته فى حياته !

ولم يتح لفلوبير ان يعود إلى (تروفيل) إلا بعد عامين كاملين ، وعند وصوله علم ان « اليزا » رحلت من البلدة قبل ايام ! .. كان هو يومئذ فى السابعة عشرة ، واحس ان حبه قد داخله تطور هام : صار يحبها كرجل ، تعتمل فى نفسـه الرغبة فى المراة! وضاعف غيابها من حدة عاطفته، وضرامها.. فلما عاد إلى بلدته ، استأنف كتابة قصة كان قد بداها منذ حين ثم اهملها زمنا ، وكان عنوانها : « مذكرات مجنون » ، فروى فيها مغامرة حبه لاليزا فى ذلك الصيف المشهود ..

يقرا .. ويلاحظ .. ويكتب !

● ولنعد إلى ميول الفتى الأدبية ، وشغفه بالقراءة والكتابة.. فقد أولع منذ يفاعته بقراءة«هوجو» و«شكسبير»، و « بيرون » و « روسو » .. لكن « هوجو » كان احبهم إليه . وحين قدر له يوما ان يزوره فى بيته ، كتب يقـول : « لقـد استمتعت برؤيته عن قرب .. فحدقت فيه مشدوها ، كما احدق فى إناء مملوء بملايين الجواهـر الكريمة ، متأملا كل صغيرة وكبيرة تصدر عن هذا الرجل الذى جلس بجوارى على مقعد صغير ، مدققا النظر فى يده اليمنى التى كتبت كل تلك الروائع الجميلة ، قائلا لنفسى : « هذا هو الرجل الذى جعل قلبى ينبض أشد نبض عرفته منذ ولدت ، والذى احببته اكثر من جميع من لم اعرف ! » .

والكاتب الثانى الذى كان له تاثير ادبى كبير على فلوبير هو «جيته» ، فقد قرأ قصته «فاوست» فى شارع (كورلارين) الجميل بمدينة روان ، الذى تحف به الأشجار العالية من جانب ويحف به من الجانب الآخر نهر السين .. وفى مواجهته على الضفة الأخـرى تدق أجراس الكنائس التى يختلط رنينها فى الوعى بشعر « جيته » الرائع .. فكان راسه يدور ، ويعود إلى بيته كالمأخوذ !

وقبل ان يشب عن الطوق ، الف الفتى روايات مسرحية، وقام بتمثيل دور البطولة فيها مع اخته على مسرح البيت ، الذى لم يكن سوى مائدة الطعام ! .. وكان من بين تلك المسرحيات واحدة من خمسة فصول ، عن لويس الحـادى

عشر.. غير ان هذه التمثيليات جيعا لم تعجبه وتظفر برضائه، فترك ميدانها إلى كتابة القصص والموضوعات غير التمثيلية ، التى انتج منها فى تلك الفترة : الشهوة والفضيلة ، أفكار فى التشكك ، رقصة الموتى ، النزع ، واخيرا « مذكرات مجنون » التى اشرت إليها آنفا .. وفيما كان يدرس للبكالوريا، (فى عام ١٨٣٩ — ١٨٤٠) ، كتب ابحاثا ومقالات عن : روما والقياصرة ، ادب « رابليه » ، جنازة الطبيب « ماتوران » ، ادب الشاعر : « كورنى » .. بل إنه كتب بحثا علميا عن « الامساك » !!

وهكذا قضى فلوبير الاعوام الثمانية السابقة لحصوله على البكالوريا — اى الأعوام بين سن العاشرة والثامنة عشرة — يحلم ، ويلاحظ ، ويكتب ، ويسخر من زملائه الطلبة، وينشىء معهم صداقات .. فانه — مثل اكثر الساخرين — كانت تكمن فى أعماقه نفس رقيقة !

على انه كان يضطر إلى إخفاء نفسه عن انظار ابيه حين يكتب .. فان « الدكتور فلوبير » كان مصرا على الحيلولة بين ابنه وبين المستقبل الأدبى المظلم ! وحين حاول الابن يوما ان يقرأ على ابيه إحدى « درره » ، غلب على الأب النعاس ! .. كان الطبيب المشهور يتوق إلى ان يجعل من ابنه جوستاف جراحا بارعا مثله ، ومثل ابنه الآخر « أشيل ».. وله فى هذا الصدد قول مأثور : « نحن آل فلوبير اسرة محترمة ، ولا نريد بيننا متشردين او شعراء ! » .

وحصل الفتى على البكالوريا ، فى سن التاسعة عشرة ، وإذ ذاك صارح اباه بانه « لن » يصير طبيبا ! .. وكان أبوه

قد يئس من إقناعه او الضغط عليه ، فقال له : « حسنا ، إذا لم تشأ أن تكون طبيبا ، فينبغى اذن أن تصير محاميا » .. وهكذا تقرر أن « يشحنه » إلى باريس فى بداية العام الدراسى ليدرس القانون !

مغامرة غرامية جديدة !

● وكى يغريه أبوه على قبول هذا الوضع ، أرسله فى العطلة الصيفية مع طبيب صديق فى رحله إلى جزيره كورسيكا وجبال « البيرينيز » ، وكان يومئذ شابا مكتمل النمو، عريض الكتفين ، يصفه عارفوه — ويصف نفسه — بانه « عملاق » ، رغم ان قامته لم تكن تصل إلى الستة أقدام . لكن الفرنسيين كانوا فى ذلك العصر اقصر قامة منهم اليوم ، فكان هذا الطول فى نظرهم « فارعا » ، غير عادى . وكان الفتى رشيق القد ، مهيب الطلعة ، تظلل أهدابه السوداء عينين واسعتين ، فى لون مياه البحر ، ويتهدل شعره الطويل الجميل حتى كتفيه .. حتى لقد وصفته ، بعد أربعين سنة من ذلك التاريخ ، امرأة عرفته فى شبابه ، بأنه كان يومئذ فى جمال إله من آلهة الإغريق !

وفى طريق عودة فلوبير ومرافقه من جزيرة كورسيكا ، توقفا فى مدينة مارسيليا . وذات صباح عاد فلوبير إلى الفندق بعد حمام فى البحر ، فصادف فى الردهة شابة حسناء ، جذبته فتنتها ، فباداها بالحديث .. وامتد بينهما حبل الكلام . علم منها انها تدعى «اولالى فوكو» ، وانها فى انتظار باخرة تقلها إلى حيث يقيم زوجها ، الموظف فى اقليم (غيانا الفرنسيه) . وقضى فلوبير و « اولالى » تلك الليلة معا ! .. وكانت

ليلة وصفها هو بأنها انطوت على « تلك العاطفة الملتهبة التى تشبه فى جمالها غروب الشمس فوق الجليد » ! .. ورغم انه غادر مارسيليا على اثر ذلك ، ولم ير المراة بعد ذلك قط ، فان تلك المغامرة تركت فى نفسه اثرا عميقا بعيد الغور !

المراة التى استعصت عليه .. فى باريس !

● ورحل الفتى إلى باريس ، ليدرس القانون .. لكنه لم يلبث أن ضاق بحياته فى الجامعة ، وضاق بكتب القانون ، بل ضاق بباريس ذاتها ! .. كان يحتقر زملاءه من الطلاب ، لتفاهتهم ، وتكلفهم ، واذواقهم السوقية ! .. وفى تلك الايام كتب قصة متوسطة الطول سماها « نوفمبر » ، ووصف فيها مغامرته مع « اولالى فوكو » .. لكنه منحها بعض سمات محبوبته السابقة « اليزا شليسنجر » : الرقبة الجميلة ، والشفة العليا ، والحاجبين المقوسين العاليين ..

وكان قد اتصل بأسرة « شليسنجر » من جديد ، إذ زار الزوج فى مقر عمله ، فدعاه هذا إلى تناول الطعام معه ومع زوجته ! .. وكانت « اليزا » كالعهد بها فاتنة . إنه حين رآها فى المرة الأخيرة السابقة كان يافعا ، ما يزال يترنح على عتبة الرجولة .. اما الآن فقد غدا رجلا ، ملتهب العاطفة والشوق ، وسيم الطلعة ، رشيق القوام .

وسرعان ما اتصلت بينه وبين الزوجين الأسباب ، مرة اخرى ، فعاد إلى سابق الفته معهما . واختلاطه بهما ، ومصاحبته اياهما فى النزهات والرحلات ووجبات الطعام .. لكنه لم يكن قد تخلص بعد من خجله القديم ، فظل زمنا لا يجرؤ على مفاتحة « اليزا » بحبه .. وحين جرؤ آخر الأمر ، ادهشه

انها لم تغضب ، وإن كانت افهمته بوضوح انها ليست على استعداد لأن تغدو بالنسبة له أكثر من «صديقة» ! .. وكانت للمراة قصة عجيبة شاذة : فحين تعرف فلوبير إليها لاول مرة — فى عام ١٨٣٦ — ظن ، كما كان الجميع يعتقدون ، انها زوجة « موريس شليسنجر » .. لكنها لم تكن كذلك فى الواقع ، فقد كانت متزوجة من رجل يدعى « اميل جوديا » . وكان زوجها هذا قد تورط ، بسبب افتقاره إلى الامانة ، فى متاعب ومشكلات خطيرة .. وإذ ذاك تقدم إليه « شليسنجر » معربا عن استعداده لامداده بالمال الكافى لانقاذه من المحاكمة ، فى نظير ان يغادر فرنسا من فوره ويترك زوجته ! وقبل الرجل الشرط ، فعاش شليسنجر واليزا منذ ذلك اليوم تحت سقف واحد — ولم يكن فى فرنسا طلاق يومئذ — إلى ان مات الزوج « جوديا » فى سنة ١٨٤٠ ، فتزوجا . لكن اليزا ظلت تكن لزوجها الاول المتوفى حبها الحقيقى . وقد يكون هذا السبب ، مضافا إليه شعور بالولاء والعرفان بجميل الرجل الثانى الذى آواها وانجبت منه طفلها الوحيد ، اعتبارين تضافرا ليجعلا المراة تتردد فى الاستجابة لغزل الشاب فلوبير ورغباته!

لكن الفتى كان حارا فى عواطفه ، كما لعل المراة شاقتها غرامه الصبيانى .. فاستجابت اخيرا لالحاحه ووعدته بموافاته فى مسكنه ! وانتظرها فلوبير فى انفعال محموم ، لكنها لم تأت ! ويميل مؤرخو حياته إلى تصديق هذه الرواية ، استنادا إلى ما اشتموه من سياق كتابه المشهور « التربية العاطفية » .. وعلى اية حال ، فالذى يمكن الجزم به أن « اليزا » لم تصبح يوما خليلته !

الحادث الذى غير مجرى حياته !

● فى تلك الأثناء كان فلوبير قد هجر دراسته ، ليحترف الأدب .. فنفض ابوه يده منه ، باعتباره فتى ميئوسا منه !.. وقابل جوستاف ذلك بالارتياح ، فلقد كان عنيدا ، أو على حد قوله : « انا بربرى ، أملك عناد البرابرة وصلابة رأيهم ».. والواقع انه كان يملك أيضا حب البرابرة للمغامرات : « اننى انحدر من سلالة قراصنة صقلية ، وسوف أصير قرصانا ، أهيم فى محيطات الروح ، واغوص فيها ، باحثا عن العبارة الذهبية الخلابة .. إننى اعتزم ان اكون كاتبا ، ليس غير ! ».

وترك فلوبير كتب القانون ، وحول وجهه شطر كتاب « دون كيشوت » — « توراة » الحماقة البشرية ، على حد تعبيره! — وصار هذا الكتاب المنبع الأول لفلسفته، والأساس الأول لمبادىء ايمانه .. « ان مشكلة البشر ليست انهم انذال، بل حمقى اغبياء ! » .. وتحت تاثير هذه الفلسفة كتب فلوبير عددا من التمثيليات والروايات الطويلة التى تدور حول النواحى القاتمة من الحياة : مثل قصة رجل فقد نفسه ، ومأساة رجل مصاب بالصرع دفن حيا ، ومغامرات مخلوق أمه بشر وأبوه قرد ! .. إلى غير ذلك من القصص الخرافية التى ينقصها النضوج ، والتى كتبها لمجرد تسلية نفسه واصدقائه .

وكان اصدقاء فلوبير هؤلاء أكثر منه ميلا إلى فلسفة التشاؤم .. « كنا جماعة من الشبان غريبى الأطوار ، نعيش فى عالم غريب .. نتأرجح فى طريق مألوف ، بين الجنون والموت .. بعضنا قتل نفسه ، وآخرون ماتوا فى فراشهم ..

وواحد خنق نفسه برباط رقبته .. وكثيرون ادمنوا الشراب كى يبددوا أفكارهم المتسلطة عليهم ! » .

ثم وقع حادث ، فى سنة ١٨٤٤ ، قدر له ان يغير مجرى حياة فلوبير ، ويؤثر فى إنتاجه الأدبى . فذات ليلة مشئومة كان عائدا بالعربة إلى روان بصحبة اخيه ، على اثر زيارتهما لمزرعة كانت تملكها امهما . وكان اخوه ، الذى يكبره بتسعة اعوام ، قد خلف اباه فى مهنة الطب .. وفجاة ، وبغير مقدمات، احس فلوبير بنفسه « يحمل بعيدا فى شبه إعصار من اللهب، ثم يسقط كالحجر على أرض العربة ! » .. وحين افاق من اغمائه كان يسبح فى دمه ، فحمله اخوه إلى دار قريبة حيث تولى فصده . ثم نقل إلى (روان) حيث فصده أبوه مرة أخرى ، ومنعه من التدخين ومن شرب الخمر او تناول اللحوم.

وظلت تلك النوبات تعاوده بعنف ، فترة من الزمن . وفى كل مرة كانت أعصابه الممزقة تظل أياما فى حالة توتر جنونى!.. واحاط الغموض الشديد بهذا المرض الغريب الذى حير الأطباء ، فقال بعضهم : إنه صرع، وأيد أصدقاء الشاب هذا التشخيص .. ورجح آخرون انه المرض المعروف باسم «صرع هستيرى » . وأيا كان التشخيص فقد كان العلاج واحدا لا يتغير ، إذ عاش فلوبير بعد ذلك سنوات يتعاطى جرعات كبيرة من « سلفات الكينين » ، كما ظل طيلة حياته بعد ذلك مثابرا على تناول « بروميد البوتاسيوم » .

واغلب الظن ان تلك النوبة الأولى لم تكن مفاجئة لأسرة فلوبير ، إذ قيل إنه كان قد صارح « جى دى موباسان » — الروائى الكبير الذى تتلمذ عليه فيما بعد — بأنه اصيب بأول

نوبة من التهوس عندما كان فى الثانية عشرة .. كما قيل إن ذلك كان سر ارساله بصحبة طبيب فى رحلته إلى كورسيكا بعد ذلك التاريخ بتسع سنوات .. ثم أن تغيير الجو والمناظر كان جزءا من العلاج الذى وضعه له ابوه الطبيب ، ولولا ذلك لما فكرت الأسرة فى ارساله إلى تلك الرحلة الباهظة النفقات ، فانها رغم ثرائها كانت من الاسرات ذات العقلية الريفية ، البليدة ، التى تميل إلى الاقتصاد .

وقد تكون نوبات ذلك الصرع الغامض من بين بواعث التشاؤم القاتم الذى لازم فلوبير منذ صباه ، والذى لابد قد احدث تأثيره فى جهازه العصبى حتى من قبل ان تظهر اعراضه فى صورة تلك النوبات . اما بعد ظهور هذه النوبات فقد صار المسكين يواجه حالة مفزعة تنتابه فى اى وقت ، دون مقدمات، فأحس بضرورة تغيير اسلوب حياته تغييرا يتفق مع هذه الظروف . وكان فى مقدمة نتائج هذا الإدراك انه عقد العزم على الا يتزوج قط ! .. بل قد يكون مرضه من الأسباب التى اغرته على هجر دراسة القانون !

راهب الفكر فى صومعته ..

● وفى العام التالى — ١٨٤٥ — مات أبوه .. ثم تبعته بعد شهرين او ثلاثة اخته الوحيدة « كارولين » التى كان يكن لها حبا مفرطا ، والتى كانت رفيقة صباه الأثيرة ، وصديقته الملازمة إلى ما قبل زواجها . وقد ماتت على اثر وضع طفلة لها . وكان الدكتور فلوبير — الأب — قد ابتاع قبل وفاته ضيعة على ضفة السين يطلق عليها (كرواسيه) ، يتوسطها منزل

حجرى جميل يرجع عهده إلى ما قبل مائتى سنة ، وبه شرفة وجناح صغير يطلان على النهر .. فكان ان استقرت ارملته بابنها « جوستاف » وحفيدتها اليتيمة فى تلك الدار .

أما الابن الأكبر « اشيل » فكان قد تزوج وخلف اباه فى عمله بمستشفى روان .

وقدر لضيعة (كرواسيه) ان تظل المقر الدائم لفلوبير حتى نهاية حياته . وكان مرضه الذى اعجزه عن ان يحيا حياة طبيعية ، احد العوامل التى قوت من عزمه على اختيار الأدب حرفة له ، فالأدب أنسب مهنة لمن ينشد العزلة ويعزف عن ارتياد المجتمعات .. وقد اختار الشاب لنفسه غرفة متسعة بالطابق الأرضى ، تطل نوافذها على الحديقة والنهر . واتخذ لنفسه نظاما وعادات صارمة : كان ينهض من فراشه فى نحو العاشرة صباحا ، فيطالع البريد والصحف ، ثم يتناول غداء خفيفا فى الحادية عشرة ، ويقضى الساعتين التاليتين متكاسلا فى الشرفة ، او جالسا فى جناحه يقرأ .. حتى إذا حانت الساعة الواحدة اكب على الكتابة حتى السابعة ، وعندئذ كان يتناول عشاءه ثم يخرج ليقوم بجولة فى الحديقة ، يعود بعدها كى يستأنف الكتابة إلى ساعة متأخرة من الليل .

ولم يكن فى عزلته تلك يرى او يقابل احدا ، عدا بضعة الأصدقاء القلائل الذين كان يدعوهم بين حين وآخر كى يقضوا اياما فى ضيافته ، ليتناقش وإياهم فيما يكتب . وكانوا ثلاثة ، من اكثر أصدقائه محافظة على التقاليد ، واكرمهم عونا له على مواجهة نوبات تشاؤمه النفسية ، ونوبات صرعه المرضية ..

بحيث يمكن القول ان فلوبير عاش مدينا لهم باحتفاظه بتوازنه — العقلى والنفسى — بين الهاويتين المروعتين اللتين كانتا تهددانه ، وتفغرا فوهتيهما عن يمينه ويساره : هاويتى الجنون ، والانتحار ! .. إذ بينما كان هو يهتم اهتماما مريضا بالأدب و « الموت » كانوا هم يبدون اهتماما سليما بالأدب والحياة !

وهؤلاء الأصدقاء الثلاثة كانوا : « لويس بوييه » ، و « الفريد بواتفان » و « مكسيم دوكامب » .. وكانوا ثلاثتهم شغوفين بالأدب : كان اولهم يكسب عيشه الضئيل من اعطاء دروس فى اللاتينية والفرنسية فى روان .. اما الثانى « لو بواتفان » فكان ابن رجل ناجح من رجال الأعمال ، تدل الدلائل على أنه سيغدو بدوره ناجحا مثل ابيه . وكان يكبر فلوبير فى السن ، وتربطه بالأسرة صلة صداقة وثيقة ، (وقد كانت شقيقته هى أم القاص الفذ « جى دى موباسان ») .. اما ثالث الأصدقاء « دوكامب » فكان محرر « صحيفة باريس » ، وكان قد تعرف به وهو يدرس القانون فى العاصمة ، فلم يلبث ان جعل نفسه بمثابة المرشد الناصح لفلوبير ، ليس فقط فى عالم الخيال بل وفى دنيا الواقع ومسالك الحياة ايضا .. وقد افلح فى اخراج « تلميذه » من صومعته وعزلته ، واغراه على ان يعاشر الناس ، وفى سنة ١٨٤٩ اخذه معه فى رحلة إلى الشرق ، كما سنرى .

وكان فلوبير بطبعه عاطفيا شديد التعلق والإخلاص لأصدقائه ، لكنه من الناحية الأخرى كان ذا نزعة إلى « امتلاكهم » والسيطرة عليهم ، ومطالبتهم باكثر مما تحتمل

الصداقات ، (فحين تزوج ثانيهم مثلا ، وكان ذا تأثير كبير على فلوبير ، انتاب هذا حنق شديد ، عبر عنه فيها بعد بقوله : « كان الأمر يعنى بالنسبة لى مثل ما يعنيه بالنسبة لمؤمن متدين سماعه بنبأ فضيحة شائنة تلوث سمعة الأسقف الذى يحترمه ! ») .

الشاعرة التى عشقته !

● وكان فلوبير ، حين ماتت شقيقته « كارولين » ، قد اخذ قالبا لوجهها ويديها .. وبعد شهور — فى يونية سنة ١٨٤٦ — ذهب إلى باريس ، فمضى إلى المثال المشهور « برادييه » ليكلفه بصنع تمثال نصفى لها . وهناك التقى بشاعرة تدعى « لويز كوليه » ، كانت قد ظفرت بمكانة مرموقة فى الأوساط الأدبية بفضل جمالها ، أكثر من موهبتها الأدبية .. فلقد كانت لها موهبة ضئيلة فى الشعر ، وموهبة عظيمة فى السحر ! فظلت اضواء باريس وعبقرياتها الأدبية مغضية عن جمال شعرها ، لكنها لم تستطع الاغضاء عن شعر جمالها ! .. ومن طريف النوادر المأثورة عنها ان الشاعر الكبير فيكتور هيجو ابدى ذات يوم امامها اسفه وحزنه على بتر ذراع تمثال «فينوس دى ميلو » الموجود فى متحف اللوفر، فقالت له : إن الذراعين المبتورين قد ردتا إلى التمثال الخالد ! .. والتفت إليها فيكتور هيجو متسائلا فى دهشة : « حقا .. اين هما ! » .. فاجابت لويز كوليه : « داخل كمى ! » .

وكان لها «صالون» ادبى يؤمه عدد كبير من الشخصيات البارزة فى مجتمع ذلك العصر ، وقد اطلقوا عليه اسم muse

(نسبة إلى الربات التسع للفنون من بنات « جوبيتر » ، فيما تقول أساطير القدماء) . وكان زوج «لويز» أستاذا للموسيقى يدعى « هيبوليت كوليه » ، وعشيقها ووالد طفلها هو الفيلسوف والسياسى « فيكتور كوزان » . وكانت هى وقتئذ فى الثامنة والثلاثين — وان زعمت أنها فى الثلاثين ! — وفلوبير فى الخامسة والعشرين .. فلم تمض على لقائهما ٤٨ ساعة حتى صار عشيقها .. وبعد ثلاثة أيام تركها تذرف دموعها وعاد إلى داره فى (كرواسيه) ! وفى الليلة ذاتها كتب إليها الرسالة الأولى من سلسلة رسائل حبه التى لعل عاشقا لم يكتب أغرب منها إلى عشيقته ! .. فلقد طلبت إليه أن ينتقل ليعيش بالقرب منها فى باريس ، فاعتذر بأنه لا يستطيع ترك أمه المكلومة الفؤاد بتأثير حزنها على زوجها وابنتها . وعندئذ سألته ان يكثر على الأقل من التردد على العاصمة لرؤيتها ، فأجاب بأنه لا يستطيع ذلك إلا إذا كانت لديه أسباب قوية تبرر السفر .. وعند هذا كتبت إليه غاضبة : « هل تعنى انك موضوع تحت المراقبة ، كالفتيات ؟ » .

الغيرة تحتدم ، بين الخليلة .. والأم !

● وقد كثرت الروايات عن شدة تعلق أم فلوبير به ، وقيل إنها صرحت مرة لإحدى صديقاتها بقولها : « لن أدع امرأة أخرى تشاركنى فيه ، حتى لو كانت ملاكا من السماء ! » وإذا صحت هذه الرواية ، فلعل من سخرية القدر ان تلك المرأة قد شاركتها فى ابنها — فى الخفاء ، كما سنرى — سنوات عديدة !

على أن المؤرخين المدققين ينصفون الأم من هذه التهمة ، فالواقع أن نوبات الصرع التى كانت تنتاب فلوبير كانت تخلفه فريسة للضعف والأعياء والانقباض ، لعدة أيام ، فكان طبيعيا ان تحوطه أمه بسياج من الرعاية والقلق ، وتخشى عليه من أن يسافر بمفرده ، أو يسبح فى النهر ، أو يستقل زورقا بغير مرافق يسهر علىْ سلامته .. فكتب إلى لويز يجيبها على لومها وسخريتها بأن أمه لا تمانع فى سفره كلما أراد ، لكنه يشفق عليها من الانزعاج الموجع الذى كانت تعانيه فى تلك الظروف . على أن مسلكه ذاك كانت له أيضا تعليلات أخرى إلى جانب العذر السابق إيضاحه : من ذلك أن حدة خياله كانت تجعله يشعر نحو لويز بمزيد من الحب وهو بعيد عنها ، اكثر منه وهو معها ! .. كما أن المسكنات القوية التى كان يتعاطاها للوقاية من نوبات الصرع ، كانت تضعف من إلحاح غريزته الجنسية بصورة ملحوظة !

وكتبت إليه لويز معاتبة : « ان حبك ليس حبا ! .. ولا يحتل فى حياتك مكانا عزيزا » .. فأجابها : « أو تريدين ان تعرفى إذا كنت أحبك ؟ نعم ، احبك بقدر ما أستطيع ان احب .. فالحب عندى ليس فى المكان الأول من الحياة ، وإنما فى المكان الثانى ! » .. وقد كان فلوبير يغبط نفسه على صراحته ، لكن هذه الصراحة كانت قاسية فى الواقع . وكان افتقاره إلى اللباقة عجيبا ، من ذلك انه فى إحدى المناسبات طلب إلى لويز أن تستفسر من صديقة لها كانت تعيش فى نفس البلدة التى تقطنها « أولالى فوكو » ، عن مصير هذه المرأة التى كانت بطلة مغامرته القديمة فى مارسيليا .. بل انه سال

لويز ان تحمل رسالة موجهة إلى « اولالى » لتوصيلها إليها ، ودهش حين ابدت استياءها من هذه المهمة ، رغم انها قبلت القيام بها !

بل انه ذهب فى الصراحة إلى ابعد من هذا الحد ، فقص على لويزو قصص مغامراته مع العاهرات ، متباهيا بكفاءته الجنسية فى إشباع رغباتهن . وكان يعاملها هى بترفع ظاهر ، ويضن عليها باللقاء الطويل ! من ذلك انه استجاب يوما لالحاحها فواعدها على اللقاء فى احد فنادق (نانت) ، على ان تغادر هى باريس ويغادر هو (روان) فى الصباح الباكر ، فيلتقيا فى الفندق ليقضيا سويعات العصر معا ، ثم يعود فى الليلة ذاتها إلى داره ! .. وادهشه ان اثار الاقتراح حنقها وسخطها . وعلى هذا النمط لم يزد عدد المرات التى التقيا فيها خلال العامين اللذين استمرت فيهما علاقتهما عن ست مرات ! .. واخيرا كانت هى التى بدات بالقطيعة فهجرته !

قصته الفاشلة .. ورحلته إلى مصر

● فى تلك الأثناء كان فلوبير منهمكا فى كتابة كتاب له كان قد اختمر طويلا فى راسه ، هو « غواية القديس انطوان » . وكان مقررا ان يسافر فى رحلته إلى الشرق الأدنى بصحبة صديقه « مكسيم دو كامب » بمجرد فراغه من ذلك الكتاب . وكانت امه قد وافقت على فكرة الرحلة بعد استشارة ابنها الاكبر ، الطبيب ، وزميله الطبيب الآخر الذى رافق فلوبير فى رحلته إلى كورسيكا قبل سنوات ، إذ رجح كلاهما ان تفيد صحة الشاب تلك الرحلة المزمعة إلى بلاد الشرق الادنى

الدائفة .. فلما انتهى فلوبير من الكتاب ارسل يستدعى صديقيه « دو كامب » و « بوييه » إلى (كرواسيه) كى يتلوه عليهما .. واستغرقت التلاوة اربعة ايام ، كان يقرا لهما خلالها طيلة اربع ساعات ، بعد الظهر ، واربع اخرى فى المساء ! .. وفى منتصف ليل اليوم الرابع فرغ المؤلف من التلاوة ، فدق المنضدة بقبضته وقال يسال صديقيه : «والآن ، ما رايكما؟» . فاجابه احدهما : « راينا انك ينبغى ان تلقى بالكتاب إلى النار ، ولا تعود تتحدث فى شانه إلى احد ! » .

وكانت ضربة قاصمة ! .. فاحتدم الجدل والمناقشة بين الأصدقاء الثلاثة طوال الليل ، وفى النهاية رضخ فلوبير للحكم المفجع . وعندئذ اقترح عليه « بوييه » ان يحذو حذو « بلزاك » فيكتب قصة من الأدب الواقعى . وكانت الساعة قد بلغت الثامنة صباحا ، فاوى الثلاثة إلى مضاجعهم .. وحين استيقظوا خلال النهار استانفوا النقاش ، ويقول « دوكامب » فى كتابه « ذكريات ادبية » إن زميله « بوييه » اقترح على فلوبير فى تلك الجلسة فكرة القصة التى قدر لها ان تعرف بعد ذلك فى العالم باسم « مدام بوفارى » .. ولكن اغلب الظن ان « دوكامب » كان مخطئا فى هذا القول ، فان رسائل فلوبير التى كتبها إلى اهله واصدقائه فى الفترة التالية — خلال رحلته إلى الشرق — تضمنت الاشارة إلى كثير من افكار القصص التى كان يديرها فى ذهنه وقتئذ ، ولم تكن بينها فكرة « مدام بوفارى » !

وقد كانت رحلة فلوبير إلى الشرق بصحبة صديقه « دوكامب » — التى استغرقت اكثر من عام — من المراحل

الشائقة فى حياته .. « لن انسى يوما الألوان التى رايتها والأصداء التى سمعتها فى مصر ، على ضفاف النيل ، وفى سوريا ، وفلسطين ، ومالطة ، والقسطنطينية ، واليونان .. ولقد لمست فى « الاهرام » سحرا خاصا ، فلم نكد نبلغ سفح التل الذى تنهض فوقه تلك الأهرام الهائلة حتى تركت جوادى يطوف بى حولها وانا كالمذهول .. وحذا « دوكامب » حذوى .. فلقد دار راسى حين رايت ذلك المجد الشامخ ، وبدت لى الأهرام الثلاثة ساعة الغروب وردية اللون ، غارقة كلها فى الضياء .. » .

المأساة الواقعية التى كانت نواة « مدام بوفارى »

● ثم عاد الصديقان إلى وطنهما ، فى سنة ١٨٥١ ، ولم يكن فلوبير قد استقر بعد على فكرة القصة التالية التى سيشرع فى كتابتها . وفى الفترة « التالية » — وليس قبل ذلك — يغلب أن يكون صديقه « بوييه » قد روى له مأساة الطبيب « يوجين ديلامار » ، التى كانت نواة عمله الأدبى التالى ، الضخم : « مدام بوفارى » : كان « ديلامار » طبيبا نوبتجيا بمستشفى (روان) ، متزوجا من ارملة تكبره فى السن .. فلما ماتت ، تزوج من ابنة حسناء لأحد المزارعين فى قرية قريبة ، وانتقل ليمارس مهنته فى تلك القرية .. لكن الزوجة الشابة كانت ذات طموح ، ونزوات ، فقد الفت منذ صباها ان تعيش فى الخيال ، « وراء الأفق » ، واعتنقت فكرة ان « ثمار الحقل المجاور اشهى مذاقا من ثمار الحقل الذى تملكه ! » .. فلم تكد تطرح بهجة الزواج الأولى وراء ظهرها حتى ضاقت بحياتها الراكدة ، المحدودة الأفق ، فى كنف زوجها

« الغبى » وازداد بمرور الأيام نفورها من حياة الريف، وخوار ابقار المزرعة، ورائحة حظائر الماشية.. فتطلعت إلى « فارس الأحلام » الذى ينقلها من تلك البيئة الكريهة إلى عالمها الخيالى المرموق ، ومن ثم القت بنفسها فى أحضان اول عاشق لاح فى افق حياتها .. لكنه هجرها ، فارتمت بين ذراعى آخر ! .. وظلت تتلقفها احضان الرجال ، وتتقاذفها رغباتهم العابرة ، ثم ينبذونها ، فتهوى من مذلة إلى مذلة ، ومن ضعة إلى ضعة .. وهى اثناء ذلك كله تبدد أموال زوجها ، وتقترض ، ويطاردها الدائنون ! .. حتى تمسى حياتها خليطا بشعا من اليأس ، والاضطراب ، والجزع ! ولا تخلصها من عذابها غير النهاية المفجعة التى اختارتها الأقدار لها ، ولزوجها !

تلك كانت الخيوط الواقعية الأولى التى سنرى كيف نسج منها « فلوبير » قصته الخالدة « مدام بوفارى » .

المراة الوحيدة التى احبته !

● على اثر عودة فلوبير إلى فرنسا ، التقى بـ « لويز كوليه » مرة اخرى وكانت أحوالها قد ساءت اثناء غيابه ، فمات زوجها ، وكف عاشقها و « ممولها » فيكتور كوزان عن الإنفاق عليها .. كما لم تجد مخرجا يقبل منها مسرحية كانت قد الفتها ! .. فلما علمت بعودة فلوبير كتبت إليه تنبئه بأنها سوف تمر بمدينة (روان) فى طريق عودتها من سياحة لها بانجلترا .

والتقيا ، وتجدد تراسلهما . وبعد فترة ذهب فلوبير إلى باريس لأمر ما، فاتخذها خليلة له مرة اخرى ، رغم انها كانت

قد جاوزت الاربعين، ورغم ان تقاليد العصر كانت تأبى على المراة التى تحترم نفسها ان تتزين بالمساحيق التى تعين على إخفاء بصمات الزمن على وجهها ! .. ولعل فلوبير قد تاثر بشعورها نحوه ، فقد كانت المرأة الوحيدة التى أحبته ! .. ثم لعل عدم وثوقه من نفسه فيما يتصل بالناحية الجنسية ، قد جعله يحس وهو معها — فى المرات القليلة التى اتصل بها فيها اتصالا جنسيا — بانه بمنجاة من انفعالات القلق والانزعاج ، بهذا الصدد .

وإذا كانت جميع رسائل لويز إليه قد فقدت ، فان رسائله هو إليها باقية . ومن هذه الرسائل يبدو جليا انها لم تتعظ بعبر الماضى، بل ظلت كالعهد بها لحوحة، مستبدة «متعبة»!.. فقد استمرت تلح عليه كى ينتقل إلى باريس ، أو يدعها تاتى لتقيم معه فى (كرواسيه) ! .. لكنه استمر يتعلل بالمعاذير كى يمتنع عن الأمر الأول ، ويمنعها من الثانى ! .. وكانت خطاباته تكاد تقتصر على التعليقات الادبية، وإن انتهت ببعض العبارات العاطفية « المتكلفة » ! .. وكان الموضوع الادبى الرئيسى الذى يخصه باهتمامه هو تقدمه « البطىء » فى كتابة قصته الطويلة التى كان مستغرقا فيها يومئذ : « مدام بوفارى » .. وبين الحين والآخر كانت ترسل إليه قصيدة شعرية كتبتها ، فكان ينقدها فى رده نقدا لاذعا بحيث كان لا بد من أن تنتهى العلاقة بينهما إلى قطيعة محتومة !

وقد عجلت لويز بهذه القطيعة ، بتصرفاتها الطائشة : فلقد عرض عليها « فيكتور كوزان » — عاشقها القديم ووالد ابنتها — ان يتزوج منها ، من اجل تلك الابنة .. لكنها رفضته،

وافهمت فلوبير انها إنما فعلت ذلك بسببه ! .. والواقع انها كانت قد عقدت العزم على الزواج من فلوبير ، وصرحت لبعض أصدقائها بذلك ، فى تهور طائش .. فلما بلغه الامر ، اذهله — وهو الذى كان خالى الذهن ، منصرف النية عن كل ما يتصل بالزواج — فأبدى لها استياءه الشديد من سقطة لسانها ، ثم تكررت بينهما المشاهد العنيفة الصاخبة ، التى شعر خلالها بمزيج من الفزع والمذلة .. حتى انتهى به الأمر إلى مصارحتها بالقطيعة بصفة نهائية !

لكنها لم ترتدع ، بل ذهبت إليه يوما فى كرواسيه لتثير مشهدا جديدا ، فطردها فى خشونة قاسية ، احنقت امه ذاتها ! .. واخيرا ، ورغم المأثور عن بنات جنسها من الاصرار العنيد على عدم تصديق ما لا يروقهن ، فقد وجدت التعسة نفسها تواجه فى النهاية الحقيقة المريرة : القطيعة !

وكان الانتقام الوحيد الذى وجدته فى متناولها ، ان كتبت قصة طويلة — فاشلة — صورت فلوبير فيها فى صورة الحبيب الغادر .. الشرير !

الصداقة التى ذهبت .. مع الريح !

● فى تلك الاثناء كان صديق فلوبير المدعو : « دوكامب » قد استقر فى باريس منذ عودته من رحلتهما إلى الشرق ، ولم يلبث ان ابتاع اسهما فى « مجلة باريس » الأدبية — « ريفو دى بارى » — وصار واحدا من مديرى تحريرها ، فراح يلح على كل من فلوبير و « بوييه » كى يوافياه بانتاجهما الأدبى . وكان يعتقد أن الأول يرتكب خطأ جسيما « بدفن نفسه » فى صومعته بـ (كرواسيه) ، وفى إحدى زياراته العديدة له

راح يستحثه على الانتقال إلى باريس ، حيث يستطيع أن يندمج فى محيط الحياة الذهنية بالعاصمة ويتبادل الآراء مع زملائه الكتاب ، فيوسع بذلك أفقه الأدبى .. فالكاتب ينبغى أن يعيش فى وسط « مادته الأولية » ولا ينتظر التجارب حتى تأتى إليه ، بل يذهب هو إليها ، ويمضى يبحث وينقب عنها . وقد كان فلوبير يعيش حياة « ضيقة الأفق » ، محدودة التجارب ، فهو لم يعرف عن الحياة غير النذر اليسير .. ولم يخبر من النساء — خبرة متعمقة — سوى أمه ، و « اليزا شليسنجر » — المرأة الوحيدة التى أحبها — ثم « لويز كوليه » ، المرأة الوحيدة التى أحبته هى ! .. وفيما عدا ذلك كان فلوبير يعيش منطويا على نفسه ، داخل قوقعة عبقريته ، فى شبه عزلة تامة عن الناس والمجتمع ، الأمر الذى دفع صديقه « دوكامب » إلى مصارحته ذات يوم — فى خطاب كتبه إليه من باريس — بأنه إذا واصل حياته المحدودة على ذلك المنوال ، فسوف تنتهى به الحال إلى أن يفقد عقله !

وأثارت النصيحة ثائرة فلوبير ، الذى اعتبرها إهانة وتحديا له ، والذى كان بطبعه ضيق الصدر لا يطيق الانتقاد أو المعارضة .. وزاد الطين بلة أن الملاحظة لمست من نفسه وترا حساسا ، إذ كانت نوبات الصرع التى تنتابه تهدده على الدوام بهذا المصير — حتى لقد صارح « لويز كوليه » فى إحدى رسائله إليها بأنه فى خلال أربع سنوات سوف يصاب بالبلاهة ! — ومن هنا أجاب على خطاب « دوكامب » برسالة تفيض بالحنق والغضب، قال فيها : إنه إنما يعيش الحياة التى تلائمه ، وأنه يحتقر «الخيول العجفاء» التى يتألف منها المجتمع

الأدبى فى باريس ! .. إلى آخر ما تضمنته تلك الرسالة من العبارات السليطة اللاذعة ، التى كانت بداية الجفاء بين الصديقين ، بل القطيعة .. وكانت آخر عبارة وجهها فلوبير إلى دوكامب فى نهاية مراسلاتهما : « إننا لم نعد نسير فى الطريق ذاتها ، أنت وأنا .. لم نعد نبحر على ظهر سفينة واحدة .. فليهد الله كلينا سواء السبيل ، إلى حيث يريد أن يذهب : أنت إلى مرفأ أمين ، وأنا إلى عرض البحر ! » .

وهكذا هجر فلوبير صديقه ، بعد عشيقته ، ونشر الشراع متجها نحو البحر العريض .. نحو المستقبل الأدبى الذى لا يعرف أنصاف النتائج : فهو يفضى إما إلى نجاح كامل ، وإما إلى فشل ذريع !

وانقضت ثلاث أو أربع سنوات ، لم يكن فلوبير يورد فيها اسم دوكامب على لسانه إلا بلهجة الاحتقار البالغ ، والغض من شأنه ومن موهبته الأدبية .. ورغم أن «الصديقين» عادا فاستأنفا شيئا من صلتهما بعد أعوام ، فإن الود لم يرجع بينهما سيرته الأولى ! .. وإن كان ذلك لم يمنع دوكامب ، حين فرغ فلوبير من كتابة « مدام بوفارى » ، من أن يعرض عليه نشرها مسلسلة فى مجلته « ريفو دى بارى » — كما لم يمنع الجفاء السابق فلوبير من أن يقبل العرض .

يكتب « مدام بوفارى » فى ٥٥ شهرا !

● وظل « لويس بوييه » الصديق الحميم الأوحد لفلوبير، وكان هذا يعتبره شاعرا عظيما — وقد أثبتت الأيام خطأه ! — كما كان يثق بحكمه وصواب آرائه الأدبية . ولا شك أن فلوبير

يدين لـ « بوييه » بالفعل بفضل لا ينسى ، فلولاه لما كتب « مدام بوفارى » فى أغلب الظن — أو فى القليل لما جاءت بهذه الروعة — فلقد كان هو الذى اوحى لفلوبير بفكرتها كما أشرت .. وهو الذى راح يلح عليه ويحثه ، حتى اقنعه بعد مناقشات طويلة بان يكتب ملخصا قصيرا لها . فلما اطلع عليه أعجبه ، فشجع فلوبير على ان يلقى بنفسه فى « المعمعة »!.. وكان هذا فى الثلاثين من عمره حين بدأ قصته الخالدة ، عام ١٨٥١ .

اقول حين « بداها » ، لأن كتابة القصة استغرقت، مرحلة كاملة من حياته .. خمس سنوات ! .. او إن شئت الدقة خمسة وخمسين شهرا ! .. فلقد كان فلوبير مثالا للفنان « المجود » ، الذى يصقل ويعيد صقل عباراته ، بلا ملل ، حتى ليقضى احيانا يوما كاملا فى الكتابة ، يخرج منه بمحصول لا يزيد على سطرين ! .. سطرين يرضى عنهما ، فيبقى عليهما . كان فى اسلوبه يحذو حذو اساتذة البيان من اسلافه ، وعلى الاخص « لابروبير » و « مونتسكيو » . كان يؤمن بأن النثر ينبغى ان يكون مصقولا ، ناعما ، موسيقيا ، موزونا — كالشعر — وفى الوقت نفسه منطقيا ، يلتزم المعانى فى دقة وامانة كاملتين . كان من رايه ان ليس هناك طريقتان للتعبير عن المعنى الواحد، وإنما طريقة واحدة ، فان اللفظ ينبغى ان يطابق المعنى مثلما يطابق القفاز اليد ! .. كما ان مجموعة الالفاظ التى تتالف منها الفقرة الواحدة او الصفحة من الكتاب ينبغى ان تكون وحدة موسيقية بالغة حد الكمال ! .. لم تكن الكلمة فى نظره مجرد رسول ينقل الفكرة إلى القارئ ، وإنما كانت « كيانا حيا » له

صوت ، ورائحة ، وشخصية ، وروح ! .. وكان يحرص جهد طاقته على أن لا يستعمل الكلمة الواحدة مرتين فى الصفحة الواحدة : « فانه من الخطأ ان يتحدى الكاتب « اذن » قراءه، كما ان من الخطأ أن يتحدى قلبهم ! » .. او على حد تعبيره فى مناسبة اخرى : « عندما اجد تكرارا فى إحدى عباراتى ، اشعر انى قد وقعت فى شرك ، وارتكبت زيفا ! » .. وفى سبيل تجنب لفظ مكرر ، او الاهتداء إلى لفظ اقوى واجمل ، لم يكن فلوبير يحجم عن مواصلة التفكير والبحث ، ولو اقتضاه ذلك ان ينفق فيه اسبوعا كاملا ! ..

(ولعل « اوسكار وايلد » لم يكن مغاليا إذن حين وصف نفسه ، ومبلغ تأنقه فى الكتابة، فقال: إنه توقف مرة عند عبارة واحدة يوما كاملا ، يتردد بين وضع علامة «شولة» فى وسطها او حذفها ، فوضعها فى بداية النهار ، ورفعها فى نهاية الليل!) .

وكان فلوبير يستخدم كل براعته فى « التاليف » بين الكلمات والعبارات ، كى يوحى بما كان يستشعره أحد ابطال القصة مثلا من حالة نفسية : من لهفة او تراخ ، من تعب او راحة ، من انفعال او بلادة .. الخ .. بل إن براعته تبلغ الذروة حين يصف الملل او الضجر الذى كانت تعانى منه « مدام بوفارى » بطلة القصة ، فى عشرات الصفحات ، دون ان يجعل الملل يتطرق إليك وانت تقرأ وصفه التفصيلى له !.. فهو يسرد سلسلة طويلة من الوقائع التافهة الضئيلة القيمة، لما تفعله « ايما بوفارى » ، وتشعر به ، أو تراه ، او تفكر فيه .. حتى يبلغ من فرط تفاهة هذه السفاسف المتوالية انك

تحس إحساسا صادقا عارما بمبلغ الضجر الذى كانت المرأة تعانيه !

وقد كانت طريقة فلوبير فى الكتابة أن يكتب مسودة لكل ما يعن له من أفكار بصدد الموقف الذى يصوره ، ثم يعود فيحذف ويؤخر أو يقدم فى العبارات ، أو يعيد كتابتها ، حتى يحصل على النتيجة التى ينشدها .. وعندئذ يخرج إلى الشرفة فيروح يتلو ما كتب بصوت مسموع ، فاذا وجد فيه شيئا من « النشاز » عاد إلى مكتبه فانكب عليه ينقحه ويهذبه .

وكان صديقه « بوييه » يحضر إلى (كرواسيه) فى بعض أيام الآحاد ، فيقرأ عليه فلوبير ما كتبه خلال الأسبوع ، ويأخذ هذا فى انتقاده ، فيثور الكاتب ويجادل ، لكن الناقد يصمد له ، حتى يقنعه باجراء شيء من التعديل فى سياق الحوادث ، أو حذف او اضافة بعض التوافه والتفصيلات .. ومن ثم لم يكن عجيبا أن تستغرق كتابة احد الفصول — وهو الفصل الأخير من هذا الجزء الذى بين يديك — شهرين كاملين ، مع أن صفحاته لا تزيد على العشرين ! .. بل لقد كتب فلوبير فى إحدى رسائله يقول : « انقضى يوما الاثنين والثلاثاء باكملهما فى كتابة سطرين اثنين ! » . وهذا لا يعنى انه لم يكتب سوى ذينك السطرين ، فقد يكون كتب عشر صفحات ، ثم مزقها فلم يبق على غير السطرين اللذين رضى عنهما ! .. وبفضل هذا المجهود الشاق ، وذلك النقد الصارم من جانب « بوييه » ، و — قبل ذلك — بفضل حدة ملاحظة فلوبير لأتفه التوافه التى تمر تحت سمعه وبصره ، خرج على العالم فى نهاية الخمسة

والخمسين شهرا بهذه التحفة الخالدة التى رفعته إلى الصف الأول من أدباء العالم فى جميع العصور !

بل ان هذه الدقة الهائلة ، والصبر العجيب ، والخيال القدير على تصور — وتصوير — أضأل التفصيلات والتوافه ، هى سر طابع الصدق و « الواقعية » الذى تتسم به القصة ، والذى يجعلنا لا نكاد نلتقى بأشخاصها حتى نحس أنهم «أحياء» يعيشون فى عالمنا ، ونشاركهم مشاعرهم .. بل ونتعرف فيهم على بعض من نعرف فى مجتمعاتنا ، حتى لننسى بل نكذب أنهم أبطال وهميون فى قصة مؤلفة ! .. وإذا كنت تذكر من شخصيات « ديكنز » شخصية « مستر ميكاوبر » الفكهة مثلا ، فانك واجد هنا فى شخصية الصيدلى « هوميه » مخلوقا طريفا يفوق صداه فى نفوس الفرنسيين صدى الشخصية الأولى فى نفوس الإنجليز .

أبطال القصة جميعهم انذال !

● وقصة « مدام بوفارى » هى — مثل ملحمة « جيته » المشهورة « فاوست » — قصة حياة نفس خاطئة ، مع فارق هام : هو ان بطل قصة « جيته » تقوده غريزته فى النهاية إلى الطريق الصائب ، بينما بطلة قصة فلوبير تقودها غريزتها إلى الطريق الخاطىء ، رغم تخبط الأول فى حياته ، وتدبر الثانية لأمر مستقبلها .. وما ذلك الطريق الخاطىء غير طريق الضجر ، فالخطيئة ، فالهلاك ! .. والملاحظ ان جميع الشخصيات الرئيسية فى القصة تغلب عليهم الضعة ، والنذالة ، والغباء ، والسوقية ، والتفاهة .. وهنا يبدو الانعكاس المباشر لنفسية

فلوبير على القصة ، فان تشاؤمه التى تحدثنا عنه ، وحنقه
على الذين يتصفون بتلك الصفات ، والمذلة التى عاش
يستشعرها بسبب نوبات مرضه واعتلال مزاجه واعصابه ..
كل ذلك جعل معين الرحمة والبر ينضب من نفسه ، فلما أكب
على كتابة قصة هذه المراة الخاطئة ، فعل ذلك بقسوة الرجل
الذى يخوض فى الوحل كى ينتقم لنفسه من الحياة التى لم تحقق
تطلعه إلى المثل العليا !

محاكمة فلوبير .. وتبرئته

● وقد نشرت « مدام بوفارى » مسلسلة على صفحات
« ريفو دى بارى » ، فى سنة ١٨٥٧ ، فاقبل عليها القراء
بحماسة هائلة ، وحين طبعت فى كتاب لقيت من فورها رواجا
لا مزيد عليه .. ولكن بقدر إعجاب الجماهير بها ، كانت حملة
النقاد عليها ، فقد اتهموا مؤلفها بأنه مريض « بالجذام
الخلقى » ! .. ثم القت السلطات القبض عليه بتهمة « نشر
ادب الدعارة على الناس » ! وبعد محاكمة صاخبة — كما
سترى عند مطالعة محاضر جلسات المحاكمة ومرافعاتها فى
ختام الجزء الثانى من الكتاب — اخلى سبيله وحكم ببراءته ،
وإن شفعت المحكمة حكمها بكلمة لوم وتأنيب شفوية القاها عليه
القاضى ! على ان الراى العام تكفل باقناع النقاد والسلطات
بأن « مدام بوفارى » إنما هى صورة امينة للحياة .. وانها فى
تصويرها الدقيق ، ومطابقتها للواقع ، ليست اكثر انحرافا
عن مبادىء الأخلاق من الوصف الصادق لأية كارثة من الكوارث
التى تصيب الناس !

وبقى فلوبير قابعا فى عقر داره ، كراهب فى صومعة ،
غير آبه سواء بعواصف التصفيق او حملات التقريع ! ..
وبين حين وآخر كان يطلع على الناس برواية جديدة تشغلهم
وتسليهم — او على حد قوله : « أنا ساخر ، والسخرية هى
الملح الذى يمكن الإنسانية من هضم تفاهة الحياة ! » — وهكذا
كتب على التوالى : « سالامبو » (١٨٥٨ — ١٨٦٢) ، التى
تجرى حوادثها فى (قرطاجنة) القديمة ، وقد سافر من أجلها
خصيصا إلى تونس ، كى يدرس الجو الذى يمكنه من كتابتها ..
لكنها جاءت قصة فاشلة . ثم اعقبتها « التربية العاطفية »
(١٨٦٣ — ١٨٦٩) ، التى صور فيها حبه لاليزا شليسنجر ،
والتى يعتبرها الكثيرون من أروع آياته ..

انتقاله إلى باريس

● وتتابعت الأعوام ، وتزوجت ابنة اخته كارولين ،
التى كانت تعيش مع امه ومعه فى البيت .. وفى سنة ١٨٧٢
ماتت امه ، فاتخذ له مسكنا فى باريس ، حيث قضى أكثر وقته
خلال الأعوام التالية ، ولكن فى مثل العزلة التى التزمها فى
(كرواسيه)، فيما عدا مرة أو مرتين فى الشهر كان يلتقى فيهما
مع بعض الأدباء ليتعشوا معا فى مطعم « ماتييس » .. ونفر
قليل من الأصدقاء كانوا يترددون عليه بين الفينة والفينة .
ويصفه احدهم ، وهو « ادمون دى جونكور » احد صاحبى
الجائزة الأدبية المعروفة بهذا الاسم ، بأنه ظل ريفيا فى عاداته
حتى بعدانتقاله إلى باريس ، فكان يحرص حين يتعشى فى مطعم
على الجلوس فى إحدى مقصورات المطعم الخاصة ، إذ لم يكن

يحتمل ان يسمع ضجيجا أو يجلس بالقرب من غرباء . وكان لا يشعر بالارتياح اثناء الأكل إلا إذا خلع سترته وحذاءيه !

وفى تلك الاثناء اصيب زوج ابنة شقيقته كارولين بأزمة مالية هددته بالإفلاس ، فاضطر فلوبير كى ينقذه إلى التنازل له عن ثروته كلها ! فلم تبق له غير داره فى (كرواسيه) وغير إيراد ضئيل ، سيما وان المسرحية التى كتبها فى عام ١٨٧٣ واطلق عليها اسم « المرشح » ، منيت بالفشل عند تمثيلها فى العام التالى .. فكان من نتيجة هذه الظروف السيئة ان عاودته نوبات الصرع التى كانت قد انقطعت عنه خلال السنوات السابقة .. فصار « جى دى موباسان » ـ الذى تتلمذ عليه ـ يوصله إلى مسكنه كلما تعشى فى الخارج .ورغم ازدياد توتر اعصابه وسرعة غضبه ، فقد وصفه « جونكور » بانه كان شخصا مرحا له ضحكة الأطفال « المعدية » وودهم الجذاب ، ووصفه « دوكامب » بانه كان ـ رغم عصبيته ـ « الطف ابن يمكن أن تحلم به امراة ! .. ويكفى ان تقرأ رسائله الشائقة إلى ابنة اخته كى ترى اى معين من الرقة كان فى اعماقه ! » .. وهكذا ، لو علم جيرانه ان هذا الكاره للجنس البشرى ، الذى اطلقوا عليه انه « رجل نكد يبغض الناس » ، قد انفق اكثر امواله على أقارب له معوزين يعيشون فى مناطق نائية ، وانه عاش يهب إحسانه دون ان ينتظر جزاء ولا شكورا .. لكان رايهم فيه غير ما قالوا وما اشاعوا !

يقرا ١٥٠٠ كتاب .. ليؤلف كتابا !

● وفى سنواته الاخيرة عاد فلوبير إلى عزلته الموحشة فى (كرواسيه) ، حيث صار يقضى اكثر العام ، فلا يذهب إلى

باريس إلا فيما ندر ، كى يثرثر مع جورج صاند أو يتناول العشاء مع فيكتور هوجو .. وصار يفرط فى الطعام والشراب والتدخين ، وتضاءلت موارده المالية ، فحصل له أصدقاؤه على وظيفة بلا عمل ، تكفل له ٣ آلاف فرنك فى العام . ورغم أن فكرة قبض مرتب بغير عمل قد أذلته، فانهاضطر إلى قبولها ـ وان لم يمتد به الأجل فينتفع بها طويلا !

وكان آخر عمل أدبى أصدره فلوبير فى حياته ، (عام ١٨٧٧) ، كتابا باسم « ثلاث قصص » ، تضمن قصته القصيرة الممتازة « قلب بسيط » .. وفى تلك الأثناء كان يعد العدة لكتابة قصته الطويلة الأخيرة « بوفار وبيكوشيه » ، التى اعتزم أن يحمل فيها حملة جديدة على غباء الجنس البشرى . ولكى يزود نفسه بالمادة الأولية لكتابة القصة ، طالع ـ بدقته المعهودة ـ نحو الف وخمسمائة كتاب (كذا !) . وكان يقدر أنه سيصدر القصة فى جزاين ، لكنه لم يكن قد فرغ إلا من كتابة الجزء الاول ، حين دخلت الخادم حجرة مكتبه ، فى الساعة الحادية عشرة من صبيحة يوم ٨ مايو سنة ١٨٨٠ ، كى تقدم إليه طعام الغداء .. فوجدته ملقى على الأريكة ، يتمتم بكلمات متقطعة غير مفهومة ! وهرعت من فورها إلى الطبيب فأحضرته ، لكنه لم يستطع أن يفعل شيئا .. وبعد اقل من ساعة كان « جوستاف فلوبير » قد لفظ آخر أنفاسه !

خليلات .. اخريات

● وقد أصدرت إحدى دور النشر الفرنسية فى الشهور الأخيرة كتابا حديثا عن فلوبير ، بقلم « لافاريند » ، اشار إلى

اسماء عدد من النساء الأخريات اللواتى كانت لفلوبير معهن صلات عشق عابرة ، عدا من ذكرنا .. ومن هؤلاء : « جين دى توربى » ، التى صارت تدعى فيما بعد : « الكونتة دى ليون » ، او « غادة البنفسج » .. ثم « ابولنونى ساباتييه » ، او « الرئيسة » .. و « الأميرة ماتيلد » .. فضلا عن امراتين اقتصرت صلتهما به على تبادل المراسلات ، هما « اميلى بوسكيه » و « مدام دى جينيت » . وقد وصفته اولاهما بأنه لم يكن يحب غير .. عمله ! .. وفيما عداه كانت غرامياته الأخرى محض « تسلية » ! .. اما آخر امراة ارتبط معها فلوبير برباط الصداقة فكانت « جورج صاند » ، التى كانت فى اخريات ايامها ، وقد ماتت قبله بأربعة أعوام .

على انه يمكن القول ان المراة « الوحيدة » التى احبها فلوبير — حبا خالصا ، بتفان وتكريس — هى المراة التى لم ينلها : « اليزا شليسنجر » ! .. وقد صرح ذات ليلة وهو يتعشى مع « تيوفيل جوتييه » و « تين » و « دى جونكور » فى مطعم « مانييس » ، تصريحا غريبا . قال إنه لم ينل امراة فى حياته نيلا كاملا ، وانه ما يزال بكرا ، وان جميع اللواتى نالهن لم يكن اكثر من « حشايا » لامراة اخرى ، هى امراة احلامه ! (يعنى اليزا) .

وقد مات زوج اليزا فى عام ١٨٧١ ، بعد ان عادت عليه مضارباته المالية بالخراب والافلاس ، فاخذ زوجته واطفاله وذهب ليعيش فى مدينة (بادن) . وبعد موته كتب فلوبير إلى اليزا ، التى احبها طوال ٣٥ عاما ، رسالة الحب الأولى منه إليها .. فبدلا من ان يستهلها بعبارته المألوفة « سيدتى

العزيزة»، كتب : «يا حبيبتى الأولى، يا حبيبتى الوحيدة»!.. ووافته فى (كرواسيه) . كان كلاهما قد تغير تغيرا كبيرا منذ لقائهما الأخير : ترهل هو وصار بدينا ، تملأ « البقع » وجهه الأحمر ويتوسطه شارب كثيف ، ويغطى راسه الأصلع بقلنسوة سوداء .. بينما جف عود اليزا فنحنت ، وفقدت بشرتها لونها الوردى ، وابيض شعرها ! .. وقد وصف فلوبير فى كتاب « التربية العاطفية » هذا اللقاء التاريخى ، الذى لم يتكرر بعد ذلك سوى مرتين او ثلاث مرات ، فكان ذلك الوصف امتع فصول الكتاب .

وبعد وفاة فلوبير بنحو عام ، قضى « مكسيم دوكامب » الصيف فى (بادن) . وذات يوم خرج للصيد ، بجوار مصحة « اليناو » للأمراض العقلية ، وفتحت بوابة المصحة كى تقوم المريضات بنزهتهن اليومية ، بإشراف الحراس .. فخرجن اثنتين اثنتين ، وإذا إحداهن تنحنى له محيية .

ولم تكن سوى « اليزا شليسنجر » ، المراة التى احبها فلوبير طيلة حياته .. حبا بلا امل !

* * *

اهداء المؤلف

إلى

مارى انتوان جول سينار

عضو نقابة المحامين بباريس ، والرئيس السابق
للجمعية الوطنية ، والوزير السابق للداخلية

ايها الصديق العزيز النابه :

اسمح لى بأن اسجل اسمك فى صدر هذا الكتاب ، وان اتوج به الإهداء ، إذ اننى مدين لك — قبل اى إنسان آخر — بنشره . فبفضل دفاعك المجيد ، اكتسب كتابى هذا فى نظرى الخاص من الأهمية فوق ما كنت ارجو وأتوقع .

فتقبل هنا تحية اعترافى بالجميل .. تحية لن تبلغ قط — مهما تكن — مستوى بلاغتك وإخلاصك .

جوستاف فلوبير

باريس فى ١٢ ابريل سنة ١٨٥٧

الجزء الأول

— ١ —

الفصل الأول

● كنا فى حجرة الدراسة ، عندما دخل الناظر يتبعه تلميذ جديد لا يرتدى الزى المدرسى ، وفراش يحمل قمطرا كبيرا ، فاستيقظ من كان نائما ، وانتصب كل منا واقفا ، وكأنه فوجىء على حين غرة برقيب على عمله !

وأشار إلينا الناظر بالعودة إلى الجلوس ، ثم التفت إلى المدرس قائلا فى صوت خفيض : « مسيو روجيه .. هـذا تلميذ أوصيك به . لقد التحق بالسنة الخامسة ، ولكن إذا بدا عمله وسلوكه مرضيين فسوف ينقل إلى الفرق العليا التى تناسب سنه » .

وفى الزاوية الواقعة خلف الباب ، حيث لا يكاد يرى ، لاح التلميذ الجديد . كان عملاقا ريفيا فى نحو الخامسة عشرة من عمره ، أطول قامة منا جميعا . وكان شعره منسقا ومستويا فوق جبهته ، كمغنى القـرية ، وقد ظهـر عليـه التحفظ والارتباك . وبالرغم من انه لم يكن عريض المنكبين ، فان سترته الخضراء ذات الأزرار السوداء كانت تضايق حركاته ، وقد انحسر كماها عن معصميه اللذين ألفا العرى .. كما كانت قدماه — اللتان يكسوهما جوربان أزرقان — تبرزان من بنطلون أصفر ، تشده الحمالة شدا قويا .. وفى طرفيهما حذاءان سيئا التلميع ، تنتشر فيه المسامير بكثرة ملحوظة .

وبدأ اختبار التلاميذ فيما لديهم من دروس ، فأخذ التلميذ الجديد ينصت إليهم بكل جوارحه ، وكأنه يصغى إلى موعظة فى الكنيسة ؛ دون أن يجسر حتى على أن يضع ساقا على ساق ، أو أن يتكىء بمرفقيه على القمطر ! .. وعندما دق الجرس فى الساعة الثانية ، اضطر المدرس إلى أن ينبهه كى يتخذ مكانه فى الصف !

وكان من عادتنا ، إذ ما دخلنا حجرة الدرس ، أن نلقى بقلنسواتنا أرضا ، كى تتحرر أيدينا لأداء الصلاة .. فكنـا نقذف بها تحت المقاعد بمجرد بلوغنا عتبة الباب ، وبقوة تجعلها تصطدم بالحائط فتثير كثيرا من الغبار .. وكانت هذه الحركة من « الأصول المرعية » التى نتباهى بها !

غير أن التلميذ الجديد لم يلاحظ هذه الحركة ، أو لعله لاحظها ولكنه لم يجرؤ على اتيانها .. فانتهت الصلاة وقلنسوته ما تزال على ركبتيه . وكانت قلنسوة من طراز معقد ، تجمع بين « الطاقية » ذات الوبر ، و «اللبدة» ، والقبعة المستديرة ، وقلنسوة الفراء ، والطاقية القطنية ! .. وبالجملة ، كانت من تلك الأشياء المزرية التى يحمل قبحها الصامت من التعبيرات العميقة ما يحمله وجه الأبله ! .. كانت بيضاوية ، يرفع جوانبها هيكل مضلع فى داخلها يكسبها الشكل المنتفخ ، وتبدأ بثلاث كريات صغيرة ، تتلوها قطع من المخمل ومن فراء الأرنب على شكل « المعين » الهندسى ، يفصل بينها شريط أحمر .. ويعقب ذلك شىء يشبه الكيس، ينتهى بقطعة من الورق المقوى متعددة الأضلاع ، تكسوها رقعة مطرزة بأشرطة معقـدة

الاشـــكال ، ويتدلى منها حبل طويل جد رفيع ، فى نهـــايته صليب صغير من خيوط مذهبة يشبه « الشرابة » !

.. كانت قلنسوة جديدة ذات حافة براقة !

وقال الأستاذ للفتى : « قف ! » ، فوقف . وســـقطت القلنسوة ، فانفجر التلاميذ جميعا ضاحكين ، بينما انحنى هو فالتقطها ، ولكن جاره أسقطها مرة اخرى بضربة من مرفقه ، فعاد الفتى إلى التقاطها من جديد . وكان المـــدرس حاضر النكتة ، فقال له : « تخلص يا اخى من خوذتك ! » .

وانطلق التلاميذ فى ثورة من الضحك المجلجل ، اربكت الفتى المسكين ، حتى لم يعد يدرى أيحتفظ بقلنسوته فى يده ، أم يلقيها على الأرض ، أم يضعها على راسه .. واخيرا ، جلس ووضعها على ركبتيه .

وعاد الأستاذ يقول له : « قف .. ما اسمك ؟ » .. وتمتم التلميذ الجديد باسم غير مفهـــوم ، فهتف الأســـتاذ : « أعد ! » .. وكرر التلميذ المقاطع ذاتها ، فى تمتمة طغت عليها قهقهة زملائه جميعا .. فصـــاح الأســـتاذ : « ارفع صوتك ! .. ارفع صوتك ! » .

واستجمع التلميذ الجديد كل عزيمته ، وفغر فاها مترامى الأبعاد ، وعبأ رئتيه ثم قذف باسم « شار بوفارى » وكأنه ينادى شخصا !

وانفجر التلاميذ فى ضجيج صاخب ، حاد ، مضطرد .. فأخذوا يصيحون ، وينبحون ، ويدقون الأرض بأقـــدامهم مرددين : « شـــار بوفارى .. شار بوفارى ! » فى نغمـــات

مسترسلة ، لم تكن تهدأ ــ بعد مشقة بالغة ــ إلا لتعود فى ناحية من حجرة الدراســـة ، أو فى صف بأكمله من صـــفوف التلاميذ ، تتخللها ــ هنا وهناك ــ ضحكة مكتومة ، كصاروخ لم يخمد بعد تماما .

واخيرا ، عاد الهدوء إلى حجرة الدراسة رويدا ، بعد وابل من العقاب ، وتمكن الأستاذ من التقاط اسم « شـــارل بوفارى » ، بعد ان طلب إلى صاحبه ان يوضحه كتـــابة ، وهجاء ، وتلاوة ! .. ثم أمر المسكين بأن يذهب فيجلس على « مقعد الكسالى » تحت حافة المنصة مباشرة ، فشرع صاحبنا يتحرك . بيد انه تردد قبل ان يبرح مكانه ، فسأله الأستاذ : « عم تبحث ؟ » .

واجاب التلميذ الجديد وهو يتلفت حوله بنظرات قلقة : « قلنسو .. » ! .. ولم يتم كلمته ، إذ انفجرت العاصفة من جديد ، فصاح الأستاذ فى غضب هادر : « على كل منكم ان ينسخ خمسمائة بيت من الشعر » . وكانت صرخته اشـــبه بصيحة « نبتون » ــ إله البحار ــ التى أطلقها متوعدا الرياح إذ ثارت دون امر منه ، على ما جاء فى الأساطير ! .. وما لبث أن اضاف وهو يجفف جبينه بمنديل اخرجه من بين ثنايا ردائه المهلهل : « كفى ! .. الزموا السكون ! » .. ثم التفت إلى التلميذ الجديد قائلا : « أما انت ، فعليك ان تنسخ لى عبارة « انا مضحك » عشرين مرة » .. ثم أردف فى صوت اكثـــر رقة : « لسوف تجد قلنسوتك ، فان احدا لم يسرقها » !

وعاد كل شىء إلى هدوئه، وانحنت رؤوس التلاميذ فوق الأدراج ، بينما ظل التلميذ الجديد ساعتين فى جلسة مثالية ،

وإن أخذت تنطلق ـــ بين وقت وآخر ـــ كرة من الورق الملوث
بالمداد لتلطخ وجهه . وكان يمسح المداد بيده ، ويستأنف
جلسته بغير حراك ، وهو منكس البصر !

وفى حجرة الاستذكار ـــ فى المساء ـــ أخرج من درجه
الكمين الأسودين اللذين يلبسان لصيانة كمى السترة وقت
العمل ، ورتب أدواته البسيطة ، وانجز فى عناية كتابة العبارة
التى فرضها عليه الأستاذ كعقاب ، ثم عكف على عمله فى
إخلاص، باحثا فى القاموس عن جميع الكلمات، غير مدخر جهدا .
ولا شك أن هذه الإرادة الطيبة هى التى حالت دون نقله إلى
فرقة دراسية أدنى من التى ألحق بها ! .. ومع أنه كان ملما
بقواعد اللغة إلى حد ما ، إلا أنه لم يؤت رشاقة التعبير ، فقد
كان قس قريته هو الذى بدأ تلقينه اللاتينية ، إذ أرجأ أهله
إرساله إلى المدرسة أطول فترة ممكنة ، اقتصادا للنفقات !

* * *

● كان أبوه « شارل دنى بارتلومى بوفارى » مساعد
جراح سابق فى الجيش ، تورط فى بعض المسائل المتصلة
بالتجنيد فى سنة ١٨١٢ ، واضطر إلى ترك الخدمة . بيد أنه
كان قد وفق فى استغلال مواهبه الشخصية ، فظفر بصداق ـــ
« دوطة » ـــ قدره ستون ألفا من الفرنكات ، حملته إليه ابنة
صاحب مصنع للقبعات عشقت هيئته! .. فقد كان فارع القوام،
يحسن التهريج والشنشنة بمهمازيه ، وقد أرسل لحية متصلة
بشاربيه ، واعتاد أن يزين أصابعه دائما بالخواتم ، وأن يتخير
لملابسه الألوان الصارخة ! .. وكان له مظهر الرجل الشجاع،
مع خفة المندوب الكثير الأسفار . وقد ظل يعيش ـــ بعد

الزواج ـــ عامين أو ثلاثة على ثروة زوجته ، ينعم بالغذاء
الطيب ، ويستيقظ متأخرا ، ويدخن فى غلايين كبيرة من الخزف،
ويتردد على المقاهى ، ولا يعود إلى منزله فى كل مساء إلا بعد
أن تغلق المقاهى أبوابها . حتى إذا مات والد زوجته ، أحنقه
أن الرجل لم يخلف ثروة تذكر ، فحاول أن يدير المصنع
من بعده ، لكنه خسر بعض المال ، فآثر الانسحاب إلى الريف
حيث حاول أن يعمل فى الإنتاج الزراعى .. غير أنه لم يكن
أكثر دراية بالزراعة منه بالصناعة .. وكان يمتطى الخيل بدلا
من أن يرسلها للحرث ، ويشرب النبيذ بالزجاجة بدلا من أن
يبيعه بالبرميل ، ويأكل خير ما فى حظيرته من دواجن ، ويؤثر
حذاء الصيد بشحم خنازيره ، فلم يلبث أن تبين أن من الخير
له أن يتخلى عن استثمار ما بقى له من مال !

واستطاع أن يجد فى إحدى القرى المتاخمة لمقاطعتى (كو)
و (بيكاردى) ، مسكنا ـــ يشبه دور الفلاحين بقدر ما يشبه
دور السادة ـــ مقابل مائتى فرنك فى العام ، فاحتبس فيه نفسه
منذ كان فى الخامسة والأربعين من عمره ، وقد استبد به الغم،
وأخذ الندم ينهشه ، وراح يسب القدر ، ويحسد الناس ،
ويعلن أنه قد سئم البشر أجمعين .. وقرر أن يعيش فى
هدوء !

وكانت زوجته فى البداية مدلهة فى هواه ، فأبدت له من
مظاهر الاستكانة والخضوع ما زاده منها نفورا ! .. وكانت فى
فجر شبابها مرحة ، منطلقة ، تفيض نفسها حبا. فأمست بمضى
الأعوام عصبية المزاج ، كثيرة الصياح ، ثائرة .. وكأنها
النبيذ الذى تخلخل غطاء دنه فاستحال إلى خل !

كانت قد تحملت أشد الآلام فى بادىء الأمر ، دون أن تشكو من جريه وراء عاهرات القرية ، ليعود إليها فى المساء — بعد ان تلفظه عشرات المواخير — وريح الخمر تهب منه! .. فلما ثارت كبرياؤها، لم تملك سوى ان تكتم الغضب فى صدرها، ولاذت بنوع من الصمت الفلسفى لازمهـا حتى المـوت ! .. وكانت دائمة الحركة ، تذهب إلى موثقى العقود ، وتسعى إلى العمدة ، وترقب مواعيد استحقاق الصكوك فتسعى لارجاء دفعها واستمهال الدائنين .. اما فى البيت ، فكانت تنهمك فى الكى والحياكة والغسيل ، وتراقب العمـال ، وتنقـدهم اجورهم .. فى حين لم يكن السـيد يعبـأ بشىء ، بل كان يستغرق فى إغفاء عابس واجم ، لا يفيق منه إلا ليوجه إليها عبارات جارحة، ثم ينصرف إلى التدخين بجوار المدفأة، باصقا بين الفينة والفينة على رمادها !

وعندما أنجبت طفلا ، اضطرت إلى ان تعهـد به إلى مرضعة .. حتى إذا عاد « المحروس » إلى ابويه ، اسرفا فى تدليله كما لو كان أميرا ، فكانت الأم تغذيه بالحلوى والمربى .. وكان الأب يتركه يرتع حافى القدمين ، ويتعلل — متفلسفا ! — بان طفله قادر على ان يظل عاريا كصغار الحيوانات ! .. وكان الاب — على العكس من اتجاهات الأم — يتخيل فى ذهنه صورة لما ينبغى أن تكون عليه رجولة الطفل، فحاول — لتحقيقها — ان ينشىء ابنه نشأة خشنة، على غرار الطريقة «الاسبرطية» .. فكان يرسـل الطفل إلى الفراش دون ما نار تدفىء حجرته ، ليقوى بنيته! وكان يعوده على تناول جرعات كبيرة من «الروم»،

ويلقنه السخرية من الطقوس الدينية ! .. بيد أن الطفـل كان هادئا بفطرته ، فلم يستجب لهذه التوجيهات .

وكانت أمه تجره خلفها دائما، وتصنع له من الورق المقوى لعبا ، وتروى له القصص ، وتؤثره بأحاديث لا نهاية لها ، يمتزج فيها المرح بالكآبة والمناجاة والتدليل . وفى تلك العزلة التى كانت تعيش فيها ، صبت فى مخيلة الطفـل كل ما كان يخالج نفسها من طموح مشتت ، كانت تطمع فى أن ترضى به كبرياءها المحطمة .. كانت تحلم له بأرفع المناصب ، وتتصوره وقد كبر ، وغدا جميلا ، حاضر البديهة ، متربعا فى إحـدى مناصب مصلحة الطرق والجسور ، او فى احد مراكز القضاء . ومن ثم تولت تعليمه القراءة ، ولقنته اغنيتين او ثلاثا ، كانت تعزف له ألحانها على معزف قديم تملكه .

على أن مسيو «بوفارى»، لم يكن يحفل كثيرا بالثقافة ، فلم ير فى كل هذه الجهود شيئا ذا قيمة .. كان كل ما يعنيه هو التفكير فيما إذا كان سيقدر لهما يوما ان يجدا ما يكفل لهما تعليم الطفل فى مدارس الحكومة ، او ما يمكنهما من أن يبتاعا له مكتبا او متجرا . وكان — فوق ذلك — يعتقد ان الإنسان يستطيع ان ينجح فى الحياة .. بالصفاقة ! .. أما مدام «بوفارى» فكانت تعض شفتيها حنقا ، وهى ترى ابنها يتسكع فى القرية .. إذ كان يحلو للطفل ان يتبع المزارعين فى حرثهم ، وان يطارد الغربان بالطوب ، وأن يقتطف التوت من فوق الأشـجار ، ويرعى الديكة الرومية بقصبة طويلة ، ويتـولى ، فى أوقات الحصاد ، تقليب الحزم لتجف ، ويرتع فى الغـابة ، ويلعب «الحجلة» فى فناء الكنيسة فى الأيام المطيرة ! .. وكان يتوسل

إلى خادم الكنيسة ليتركه يدق الأجراس فى الأعياد الكبيرة ، فيتملق كل جسمه بالحبل الضخم ، وينعم بالاحساس بنفسه محمولا على الهواء والحبل يتأرجح به !

وهكذا نشأ الصبى نشأة طبيعية ، كشجرة البلوط .. فأوتى يدين قويتين ، ولونا بديعا !

وإذ بلغ الثانية عشرة من عمره ، الحت امه فى ان يبدأ دراسته ، فتعهده قس القرية ، غير ان الدروس كانت من القصر وعدم الانتظام بحيث لم يكن يرجى منها نفع كبير .. فقد كان القس يلقنه هذه الدروس فى مخزن الكنيسة، كلما سنحت له فرصة عابرة بين صلاة تعميد وصلاة جناز !.. وكان الطفل يتلقاها وهو واقف على قدميه .. بل إن القس كان يرسل فى استدعاء تلميذه ــ فى بعض الأيام ــ عقب فراغه من صــلاة الغروب ، إذا لم يكن لديه ما يدعوه للخروج .. فكانا يصعدان إلى حجرة القس ، ويجلسان للدرس على ضوء مصباح يحوم حوله الذباب وفراشات الليل .. وكان الجو الحار يغــرى الصبى بالنوم ، كما يغفو القس ويداه فوق بطنه ، فلا يلبث ان ينبعث الغطيط من فمه المفتوح ! .. كذلك كان القس اثناء عودته من تقديم البركة لأحد المرضى فى قرية مجاورة يلتقى احيانا بشارل وهو يتسكع فى الحقول ، فيدعوه إليه ، ويقضى ربع الساعة فى وعظه تحت شجرة ، ثم ينتهز الفرصة ليحمله على تصريف الفعل الذى كلفه باستذكاره .. وكثيرا ما كان يقطع عليهما الدرس سقوط المطر ، أو مرور احد المعارف . وكان القس ــ بعد ذلك ــ يبدى رضاءه عن الصبى .. بل انه كان يقول إن له ذاكرة قوية !



ويرعى الديكة الروميـــة بقصـــبة طـويلة ، ويتولى فى أوقات الحصاد ، تقليب الحزم لتجف ..

ولم يكن لشارل أن يكتفى بهذا القدر من الدراسة ، إذ كانت امه قوية فى إصرارها على تعليمه .. ولم يشأ الوالد أن يقاوم ، إذ غلبه الخزى ، أو — بالأحرى — التعب . ولكنهما تريثا عاما آخر ، ريثما يتاح للصبى أن يتناول « القربان المقدس » الأول فى حياته . وما إن انقضت ستة اشهر على ذلك ، حتى تقرر نهائيا ارساله إلى مدرسة (روان) ، وصحبه ابوه بنفسه فى أواخر شهر اكتوبر ، ابان موسم « القديس رومان » .

* * *

● يستحيل على أحد منا أن يتذكر الآن شيئا عن «شارل بوفارى» .. على أنه كان عادى المزاج والطباع ، يلعب فى فترات الفراغ ، ويستذكر فى الحجرة المخصصة لذلك ، ويصغى بانتباه فى حجرة الدرس ، وياكل فى المطعم ، وينام فى « العنبر » .. شأن أى تلميذ آخر ! .. وكان ولى امره فى (روان) تاجرا يبيع الحديد الخردة بالجملة ، فى شارع (جانتيرى) . وقد اعتاد أن يسمح له بالخروج من المدرسة فى يوم واحد من أيام الآحاد فى كل شهر . فكان يفد — بعد أن يغلق متجره — ليصحبه إلى النزهة ومشاهدة السفن فى الميناء ، ثم يعود به إلى المدرسة فى الساعة السابعة ، قبيل موعد العشاء . وفى مساء كل يوم خميس ، كان الصبى يكتب لأمه خطابا طويلا بالمداد الأحمر ، يغلفه جيدا ، ثم يستذكر دروس التاريخ ، أو يقرأ فى كتاب قديم — عن رحلة « أنا كارسيس » — يعثر به مهملا فى غرفة الدرس . كما كان يحلو له — اثناء « الفسحة » — أن يتحدث إلى الخادم الذى كان من أبناء الريف مثله !

واستطاع بفضل اجتهاده أن يحتفظ دائما بترتيب متوسط بين تلاميذ الفرقة . بل إنه وفق مرة إلى الحصول على جائزة فى التاريخ الطبيعى. بيد أن والديه ما لبثا أن سحباه من المدرسة ، وهو لم يزل بعد فى الفرقة الثالثة ، ليحملاه على دراسة الطب فقط ، إذ كانا يؤمنان بقدرته على أن يستكمل دراسته دون ما معونة !

واختارت له امه حجرة فى الطابق الرابع من منزل يطل على ترعة (روبيك) ، عند رجل من معارفها يشتغل بالصياغة . وبعد أن دبرت امر إقامته ، حصلت له على بعض أثاث تمثل فى منضدة ومقعدين ، كما أحضرت من دارها سريرا قديما من خشب الكريز ، وابتاعت قرص مدفأة من الحديد الزهر ، وكمية من الأخشاب لتدفئة صغيرها المسكين ! .. ثم رحلت فى نهاية الأسبوع ، بعد أن أزجت إليه مئات الوصايا بأن يحسن السلوك ، بعد أن غدا طليقا بغير رقيب .

على أن «شارل» كاد يصعق ، حين رأى برنامج الدراسة فى لوحة الاعلان .. كانت هناك دروس فى التشريح ، ودروس فى علم الأمراض (الباثالوجيا) ، ودروس فى علم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) ، ودروس فى الصيدلة (الفارماكوبيا) ، ودروس فى الكيمياء .. وفى النبات .. وفى التشخيص ، والعلاج .. عدا علم الصحة ، وعلم الطب .. أسماء كان يجهل اشتقاقاتها ومعانيها جميعا ، فبدت له كأبواب هياكل تكتنفها الظلمات !

ولم يفهم من هذه الدروس شيئا ! .. بل انه لم يستطع

– رغم إصغائه فى انتباه تام – أن يدرك لها مغزى ! .. وكانت
لديه كراسات مجلدة واظب على تدوين دروسه فيها باجتهاد ،
ولم يتخلف يوما عن الطواف بأسرة المرضى فى المستشفى ..
كما كان يؤدى واجباته اليومية على نحو ما يفعل حصان
الطاحونة ، إذ يدور فى مكانه وهو معصوب العينين ، لا يعرف
عن نوع الحبوب التى يسخر لطحنها شيئا !

وكانت امه ترسل إليه فى كل اسبوع قطعة من اللحم
المشوى ، فكان يتناول منها غداءه – إذا ما عاد من المستشفى
– وهو جالس ينقر الحائط بحذائه .. ثم لا يلبث أن يعود
إلى الدروس فى قاعة الجراحات أو «عنابر» المستشفى . حتى
إذا افل النهار ، عاد إلى داره سالكا الطريق الطويل عبر
البلدة ، فيتناول ما يقدمه له صاحب المنزل من عشاء هزيل ،
ثم يصعد إلى حجرته ليعكف على الاستذكار امام المدفأة ،
والبخار يتصاعد من ملابسه المبللة .

وفى أمسيات الصيف الجميلة ، حين تقفر الطرقات الحارة
من المارة ، وتلهو الخادمات بكرات من الفلين امام الدور ،
كان « شارل » يفتح نافذته ، ويتكىء بمرفقيه على حافتها ،
ليطل على الترعة، التى تجعل من هذا الحى من احياء (روان)
ما يشبه مدينة (بندقية) صغيرة ، متواضعة . وكانت الترعة
تنساب تحت بصره بين القناطر والأسوار ، تنعكس على
صفحتها الألوان الصفراء ، والبنفسجية ، والزرقاء .. وقد
جثا العمال على حافتها يغسلون أذرعهم بمائها .

وعلى اسطح المنازل المقابلة، كان يرى ضفائر غزل القطن
وقد علقت إلى عصى طويلة لتجف . وخلف تلك الأسطح ،

كانت السماء الصافية تمتد ، والشمس تجرر اذيالها نحو
الغروب .. لكم كان الجو يبدو له جميلا ، والهواء منعشا ،
فى ظلال الأشجار .. فكان يفتح طاقتى أنفه بشدة ،
ليجتذب على البعد روائح الريف التى لم تكن تترامى إليه !

وأخذ جسمه ينحف ، وقده يستطيل .. واكتسى وجهه
وجوما ساجيا أضفى عليه شيئا من الجاذبية !.. وبدأ حماسه
للدرس يفتر ، فكان من الطبيعى أن يتحلل من العهود التى
قطعها على نفسه .. وكان أن تقاعس يوما عن المرور لتفقد
المرضى بالمستشفى .. وفى اليوم التالى تخلف عن إحدى
المحاضرات .. وشيئا فشيئا ، استساغ الكسل حتى انتهى
به الأمر إلى الانقطاع عن الدروس تماما ! .. وأدمن ارتياد
المقاهى ، وشغف بلعب « الدومينو » .. وخيل له ان فى
احتباس نفسه هكذا ، كل مساء ، فى حانة قذرة ، حيث يقرع
رخام المناضد بقطع « الدومينو » المصنوعة من عظام الخراف
وقد حفرت فيها نقط سوداء .. خيل إليه ان فى هذا العمل
مظهرا للحرية يرفع من تقديره لنفسه ! .. كان هذا – فى
نظره – مقدمة للحياة الدنيا، وسبيلا إلى اللذات المحظورة !..
فكان يشعر عندما يضع يده على مقبض الباب – بعد عودته إلى
غرفته فى المساء – بنشوة تكاد تشبه اللذة الحسية !

وتفتحت نفسه عن اشياء كثيرة كانت مكبوتة ، فحفظ عن
ظهر قلب بعض الأغنيات التى كان يستقبل بها الزائرات ،
وتحمس لبيرانجيه ، مؤلف الأشعار الغنائية .. وتعلم كيف
يمزج انواع الكحول .. واخيرا ، عرف الحب !

وبفضل هذه الأعمال التحضيرية، كان رسوبه فى الامتحان

شنيعا ، بينما كان والداه يرتقبانه فى دارهما ليحتفلا بنجاحه !

***

● وعاد «شارل» سائرا على قدميه، حتى إذا بلغ مدخل القرية ، توقف وارسل فى طلب أمه ، وقص عليها ما أصابه . فالتمست له الاعذار ، وعزت رســوبه إلى ظلم الممتحنين ، وأولته بعض التشجيع ، آخذة على عاتقها تدبير الأمور ! .. ولم يعلم مسيو « بوفارى » بالحقيقة إلا بعد خمس سنوات .. وكانت قد فقدت جدتها ، فتقبلها فى تسليم ، وان لم يتصــور ان من الممكن ان يكون فى سلالته ابن خائب !

على ان « شـارل » تحول إلى الجد مرة أخرى ، فاقبل يراجع دروسه بغير توان ، واستظهر جميع المواد ، ففاز فى الامتحان النهائى بدرجة لا بأس بها .. وما كان اسعد أمه يوم نجاحه ! .. فلقد اولمت يومذاك وليمة كبيرة !

والآن .. ترى اين يباشر مهنته ؟ .. أفى (توست)؟..

لقد كان هناك طبيب طاعن فى السن تتوقع مدام «بوفارى» موته منذ أمد طويل ، فلم يتريث « شـــارل » حتى يودع الشـــيخ الحياة ، بل استقر فى مواجهته كخليفة له !

ولكن الأمر لم ينته بتربية الابن ، وتعليمه الطب، واتخاذ (توست) مقرا يزاول فيه مهنته .. إذ كان لا بــد له من امرأة ! .. ووجدت له امه الزوجة المنشودة .. ارملة احــد محضرى (دييب) .. لها من العمر خمس واربعون سنة ، ومن الدخل الف ومئتا فرنك !

ومع ان مدام «دوبيك» هذه كانت دميمة ، عجفاء كالوتد، تملأ البثور وجهها كما تنتشر البراعم فى الاشجار فى فصل الربيع ، إلا ان فرص اختيار الزوج كانت واسعة أمامها ،

مما حدا بالأم «بوفارى» إلى أن تجاهد كى تتغلب على الساعين للفوز بيدها ! .. وبالفعل ، اســتطاعت ان تحبط الاعيب قصاب كان رجال الدين يؤازرونه !

وكان « شـارل » يخال ان الزواج سيمكنه من تحســين حاله ، فيغدو أكثر حرية وقدرة على التصرف فى شـئونه الشخصية والمالية . بيد ان زوجته لم تلبث ان غدت صاحبة الأمر والسلطان ، حتى لقد كانت تملى عليه ما ينبغى ان يقول أمام الناس وما يجب أن يمتنع عن قوله ! .. وفرضت عليه ان يصوم ايام الجمعة ، وأن يرتدى من الثياب ما تحب هى.. وان يلح فى مطالبة العملاء الذين لا يدفعون اتعابا ! .. بل إنها كانت تفتح خطاباته ، وتراقب حــركاته ، وتســترق السمع خــلال ثقوب الباب ، إذا ما حضرت إلى العيادة بعض السيدات لاستشارته !

وفضلا عن هذا ، كانت فى حاجة إلى كوب من «الكاكاو» كل صــباح ، وإلى انواع من الرعاية لا حصر لها .. وكانت دائمة الشكوى من أعصابها ، وصــدرها ، ومفاصلها ! .. يؤذيها وقع الأقدام .. وتثقل عليها الوحدة إذا غادرها .. فاذا سعى أحد إلى جوارها ، ظنت انه لم يأت إلا ليشــهد احتضارها ! .. وكانت إذا ما عاد « شـــارل » فى المســاء ، تخرج من تحت اغطيــة الفراش ذراعيها العجفاوين لتطوق رقبته .. وما إن يجلس على حافة الفراش ، حتى تنطلق تبث همومها : فهو ينساها ، ويحب غيرها !.. ولقد تنبئوا لها بأنها ستشقى ! .. ثم تنتهى من فيض الهموم والهــواجس إلى ان تسأله زجاجة من دواء يقوى صحتها.. وقدرا أكبر من الحب!!

———— ● ————

الفصل الثانى

● حوالى الساعة الحادية عشرة من إحـــدى الليالى ، استيقظ « شارل » وزوجته وخادمهما على وقع حوافر جواد مسرع ، لم يلبث أن وقف أمام باب دارهم . وفتحت الخادم نافذة المخزن ، وتبادلت حديثا قصـــيرا مع رجل كان تحت النافذة .. وإذ انباها بانه حضر لاستدعاء الطبيب ، وأنه يحمل رسالة إليه ، هبطت درجات السلم وهى ترتجف من البرد ، وفتحت الأقفال ثم رفعت المزاليج تباعا .

وترك الرجل جواده ، وسار خلف الخادم مقتحما المخدع دون انتظار ، ثم أخرج من قلنسوته الصوفية ذات «الشرابات» الرمادية ، رسالة ملفوفة فى أطواء قطعة خلقة من القماش ، وقدمها بأدب إلى « شارل » الذى اتكأ بمرفقيه على الوسادة ليقراها ، بينما وقفت « نستازى » ــ الخادم ــ إلى جــوار السرير تحمل الضوء .. ودفع الحياء زوجة الطبيب إلى ان تظل مولية وجهها نحو الحائط ، وظهرها إليهم .

وتضمن الخطاب ــ الذى كان مغلقا بخاتم صغير من الشمع الأزرق ــ رجاء ضارعا إلى السيد «بوفارى» كى يبادر فورا إلى مزرعة (برتو) ليجبر ساقا مكســـورة .. وكانت المسافة بين (توست) و (برتو) تزيد على ستة فراسخ ، فى طريق زراعى تمر بكل من (لنجفيل) و (سانتا فيكتور) .. وكان الليل حالكا ، والسيدة الزوجة تخشى ان يحل بزوجها اى

مكروه . لذلك استقر الراى على ان يرحل الرسول ، ثم يتبعه « شارل » بعد ثلاث ساعات ــ حين يشرق القمر ــ على ان يوفد الرجل غلاما للقائه فيرشده إلى المزرعة ، ويرفع ما قد يكون فى طريقه من حواجز .

وفى نحو الساعة الرابعة صباحا ، بدأ « شارل » رحلته إلى (برتو) ، متدثرا بمعطفه . ولم يكن قد تخلص تمامـــا من سلطان الكرى ودفء السرير ، فترك دابته تحمله فى خطوات هادئة تؤرجحه .. حتى إذا وقفت من تلقاء نفسها عند الحفر المحاطة بالأشواك ــ التى كان الفلاحون يحفرونها على حدود المزارع ــ استيقظ من اغفائه منتفضا ، وتذكر صاحب الساق المكسورة ، فأخذ فى استعراض كافة أنواع الكسور التى عرفها .

وما لبث المطر ان كف عن السقوط ، واخذ النهار يدنو .. وعلى غصون اشجار التفاح العارية ، وقفت العصافير جامدة ، وقد نفشت ريشها لريح الصباح الباردة .. وكان الريف يمتد على مرمى البصر ، ومجموعات الأشجار المحيطة بالمزارع تبدو كبقع بنفسجية داكنة على الفضاء الرمادى الشاسع الذى كان يختلط عند الأفق بظلمة السماء .

وكان « شارل » يفتح عينيه بين الفينة والفينة ، فلا يلبث النعاس ان يغلبه ، ويستسلم لسنة حالمة يختلط فيها حاضره بذكرياته .. حتى لقد خال لنفسه شخصيتين فى وقت واحد : فهو طالب ، وزوج ، معا .. وهو نائم على فراشه كما كان منذ هنيهة ، ثم هو يجوس فى قاعةالجراحات كما كان يفعل ايام

الدراسة .. واختلطت فى رأسه رائحة العقاقير بأريج الخضرة الندية ، وبحفيف حلقات الستائر وهى تنزلق على قضبان السرير ، وزوجته تغط فى نومها !

وإذ بلغ (فاسونفيل) لمح فتى صغيرا يجلس على العشب ، عند حافة حفرة ..

وهتف الغلام إذ رآه : « انت الطبيب ؟ » .

وإذ اجابه « شارل » ، خلع الغلام نعليه وأمسك بهما بين يديه ، وانطلق يعدو أمامه ليرشده إلى الطريق .

وأدرك الطبيب من دليله اثناء سيرهما ، أن ساق مسيو « روو » — الذى كان ولا بد من أثرياء المزارعين — قد كسرت مساء اليوم السابق ، وهو عائد من حفل لدى أحد جيرانه ، وأن زوجة هذا السيد قد توفيت منذ عامين ، وليس له إلا ابنة تساعده فى شئون المنزل .

وتخللت الطريق آثار عجلات اخذت تزداد عمقا إذ اقتربا من (برتو) . وما لبث الغلام أن اختفى خلال فرجة فى سياج المزرعة ، ليعود بعد هنيهة إلى الظهور عند نهاية السياج ، فيفتح الباب .. وسار الحصان وحوافره تنزلق على العشب المبتل .. واحنى « شارل » راسه ليتجنب الاغصان .. وإذ دخل الضيعة ، اخذت كلاب الحراسة تنبح وتشد السلاسل التى تربطها إلى مآويها ، فاجفل الجواد فى فزع شديد .

كانت ضيعة بديعة .. ومن خلال الابواب المفتوحة ، كانت ثمة خيول ضخمة للحرث تأكل مطمئنة فى مذاود جديدة ..

بينما تكدست على طول الجدران اكوام السماد التى تتصاعد منها الأبخرة .. وبين الدجاج والديكة الرومية ، بدت خمسة طواويس او ستة تلتقط الحبوب ، وينم مظهرها على أنها حقيقة مفخرة حظائر مقاطعة (كو) .

اما حظيرة الأغنام فكانت طويلة ، والمخزن عاليا مصقول الجدران .. وتحت المظلة ، كانت ثمة عربتان كبيرتان ، واربعة محاريث كاملة بأسواطها ، واطواقها ، وسروجها التى اتسخ كساؤها الصوفى الأزرق ، لفرط ما كان يتساقط عليها من غبار المخازن .. وكان الفناء يرتفع تدريجا ، وقد تخللته اشجار غرست على ابعاد منتظمة .. ومن ناحية البحيرة ، انبعثت اصوات الأوز .

ولاحت لدى عتبة باب المنزل سيدة شابة فى ثوب من الصوف محلى بثلاثة أفواف (كرانيش) ، فاستقبلت السيد « بوفارى » وقادته إلى المطبخ، حيث كانت ثمة نار كبيرة يغلى فوقها طعام الفطور ، فى قدور من جميع الأحجام .. وإلى أحد جانبى المدفأة ، كانت ثمة ملابس مبتلة نشرت لتجف على الوهج .. وبدت المجرفة وقابضة الجمر والمنفاخ ضخمة الحجم ، تلمع كالصلب المصقول ، بينما رصت على طول الجدار ادوات للطهو كثيرة العدد ، انعكس عليها لهب الموقد ، تخالطه طلائع اشعة الشمس التى اخذت تنساب خلال زجاج النوافذ .

وما لبث « شارل » أن صعد إلى الطابق الأول من الدار، ليرى المريض ، فألفاه فى فراشه ينضح بالعرق تحت الغطاء ، وقد القى طاقيته القطنية جانبا .

كان رجلا بدينا ، قصيرا ، فى الخمسين من عمره ، ابيض البشرة ، ازرق العينين ، اصلع مقدم الرأس ، ويزين اذنيه بقرطين ! .. وعلى مقعد قريب منه كانت ثمة قنينة خمر أخذ يرفعها إلى فمه بين الفينة والفينة ، ليشد من عزمه ، ويرفع من روحه المعنوية !

ولم يكد الرجل يرى الطبيب حتى خفف من هياجه .. وبدلا من أن يمضى فى سيل الشتائم التى كان يطلقها بسخاء منذ اثنتى عشرة ساعة ، تحول يئن أنينا خافتا .

وكان الكسر بسيطا ، لم تصحبه اية مضاعفات .. بل إن « شارل » لم يكن يطمع فى كسر اسهل منه ! .. وتذكر لفوره مسلك اساتذته بجوار اسرة الجرحى ، فأخذ يشجع المريض بكل ما يعرفه من الكلمات الطيبة .. وبما تعلمه عن الجراحين من مواساة لطيفة تشبه الزيت الذى يدهنون به مباضعهم (مشارطهم) !

واخذ اهل المريض يبحثون فى المخزن حتى جمعوا حزمة من السدابات الخشبية ليتخذوا منها جبائر ، فتناول شارل واحدة منها شقها إلى قطع عكف على صقلها بلوح مكسور من زجاج النوافذ ، بينما كانت الخادم تمزق بعض الملاءات ليتخذوا منها اربطة .. والآنسة « ايما » ـ ابنة الرجل ـ تحيك وسادات صغيرة .. وكانت قد اضاعت وقتا طويلا فى البحث عن صندوق ادوات الحياكة ، فلما استحثها والدها لم تجبه ببنت شفة ، وإنما اقبلت على الحياكة .. وكانت ، كلما شكت الابرة اصابعها ، ترفع هذه الاصابع إلى فمها وتمصها ! .. واعجب « شارل » ببياض اظافرها اللامعة ، الدقيقة الأطراف .. كانت

اكثر نصوعا من عاج (دييب) ، وقد قصت على شكل اللوز ! .. على أن يدها لم تكن ـ رغم ذلك ـ جميلة ، ولعل بشرتها كانت اقل صفاء مما ينبغى ، كما كانت بادية الجفاف عند مفاصل الأصابع .. كانت يدا مسرفة فى الطول ، يعوزها شيء من ليونة التثنى ! .. ولكن جمال الفتاة كان يتركز فى عينيها العسليتين اللتين كانت أهدابهما تضفى عليهما صبغة السواد .. واللتين كانت تنبعث منهما نظرات توحى للمرء بالصراحة المشوبة بالسذاجة الجريئة !

وإذ انتهت عملية التجبير ، دعا مسيو « روو » الطبيب إلى بعض الطعام قبل رحيله ، فهبط « شارل » إلى بهو الطابق الأرضى ، حيث الفى المائدة معدة لشخصين ، إلى جوار سرير كبير ذى غطاء من قماش محلى برسوم تمثل أشخاصا من الأتراك . وكان المكان يتضوع بشذى زهر السوسن ، وقد بدت بعض الملاءات النظيفة فى صوان من خشب البلوط فى مواجهة النافذة .. وفى الأركان ، رصت جوالات الحنطة التى ضاقت بها جنبات المخزن المجاور المتصل بالبهو بثلاث درجات حجرية .

وكان يزين البهو راس لمنيرفا(١) رسم بالقلم الأسود ، واحيط باطار مذهب كتب تحته بالحروف القوطية : « إلى ابى العزيز » .. وقد علقت الصورة إلى مسمار فى وسط الحائط الذى تساقط طلاؤه الأخضر بفعل الرطوبة .

* * *

(١) كتابى : « منيرفا » كانت آلهة الحكمة عند القدماء .

● وجلست الفتاة إلى المائدة مع « شارل » .. وجرى الحديث : عن المريض — أولا — ثم عن الجو وموجات البرد القارس ، والذئاب التى تعدو خلال الحقول فى الليل ، وكانت الآنسة « روو » لا تستطيب الإقامة فى الريف ، لا سيما بعد أن غدت تضطلع وحدها — تقريبا — برعاية شئون المزرعة .. وكانت ترتجف أثناء تناول الطعام ، لفرط رطوبة الصالة ، مما كشف قليلا عن شفتيها المكتنزتين اللتين اعتادت أن تعضهما فى أويقات الصمت .

كانت رقبتها تظهر خلال ياقة مزدوجة ، وضفيرتاها السوداوان الناعمتان تبدوان — لفرط نعومتهما — قطعة واحدة ، تنشق إلى شعبتين — عند منتصف الرأس — بخط مستقيم يتبع استدارة الرأس ، ثم تعود الشعبتان إلى الالتقاء خلف الرأس فى كعكة سميكة تنحدر منها خصلتان نحو الصدغ ، لا تكاد أذنا الفتاة تبينان خلالهما .. وكانت هذه أول مرة يرى الطبيب الشاب فيها شعرا منسقا بهذا الشكل ! .. أما وجنتا الفتاة فكانتا متوردتين .. وكانت ثمة عوينة فى إطار من الصدف تتدلى من زرين فى صدارها ، على نحو ما يفعل الرجال !

وصعد « شارل » ليودع الأب — « روو » — ثم هبط إلى البهو ثانية ، فاذا الفتاة واقفة إلى النافذة ، وقد أسندت إليها جبهتها ، وأخذت تتأمل الحديقة ، حيث أطاحت الريح بالعصى الخشبية الصغيرة التى كانت تسند شجيرات الفاصوليا .. وحين شعرت به ، التفتت إليه متسائلة : « أتبحث عن شىء ؟ » .. فأجاب : « سوطى من فضلك ! » .

وراح يبحث فوق السرير ، وخلف الأبواب ، وتحت المقاعد .. غير أن السوط كان قد سقط على الأرض بين الجدار والجوالات . وما لبثت « ايما » أن لمحته ، فانحنت فوق جوالات القمح لتلتقطه .. ودفعت الشهامة « شارل » إلى أن يسرع فيمد ذراعه ليلتقطه قبلها ، فاذا به يحس بصدره يمس ظهر الفتاة المنحنية أمامه .. وبادرت هى إلى الاعتدال وقد تضرج وجهها ، ثم التفتت إليه من فوق كتفها وهى تناوله سوطه المصنوع من عصب الثور .

وبدلا من أن يعود « شارل » إلى (برتو) بعد ثلاثة أيام كما وعد ، جاء فى اليوم التالى مباشرة ، ثم أخذ يتردد على الضيعة مرتين فى الأسبوع بانتظام ، عدا الزيارات غير المتوقعة التى كان يقوم بها من آن إلى آخر ، وكأنها محض مصادفات !

وسارت الأمور على ما يرام ، وتم شفاء المريض .. وعندما رؤى الأب « روو » — بعد ستة وأربعين يوما — يحاول السير وحده فى بيته العتيق ، اعتبر الناس مسيو « بوفارى » نطاسيا بارعا ، لا سيما حين أخذ الأب « روو » يردد أنه ما كان من الممكن أن يحظى بعلاج من أكبر أطباء (ايفتو) — أو (رووان) — يفوق العلاج الذى حظى به على يدى مسيو « بوفارى » !

ولم يفكر « شارل » فى أن يسأل نفسه عن سر المتعة التى يستشعرها فى التردد على (برتو) .. ولو أنه حاول التساؤل لما كان ثمة شك فى أن يعزو هذا الإسراف إلى خطورة

حال المريض ، او إلى الكسب الذى كان يرتقبه . ولكن ، احقا كان هذا هو السبب فى أن زياراته لتلك الضيعة كانت تبدو — خلال شواغل حياته — كأحداث غير عادية ذات جاذبية وفتنة ؟

* * *

● كان فى ايام تلك الزيارات يستيقظ مبكرا ، ويرحل فى عجلة ، مستحثا دابته .. حتى إذا ترجل امام الدار ، مسح نعليه بالحشائش ، ولبس قفازيه الأسودين قبل أن يلج .. وكان يحس بالنشوة ، إذا ما بلغ الفناء ، وشعر بباب السياج يدور بجوار كتفه ليسمح له بأن يدخل ، وحين يسمع صياح الديكة فوق الجدار ، ويرى الأولاد مقبلين لاستقباله ! .. واحب الأب « روو » الذى كان يربت يده ويدعوه بمنقذه ! .. كما احب وقع حذاءى « ايما » على أرض المطبخ النظيفة .. كان كعباها العاليان يضيفان طولا إلى طولها .. وكان النعل الخشبى يرتفع — إذا ما سارت امامه — ليصطك بجلد الحذاءين فى صوت مكتوم .

وكانت الفتاة ترافقه دائما عند انصرافه حتى بداية السلم الخارجى ، ثم تظل واقفة ريثما يحضر جواده .. وكانا يظلان صامتين — إذ يكونان عادة قد تبادلا تحية الوداع من قبل — والهواء الطلق يهب حولهما فيعبث ببعض خصلات الشعر الحائرة على عنق الفتاة ، ويهز طرفى حزام مرولتها على ردفيها فيرفرفان كما ترفرف الأعلام .

وحدث فى إحدى المرات ان ذاب الجليد — وهى تقف عند مدخل الدار — فبلل الماء المنساب جذوع الأشجار ، واخذ

يتساقط من أسطح مبانى الضيعة ، فتحولت « ايما » إلى الداخل واحضرت مظلتها ففتحتها .. وكانت المظلة من الحرير المموج المتعدد الألوان ، المعروف باسم « رقبة الحمامة » ، فلما نفذت خلاله اشعة الشمس ، عكست على بشرة الفتاة الناصعة أطيافا متأرجحة من الضوء .. وانبسطت أسارير وجهها وهى تستمرىء الدفء الذى بعثته الشمس فى جسمها ، بينما كانت قطرات الماء تتساقط على حرير المظلة المشدود ، محدثة طرقات متتابعة .

وكانت زوجة «شارل» لا تغفل — فى الفترات الأولى لتردده على (برتو) — السؤال عن المريض .. بل إنها افردت لمسيو « روو » صفحة بيضاء ، بديعة ، فى مفكرة الحسابات التى كانت تحتفظ بها . بيد انها لم تكد تعرف أن له ابنة حتى أخذت تتحرى ، فعلمت أن الآنسة « ايما » ، التى نشأت فى رعاية راهبات «الأورسلين»، قد حظيت بما يسمونه «تربية راقية»، ومن ثم فهى على دراية بالرقص والجغرافيا والرسم ، كما تحذق التطريز والعزف على « البيانو » .. وتلك كانت الطامة !

واخذت الزوجة تردد لنفسها : « هذا اذن مبعث كل هذا الاشراق الذى يتجلى على وجهه كلما ذهب لزيارتها ! .. وهو السبب فى حرصه على ارتداء صداره الجديد ، مجازفا بتعريضه للمطر الذى قد يتلفه ! .. آه .. هذه المرأة ! .. هذه المرأة ! » .. وكرهتها بالغريزة !

وقد كانت فى بداية الأمر تسرى عن نفسها بتلميحات لم

يفهمها « شارل » ، ثم بإشارات عارضة كان يتجاهلها خشية العاصفة ، ثم ــ أخيرا ــ باستجوابات مباغتة لم يكن يدرى كيف يجيب عليها .. « لمــاذا يتردد على (برتو) مادام مسيو « روو » قد شفى ، وما دام القوم لم ينقدوه بعد أتعابا ؟ .. آه ! .. لابد أن ذلك يرجع إلى وجود شخص هناك .. شخص يحسن الحديث ويحــذق تنميقــه .. شــخص لبق حاضر البديهة .. وهذا هو ما يجتــذبه .. انه يتــوق إلى فتيــات المدن ! » .

وتمضى فى مساجلتها قائلة : « وهل ابنة الأب « روو » من فتيات المدن ؟ .. هذا غير معقول ! .. لقد كان جدهم راعى غنم .. ولهم ابن عم أوشك أن يقدم إلى المحاكمة لاشتراكه فى نزاع مشين .. ففيم اذن التعالى ، وفيم اذن ارتداء الحرير للذهاب إلى الكنيسة فى أيام الآحاد ، وكأنها كونتة ؟ .. لولا محصول اللفت لعجز أبوها المسكين عن سداد ديونه فى العام الماضى ! » .

وسئم « شارل » هذه النغمة البغيضة ، فكف عن التردد على (برتو) ، لا سيما بعد إذ حملته « هلويز » ــ زوجته ــ على أن يقسم بالكتاب المقــدس على أن لا يعــود إلى تلك الزيارات ، وبعد أن غمرته بفيض من النحيب والقبلات فى ثورة عاتية من الحب ! .. بيد أن الرغبة القوية لم تلبث أن تمردت على استكانته وخنوعه .. وفى نوع من الرياء الساذج ، أخذ يؤول قسمه .. فحظر رؤيته الفتاة لا يجرده من الحق فى أن يحبها .. لا سيما وأن زوجته عجفــاء ، كبيرة الأســنان ،

لا تتخلى قط ــ وفى جميع فصول السنة ــ عن الشال الأسود الصغير ، الذى كانت أطرافه تتدلى بين لوحى كتفيها .. وكان قدها محشورا دائما فى ثوبها وكأنه مغيب فى غمد ! .. ثم ان أثوابها كانت قصيرة ، تكشف عن ساقين معروقتين . غــاب قدماهما فى جوربين رماديين عقدت فوقهما سيور حذاءيهما .

وكانت أم « شارل » تفد لزيارتهما بين آن وآخر ، ولكنها لم تلبث أن أحست ــ بعد زمن ــ أن زوجة ابنهــا أخــذت تستثيرها ضده ، إذ أصبحت المــرأتان كســكينين تنحرانه بملاحظاتهما وتأنيباتهما .. فهــو مخطىء إذ يلتهم كل هــذا الطعام ! .. ثم ، لماذا يقدم الشراب لكل وافد ؟ .. ولمــاذا يركب رأسه ويرفض باصرار ارتداء « الفانلات » ؟ !

***

● وحدث فى مستهل الربيع، أن هرب أحد وكلاء الأعمال من (انجوفيل) ، حاملا معه كل ما كان مودعا فى مكتبــه من أموال ، ومن بينها جل ثروة الأرملة «دوبيك» على أن «هلويز» وان ظلت تمتلك دارها الخاصة فى شارع (سان فرانسوا) ، فضلا عن حصة فى إحدى السفن تقدر بســتة آلاف فرنك ، إلا أن هذه الثروة المزعومة ــ التى كان لها دوى عال ــ لم يبد من آثارها فى بيت الزوجيــة ســوى بعض الأثاث والملابس الخاصة .

ولم يكن بد من مناقشة هذا الأمر واستجلائه ، بعد هرب وكيل الأعمال .. فاذا بالمنزل قد استغرقه الرهن ، وإذا مصير ما كان مودعا لدى وكيل الأعمال قد بات لا يعلمه إلا الله وحده،

وإذا نصيبها فى السفينة لا يعدو ــ فى الحقيقة ــ الف فرنك !..
إذن فقد كذبت السيدة الفاضلة ! .. وفى سورة الغضب ،
هشم مسيو « بوفارى » الأب مقعدا على البلاط ، واتهم زوجته
بأنها كانت السبب فى شقاء ابنهما ، إذ ربطته إلى تلك الفرس
العجفاء التى لا يفضل سرجها جلدها ! .. وكان الأبوان قد
وفدا على (توست) لبحث هذا الموضوع ، فدارت معارك
ارتمت « هلويز » خلالها على صدر زوجها وهى منهمرة الدمع،
تناشده ان يحميها من أبويه .. فلما اراد « شارل » ان يدافع
عنها ، غضب والداه ورحلا ..

غير ان الصدمة كانت قد أحدثت اثرها .. فبينما كانت
« هلويز » تنشر الغسيل فى صحن الدار ــ بعد ثمانية أيام ــ
اصابتها نوبة جعلتها تبصق دما .. وفيما كان « شارل » منهمكا
فى اسدال الستار على النافذة ــ فى اليوم التالى ــ وظهره
نحوها ، هتفت : « آه يا الهى ! » ، وارسلت زفرة غابت
بعدها عن الوعى .. وماتت ! .. ويا للعجب !

وإذ انتهت كل مراسم الدفن ، عاد «شارل» إلى المنزل ..
ولم يجد احدا بالطابق الأرضى ، فصعد إلى الطابق الأول ،
وولج غرفة النوم، حيث راى ثوب زوجته الراحلة معلقا بجانب
الفراش .. واسند راسه إلى مكتبه مستغرقا فى حلم حزين
حتى المساء .. فلقد كانت تحبه على اية حال !!

الفصل الثالث

● اقبل الأب « روو » ذات صباح يحمل إلى « شارل » اجر
علاج ساقه : خمسة وسبعين فرنكا من القطع فئة الأربعين
سنتا ، ودیکا رومیا ! .. وكان قد علم بمصابه فراح يواسيه
ما وسعه ، قائلا وهو يربت كتفه : « انني ادرك مدى مصابك،
فقد مرت بى نفس التجربة .. لقد كنت انطلق فى الحقول
ــ بعد ان فقدت زوجتى المسكينة ــ لأخلو إلى نفسى ، فأجثو
عند ساق احدى الأشجار ابكى وانادى الله ، واهرف له بأقوال
سخيفة ! .. وكم وددت لو اننى اصبحت مثل آكل الحشرات
المعروف باسم « الخلد » ، الذى اراه على الأغصان والديدان
تتلوى فى بطنه ! .. بل لقد ذهبت إلى حد ان تمنيت لو اننى
نفقت كالدابة ! .. وكنت إذا ما ذكرت ان سواى من الأزواج
يضمون بين اذرعهم ــ فى تلك اللحظة ــ زوجات لطيفات
صالحات ، أدق الأرض بعصاى فى عنف ! .. كنت شبه
مجنون ، حتى لقد امسكت عن الطعام . وكان مجرد التفكير فى
الذهاب إلى المقهى يثير اشمئزازى ! .. لعلك لا تصدق ! ..
على ان الأيام تتابعت ، يطرد كل منها الآخر فى رفق ..
واقبل ربيع فى أعقاب شتاء ، وخريف فى ذيل صيف .. وما
لبث كل شىء ان تسرب رويدا وزايلنى قطرة اثر قطرة .. او
بالأحرى ، رسب فى أعماقى ، إذ لابد من ان يبقى شىء فى
اغوار النفس ، او لابد ــ كما يقولون ــ من ان يبقى فوق
الصدر ثقل جاثم ! .. على اننا يجب ان لا نسلم انفسنا لليأس.
او نطلب الموت ، إذا ما مات احد من احبابنا ، ما دام هذا

مصيرنا جميعا ! .. فانفض الحزن عن نفسك يا مسيو « بوفارى » تجده يفارقك ! .. وتعال لزيارتنا ! .. اتعلم ان ابنتى تفكر فيك بين وقت وآخر ، وتتساءل : « أهكذا نسينى ؟ » .. هاهو ذا الربيع مقبل عما قريب ، وسنشركك معنا فى اصطياد الأرانب لتسرى عن نفسك قليلا ! » .

واخذ « شارل » بالنصيحة ، فذهب لزيارة (برتو) ، حيث الفى كل شىء على ما كان عليه قبل خمسة اشهر .. وكانت أشجار الكمثرى قد ازهرت واستطاع الأب « روو » أن يسير على قدميه ، فكان يغدو ويروح باعثا الحياة فى المزرعة .. ورأى الرجل أن من واجبه أن يبالغ فى إكرام الطبيب إلى أقصى حد ، نظرا لنكبته المحزنة ، فطلب إليه أن لا يرفع قبعته ، وأخذ يتكلم إليه بصوت خفيض ـ وكأنه يتحدث إلى مريض ـ بل إنه أظهر غضبه لأنهم لم يعدوا للزائر شيئا أخف من المعتاد ، كقدور القشدة والكمثرى المطبوخة ، وأخذ يروى له النوادر ، فاذا بشارل ينسى نفسه ويضحك .. ثم لا يلبث أن يذكر زوجته فيعود إلى وجومه . وعندما قدمت لهما القهوة ، لم يعد يفكر فيها !

وأخذ تفكيره فيها يتضاءل كلما ازداد اعتياده على الحياة بمفرده . بل إن لذة الحرية التى عادت إليه حديثا، جعلته أكثر احتمالا لحياة الوحدة . فقد أصبح فى وسعه أن يغير مواعيد طعامه ، وأن يخرج ويدخل دون أن يضطر إلى تقديم حساب عن حركاته ، وأن يمد أطرافه على طول السرير وعرضه إذا ما شعر بالتعب . وهكذا أخذ يعنى بنفسه ويدللها ، ويستمرىء ما كان يوجه إليه من عبارات التعزية !

ولقد عاد عليه موت زوجته ـ فوق كل هذا ـ بنفع فى مهنته ليس بالقليل ، إذ ظل الناس شهرا بعد وفاتها يرددون : « ياللشاب المسكين ! .. ويالنكبته ! » .. وذاع اسمه ، فازداد عملاؤه .. كما أصبح يذهب إلى (برتو) كلما شاء .. كان لديه أمل بغير ما هدف واضح .. وفى نفسه سعادة غامضة ! .. وأخذ يلاحظ ، كلما سوى لحيته بالفرجون أمام المرآة ، أن وجهه يزداد سماحة !

* * *

● وفى ذات يوم ، وصل إلى (برتو) حوالى الساعة الثالثة ، والقوم فى الحقول ، فدلف إلى المطبخ .. ولم يفطن فى البداية إلى أن « ايما » كانت هناك ، إذ كانت النوافذ مغلقة ، ومن خلال المصاريع ، كانت الشمس تلقى على الأرض خيطا من أشعتها طويلا ، دقيقا ، يتكسر على زوايا قطع الأثاث ، ويتذبذب على السقف .. وكان الذباب يتسلق جدران الأكواب الزجاجية التى كانت موضوعة على المائدة ، ويرسل طنينا وهو يغرق فى بقايا التفاح المتخلفة فيها .. وكان الضوء المنساب من المدخنة يضفى على بقايا الفحم ـ المتخلفة على قرص المدفاة المعدنى ـ لمعة مخملية ، ويخلع على الرماد البارد غلالة زرقاء ..

وكانت « ايما » تجلس بين النافذة والمدفاة ، وهى منهمكة فى الحياكة .. ولم تكن ترتدى وشاحها ، فلاحظ « شارل » أن قطرات دقيقة من العرق تنتشر على كتفيها العاريتين .

وعرضت عليه ـ كعادة اهل الريف ـ ان تاتيه بشىء من الشراب ، فتمنع .. والحت ، ثم دعته اخيرا ـ ضاحكة ـ إلى ان يتناول معها كأسا من الخمر .. واحضرت من الصـوان زجاجة بها شراب خفيف ، وكأسين صغيرتين ، ملأت احداهما حتى الحافة ، بينما لم تكد تسكب فى الأخرى شيئا . وقدمت إليه الأولى ، وبعـد أن قرعتهـا بالثانيـة ، رفعت هـذه إلى شفتيها .

وإذ كانت الكأس شبه فارغة ، فقد اضطرت إلى أن تطوح راسها إلى الوراء ، لترشف ما بها من قطرات .. واخـذت تضحك ـ وهى على هذا الوضع ، وشفتاها ممدودتان إلى الأمام ، ورقبتها مشدودة ـ إذ لم تكد تشعر بشىء من الشراب فى فمها ، بينما امتد لسانها من بين اسـنانها الدقيقة ليلعق ما فى القاع !

وعادت إلى الجلوس ، مستانفة عملها فى رفو جورب أبيض من القطن ، وقد نكست راسها ، وكفت عن الكلام . وظل « شارل » صامتا هو الآخر .. وكان الهواء ينساب من اسفل الباب ، حاملا بعض الغبـار ، فأخذ يرقب تموجاته ، وهو لا يسمع سوى وجيب النبض فى رأسه يختلط بنقنقة دجاجة تضع بيضة فى مكان ما بأقصى الفناء . وكانت « ايما » ترطب وجنيتها ـ بين آن وآخر ـ بكفيها اللتين كانت تبردهما على حديد المدفأة الخامدة .

وكانت منذ أوائل الموسم تعانى دوارا ، فسألت «شارل» عما إذا كان الاستحمام فى البحر يفيدها .. ثم تطـرقت إلى



كانت ((إيما)) تجلس بين النافذة والمدفاة وهى منهمكة فى الحيـاكة

الحديث عن الدير الذى تعلمت فيه ، فتحدث « شارل » بدوره عن مدرسته ، وهكذا اتصـــل الحديث بينهما . وما لبثا ان صعدا إلى غرفتها ، حيث أطلعته على كراساتها الموسيقية ، والكتيبات التى نالتها كجوائز ، والتيجان المجدولة من أوراق البلوط التى كانت تحتفظ بها فى قاع صوان .. كما حدثته عن امها ، وعن المقبرة .. بل لقد أرشدته — فى الحديقة — إلى الحوض الذى كانت تجمع منه الزهور فى يوم الجمعة الأول من كل شهر ، لتضعها على قبر امها .. بيد ان البستانى الذى يعنى بالحديقة ، لم يكن ليفهم عن الأزهـــار شيئا .. كذلك كان الخدم جميعا .. اغبياء ، لا تجنى من ورائهم الا المتاعب !

وكانت تتمنى ان تعيش فى المدينة ، ولو خلال الشـــتاء — على الأقل — وإن كان نهار الصيف الطويل قد يجعل الريف اكثر مللا فى هذا الفصل منه فى الشتاء .. وكان صوتها يتغير تبعا لما تقول : فهو تارة صاف ، واخرى حاد .. وقد يسرى فيه فجاة خمول ينتهى به إلى ما يشـــبه الهمس حين تخاطب نفســـها .. ثم إذا به بعد لحظـــة قـــد انقلب مرحـــا .. وعيناها ! .. كانتـــا تحدقان فى براءة ثم إذا بهمـــا فى نصف إغماضة ، إذ يشرد فكر صاحبتهما او تغرق فى السآمة !

واخذ « شارل » — اثناء عودته فى المســاء — يستعيد عباراتهـــا واحدة إثر واحدة ، يحاول أن يتذكرها ، وأن يربط بعضها ببعض ، ليستكمل صورة واضحة للحياة التى كانت تحياها قبل أن يعرفها . غير انه لم يستطع قط أن يتمثلها فى صورة تغاير تلك التى رآها عليها فى اللقاء الأول .. او تلك

التى تركها عليها فى الوداع القريب .. وساءل نفسه عما قد تصـــير إليـــه إذا مـــا تزوجت .. ثم ، بمن تتـــزوج ؟ .. واأسفاه ! .. إن الأب « روو » واسع الثراء . وهى ! .. كم هى جميلة !

وكان وجه « ايما » لا يلبث ان يعود فى اصرار ليستقر امام عينيه .. واخذ يتردد فى اذنيه صوت رتيب ، فى طنين مستمر لحـــوح : « هب انك تزوجت ! .. نعم ، مـــاذا لو تزوجت ! »

❊ ❊ ❊

● ولم يجد إلى النوم سبيلا فى تلك الليلة .. كان يحس بضيق وظما .. وما لبث أن نهض ليشرب من الابريق ، وفتح النافذة ، وراح يتطلع إلى السماء المليئة بالنجـــوم .. كان النسيم دافئا .. وتناهى إليه من بعد نباح الكلاب .. ثم أدار رأسه فى اتجاه (برتو) ..

وخطر له انه لن يخسر شيئا على اية حال ، فمنى نفسه بالتقدم لطلب يدها عندما تسنح الفرصـــة .. غير أن تهيبه وحيرته فى اختيار العبارة المناسبة ، كانا يعقدان لسانه كلما واتته الفرصة ..

ولم يكن ليضير الأب « روو » ان يتخلص من ابنته التى لم تكن ذات نفع كبير فى بيته .. وكان يلتمس لها — فى قرارة نفسه — العذر ، إذ يدرك انها اذكى من ان تشتغل بالزراعة .. تلك الحرفة التى لعنتها السماء ، حتى أن احدا لم يصبح —

باشتغاله بها ـ من أصحاب الملايين ! لقد كان يخسر كل سنة ، بدلا من أن يجنى من ورائها ثراء .. فبالرغم من تفوقه فى المساومة ، وإلمامه بأساليب التجارة الماكرة ، كانت الزراعة بمعناها الكامل ــ وبما تنطوى عليه من فنون إدارة المزارع ــ اقل ملاءمة له منها لبقية الناس . فما كان ليخرج يديه من جيوبه ويشمر عن ساعديه طواعية واختيارا .. وكان فى إنفاقه بعيدا عن الاقتصاد ، حريصا على الغذاء الطيب ، والمسكن الدافىء ، والفراش الوثير .. كان يحب نبيذ التفاح ، والأفخاذ المحمرة ، والشاى الممزوج بالخمر مزجا جيدا . وكان يتناول وجباته فى المطبخ وحيدا ، امام المدفأة ، على منضدة صغيرة تعد مقدما ثم تحمل إليه ، كما يحدث على المسرح !

وإذ لاحظ ان وجنتى «شارل» كانتا تتوردان كلما اقترب من ابنته ، توقع أن يطلب منه يدها يوما ما ، فاخذ يتدبر الأمر باكمله مقدما .. كان يراه وضيعا بعض الشىء ، لا يتمثل فيه الصهر الذى كان يتمناه .. غير انه كان يعرف عنه حسن السلوك ، والاقتصاد .. وكان متعلما .. ويلوح انه لن يساوم كثيرا فيما يتعلق بالصداق الذى سيقدمه الأب لابنته ! ..وإذ كان مضطرا إلى أن يبيع اثنين وعشرين غدانا من أرضه ، ليتخفف من دين كبير عليه للبناء والنجار ، ولإصلاح دولاب المعصرة ، فقد اسر لنفسه قائلا : « لسوف اعطيه « ايما » إذا طلبها » !

***

● وذهب « شارل » إلى (برتو) ليقضى ثلاثة ايام ، فى عيد القديس ميخائيل . وانقضى اليوم الأخير كسابقيه ، فى تردد وارجاء .. فلما تاهب للرحيل ، رافقه الأب بعض المسافة .. وسلكا طريقا كثير الحفر ، حتى إذا اوشكا على الافتراق ، دار بخلد « شارل » أن الساعة قد حانت ، إذ كان قد حدد لنفسه مهلة تنتهى عند السياج الخارجى للضيعة .. ولم يكد يجاوزه ، حتى تمتم قائلا : « مسيو روو .. أريد أن افاتحك فى أمر » .. ووقف السيد ، ولكن «شارل» اخلد إلى الصمت !

وقال الأب ضاحكا فى رفق : « حدثنى بأمرك .. او تظن اننى لم ادرك كل شىء ؟ » .

فتمتم « شارل » قائلا : « ايها الأب روو .. ايها الأب روو ! .. »

وواصل المزارع حديثه قائلا : « اننى شخصيا لا اتمنى افضل منك .. ولكن للبنية رايها ، ولا بد من سؤالها .. فابطىء فى مشيك ريثما اعود إلى البيت .. وليس من الضرورى أن ترجع ــ إذا ما اجابت بالقبول ــ حتى لا يفطن الناس إلى شىء ، وحتى لا يشتد بالفتاة الانفعال .. ولكن ، لا تقس على اعصابك .. سادفع مصراعى النافذة إلى الجدار ، وافتحهما على وسعهما ، إشارة بذلك .. وتستطيع أن تتبين هذه الاشارة من الخلف ، إذا ما انحنيت على السياج » .

وابتعد الأب ..

وربط « شارل » جواده إلى شجرة ، وهرع إلى الطريق الخلفى الضيق ، واخذ ينتظر .. وانقضى نصف ساعة .. واحصى بعده تسع عشرة دقيقة .. وفجأة ، سمع صوت ارتطام بالجدار .. فقد فتح مصراعا النافذة .. وظلا يهتزان إثر اصطدامها بالحائط !

ولم تحن الساعة التاسعة من الصباح التالى ، حتى كان فى المزرعة ! وتضرج وجه « ايما » حين دخل الدار ، وإن حاولت ان تضحك قليلا لتبدو متمالكة لنفسها . وقبل «شارل» صهر المستقبل .. ثم اخذوا يتحدثون فى المسائل المالية ، وإن كانت امامهم فسحة من الزمن ، إذ لم يروا ان يتم الزواج قبل ان ينتهى حداد « شارل » ، اى حوالى ربيع العام التالى .

* * *

● وانقضى الشتاء فى ترقب .. وشغلت الآنسة « روو » بجهازها الذى ارسل فى طلب بعضه من (روان) . وحاكت لنفسها اقمصة وقلنسوات للنوم على نماذج استعارتها ، وكانوا — خلال زيارات « شارل » للمزرعة — يتحدثون عن تدابير العرس ، ويتساءلون عن القاعة التى ستقام فيها وليمة الزفاف ، ويحلمون بأصناف الطعام التى ستقدم ، ويتناقشون فى الصنف الذى ستفتتح به المائدة !

وكانت « ايما » تفضل أن يتم الزفاف فى منتصف الليل ، على ضوء المشاعل . بيد ان الأب « روو » لم يستسغ هذه الفكرة ..

وهكذا اقيمت وليمة العرس اخيرا ، فحضرها ثلاثة واربعون شخصا ، ظلوا حول المائدة ست عشرة ساعة ، ثم استأنفوا الوليمة فى اليوم التالى ، والأيام التى اعقبته .. إلى حد ما !

———— ● ————

الفصل الرابع

● اخذ المدعوون يتوافدون منذ ساعة مبكرة ، فى عربات متباينة ، منها ذات المقعد الواحد والجواد الواحد ، ومنها ذات العجلات الأربع والمقــاعد المتقابلة ، ومنها عربـــات عتيقة الطراز بغير مظلات ، وعربات مقفلة بستائر من الجلد . ومن القرى المجاورة اقبل شبان فى عربات نقل مكشوفة ، اصطفوا عليها مستندين بأيديهم إلى حوافها الخارجية كى لا يسقطوا منها وهى تخب بهم مهتزة فى عنف . وجاء مدعوون من قرى تبعد عشرة فراســـخ عن المزرعـــة ، مثـــل (جودرفيـــل) (ونورمانفيل) و (دوكانى) .. إذ كان اهل العروسين قـــد دعوا جميع أقارب الأسرتين ، ووصلوا ما انقطع بينهم وبين بعض الأصدقاء ، وكتبوا إلى معارف لم يكونوا قد رأوهم منذ زمن طويل !

وكانت فرقعة السياط تسمع من وقت إلى آخـــر خلف السياج ، فيفتح الباب ، لتنفذ منه عربة تسير حتى الدرجة الأولى من سلم المدخل ، حيث تقف فجأة ، ويخرج ركابها من كل جانب يدلكون ركبهم ، ويمطـــون اذرعهم ، وقـــد توجت السيدات رؤوسهن بالقبعات الصغيرة ، وارتدين ازياء المدن ، وتحلين بسلاسل تنتهى بساعات ذهبية ، واتشحن بحرامل تتقاطع اطرافها عند الخصور ، او بشيلان صغيرة ملونة تثبت أطرافها إلى الظهور بدبابيس . وكان الأطفال فى ثياب شبيهة

بثياب الرجال ، وقد لاح عليهم انهم كانوا يضيقون بملابسهم الجديدة .. بل كان الكثيرون منهم يخطرون فى اول زوج من الأحذية الجلدية حصلوا عليه فى حياتهم ! .. وســـارت إلى جوارهم فتيات تتراوح أعمارهن بين الرابعة عشرة والسادسة عشرة ، لا شك فى أنهن اخواتهم او بنات أعمامهم واخوالهم ، وقد ارتدين ملابس حفلة « التناول » الاول ، بعد ان أطيلت اطرافها لتصلح للمناسبة الراهنة ! .. وكن يسرن صامتات ، متوردات الخدود ، مبهورات .. ولاحت شعورهن لزجة لمـــا عولجت به من دهان معطر بالورد .. كما بدا عليهن الحرص على أن لا يعرضن قفازاتهن للاتساخ ..

ولما لم يكن عدد السياس كافيا ، فقد شمر الرجال عن سواعدهم ، وباشروا بأنفسهم حل الخيل من العربات ، رغم ثيابهم التى تباينت تبعا لمراكزهم الاجتماعية ـ بين «ردنجوت» ، وملابس سهرة ، وبزات فاخرة أو عادية .. وكلها من الملابس التى تعنى بها الأسرات فلا تخرجهـــا من الخزانـــات الا فى المناسبات ! .. وكانت بينهـــا « الردنجوت » ذات الذيول الضافية تداعبها الريح ، او ذات الياقة الاسطوانية والجيوب الواسعة كأنها الحقائب .. وبينها بزات من الصوف السميك ، يرتدى أصحابهـــا قلنسوات أحيطت حوافهـــا باطارات من نحاس .. ومعاطف قصيرة ثبت فى خاصرتها من خلف زران متقاربان كأنهما عينان .. وقد بدت ذيولها وكأنما سوتهـــا بلطة نجار ! .. وكان الرجال الذين سيجلسون فى ذيل المائدة يرتدون « أقمصة المناســـبات » ذات الياقة المســـدلة على

الكتفين ، والثنيات الرفيعة فى الظهر ، وقد شدت تحت الخصر بحزام مثبت فى ثناياها .. كما شدت فوق الصدور — بفعل النشاء والكى — فبدت كأنها دروع !

وظهر واضحا ان الجميع قصوا شعورهم حديثا ، إذ كانت الآذان بارزة على جوانب الرؤوس .. كما كانت الذقون حليقة ناعمة . وكان بعضهم قد اضطر إلى ان يبدأ رحلته فى مطلع الفجر ، فلم تكن ثمة اضاءة كافية وهم يحلقون ذقونهم ، مما ترك خدوشا ممتدة تحت الأنف ، او جراحا متسعة بحجم العملة فئة الفرنكات الثلاثة ، وقد الهبها نسيم الصباح البارد اثناء الطريق ، فاذا الوجوه البيضاء المشرقة ، تتناثر فيها بقع وردية !

* * *

● وكانت دار العمدة تقع على مسافة نصف فرسخ من المزرعة ، فذهبوا إليها على الأقدام .. وعادوا بالطريقة عينها بعد ان تم الاحتفال فى الكنيسة . وكان الموكب متماسكا فى بادىء الأمر ، فبدا كأنه شال موشى بالألوان ، يتموج على طول الطريق الضيق المتعرج بين الحقول الخضراء .. ثم لم يلبث ان استطال ، وتجزأ إلى مجموعات الهاها الحديث عن اللحاق بغيرها ..

اما العازف فكان يسبق الموكب بقيثارته التى حليت بالأشرطة ، يتبعه العروسان ، ثم الأهل ، فالأصدقاء ، دون ما ترتيب .. وفى المؤخرة ، سار الأطفال يلهون بقطف زهور الشوفان ، او يلعبون فيما بينهم دون ان يفطن إليهم احد .

وكان ثوب « ايما » مسرف الطول ، فكان ذيله يتجرر خلفها ، فتقف بين وقت وآخر لترفعه ، ولتنزع عنه — باصابعها الدقيقة المكسوة بالقفاز — ما علق به من اعشاب خشنة واشواك ، بينما يقف «شارل» ساكنا فى انتظارها ! .. وكان الأب « روو » يرتدى قبعته الحريرية الجديدة ، ومعطفه الأسود الذى بلغ كماه أظافر يديه ، وقد تابط ذراع السيدة « بوفارى » الأم .. اما السيد « بوفارى » الأب — الذى كان يحتقر فى قرارة نفسه كل هؤلاء الناس ، والذى لم يرتد سوى « ردنجوت » ذات صف واحد من الأزرار ، على نمط الملابس العسكرية — فقد اخذ يغازل ريفية شقراء آثرها بمداعبات ماجنة كانت وجنتاها تتضرجان لها ، دون ان تدرى بماذا تجيب ! .. فى حين انصرف بقية الحضور إلى الحديث فى شئونهم ، او إلى التغامز خفية — بعضهم على بعض — او إلى استثارة المرح فى انفسهم تاهبا للحفل المرتقب ..

وكانت انغام العازف — الذى واصل العزف خلال الحقول — تعلو إذا ما جنحوا إلى الصمت .. فاذا ما احس بانه سبق الموكب بمسافة طويلة ، وقف ليسترد انفاسه ، وليعالج قوس قيثارته بـ « القلفونية » ليشد اوتارها .. ثم يستانف سيره رافعا مقبض القيثارة تارة ، وخافضه اخرى .. والضجة المنبعثة تحمل الطيور الصغيرة على مبارحة مكانها ..

ومدت المائدة تحت مظلة العربات ، وعليها اربع قطع من « بيت الكلاوى » ، وستة أطباق من « صلصة » الدجاج ،

و « كباب الحلة » المصنوع من لحم العجول ، وثلاث فخدات مشوية ! .. وتربع فى وسط المائدة خنزير صغير السن ، بديع المنظر ، جيد الشواء ، تحيط به اربعة جبـال من « سجق » الخنزير المطبوخ ! .. وفى أركان المائدة ، استقرت قوارير الخمر ، بينما كانت زجاجات نبيذ التفاح الفائر تبعث زبدا كثيفا حول سداداتها . واترعت الاقداح مقدما بالنبيذ إلى حوافها ، وكانت القشدة الصفراء تترجرج فى اطباقها الكبيرة لأقل حركة تصيب المائدة ، وقد نقشت عليها الحروف الأولى من اسمى العروسين فى زخرفة عربية جميلة .

وكانوا قد عهدوا باعداد الحلوى والفطائر إلى صانع من (ايفتو) استقر بالبلدة حديثا ، فبذل عناية فائقة ، حتى لقد احضر بنفسه كتلة مزينة بالزخارف ، انتزعت صيحات الإعجاب من الحاضرين .. إذ كانت لهـا قاعدة من الورق المقوى تمثل معبدا ذا اروقة واعمـدة تحف بهـا التماثيل .. وتناثرت فى الفجوات نجوم صنعت من الورق المذهب .. وفى الطابق الثانى منها ، صنع الرجل برجا من فطير « سافوا » ، تحيط به تحصينات صـغيرة من الحلوى واللـوز والزبيب وفصوص البرتقال .. وفوق سطح هذا الطابق ، صنع من الحلوى ما يمثل حقلا اخضر به صخور غارقة فى بحيرات من المربى ، تعلو سطحها زوارق من قشر البندق .. وفى الحقل ارجوحة من الشيكولاتة تعلق بهـا تمثال صغير للحب ، وقد توج عمودا الأرجوحة ببرعمين من الورد الطبيعى !!

وظل القوم يأكلون حتى المساء .. وكلما امضهم طول

الجلوس ، نهضوا يتمشون فى الافنية ، او يمارسون بعض الالعاب فى المخزن .. ثم لا يلبثون ان يعودوا إلى المائدة ! .. وغلب النوم بعضهم قبيل الختام ، فتصاعد غطيطهم ، بيد ان النشاط لم يلبث ان سرى فيهم من جديد حين تناولوا القهوة ، فراحوا يرددون الأغانى ، ويتبارون فى العاب القوى وحمل الأثقال والحيل التى تعتمد على المهارة اليدوية .. وتبارى بعضهم فى رفع العربات فوق أكتافهم .. وفى تبادل النكتات ، وتقبيل السيدات !!

وفى المساء ، تاهبوا للرحيل . ولكن شد الخيول إلى العربات ــ بعد أن اتخمت بالشـوفان ــ كان من أصـعب العمليـات ، إذ راحت تركل ، وتتمـرد ، وتكسر الأعنـة ، واصحابها يسبون او يضحكون .. وكنت ترى طوال الليل ــ وفى ضوء القمر ــ عربات انطلقت على طول الطريق ، تعدو خيولها الجامحة ، فتهبط بها فى الحفر حينا ، وتقفز بها فوق اكوام الأحجار حينا آخر .. ثم إذا بها تتسلق المنحدرات ، وقد أطلت من جنباتها النساء يتشبثن بالأعنة !

أما من بقى فى (برتو) من ضيوف العرس ، فقد قضوا الليل يشربون فى المطبخ ، بينما نام الأطفال تحت المقاعد .

* * *

● وكانت العروس قد سالت اباها ان يجنبها المداعبات التى يتعرض لها العرسان فى ليلة الزفاف .. بيد ان سماكا من ابناء عمومتهـا راح ينفث المـاء من ثقب بـاب مخـدع العروسين ، رغم انه لم يحمل إليهما هدية ما .. سوى زوج

من سمك « موسى » !! .. على ان الأب « روو » اقبل فى لحظة مناسبة ليصده عن المضى فى نفث الماء ، مبينا له ان دقة الموقف لا تسمح بمثل هذه الدعابة المستهجنة .. ومع ان ابن العم انصرف عن دعابته ، إلا انه لم يقتنع تماما بمنطق الأب « روو » ، واتهمه فى قرارة نفسه بالصلف والكبرياء . وما لبث ان انضم — فى احد الاركان — إلى اربعة او خمسة من المدعوين كانت المصادفات قد ساقت إليهم اردأ قطعة من اللحم حملتها المائدة ، فخيل إليهم ان ثمة تعمدا لاساءة اكرامهم ، وراحوا يتهامسون متغابين مضيفهم ، متمنين له — فى الفاظ غير صريحة — كل شر !

اما السيدة « بوفارى » — الأم — فقد ظلت طيلة اليوم صامتة ، إذ لم يحفل احد باستشارتها بصدد ثوب العروس ، او إعداد الوليمة . وما لبثت ان اوت إلى فراشها فى وقت مبكر .. وبدلا من ان يتبعها زوجها ، ارسل فى طلب عدد من السيجار من (سان فيكتور) ، وبقى حتى الصباح يدخن ، ويحتسى مزيجا من الخمور — « كوكتيل » — لم يكن مألوفا لدى اهل الريف ، مما رفع من شأنه فى اعينهم !

وما كان « شارل » يوما حاضر النكتة والفكاهة ، ومن ثم لم يتألق فى حفل عرسه ، بل انه كان يرد فى غباء على ما وجهه المدعوون إليه من غمزات وفكاهات ومجاملات ومداعبات ، منذ جمعتهم الوليمة ..

على انه لاح فى اليوم التالى رجلا آخر ، يناقض ذاك الذى كانه فى الليلة السالفة ، وكأنما كان ليلتذاك عذراء يلجمها الخفر !

اما العروس ، فلم يظهر عليها ما ينم عما كان يجول فى نفسها ، حتى أن أكثر الحاضرين فراسة لم يستطع ان يتكهن بشىء عن حالتها النفسية ، واكتفوا بأن راحوا يمعنون فى التحديق فى وجهها كلما مرت على مقربة منهم ! .. على أن « شارل » لم يعمد إلى شىء من التكلف ، بل اخذ يدعوها بزوجته ، ويخاطبها فى غير كلفة ، ويسأل عنها كل إنسان ، ويبحث عنها فى كل مكان — دون ما حرج — كلما افتقدها ! .. وكثيرا ما كان يقتادها إلى الأفنية ودروب الحديقة .. وكان يشاهد عن كثب وقد طوق خصرها بذراعه ، أو وهو يسير إلى جوارها ، وقد مال نحوها وراسه يفسد استواء صدارها المكوى !

***

● ورحل العروسان بعد الزفاف بيومين ، إذا لم يكن « شارل » ليملك ان يغيب عن مرضاه امدا اطول مما غاب ..

وصحبهما الأب « روو » فى عربة حتى (فاسونفيل) ، حيث قبل ابنته مودعا ، ثم عاد ادراجه .. ولم يكد يخطو مائة خطوة تقريبا حتى توقف ، ثم التفت إلى العربة ، فلما رآها تبتعد وقد اخذت عجلاتها تثير الغبار ، ارسل زفرة طويلة ، وذكر عرسه ، والأيام الخوالى .. وارتدت إلى ذهنه ذكرى اول حمل لزوجته .. وتصور ما كان عليه من سعادة وغبطة يوم جاء بزوجته من منزل ابيها إلى منزله ، إذ اردفها خلفه على جواده وانطلق على الجليد .. فقد تم عقد القران فى راس السنة ، والحقول مكسوة جميعها بالجليد الناصع ..

وكانت تتشبث به باحدى ذراعيها ، بينما امسكت باليد الأخرى سلتها .. والريح تداعب أشرطة شعرها ــ المنسق على طريقة أهل (كو) ــ فتدفع أطرافها لتلمس فمه .. ومن آن لآخر ، كان يلتفت إليها ، فيلمح فوق كتفه وجهها الوردى الصغير ، الذى أشرق بابتسامة صامتة ، تحت قرص ذهبى ازدانت به قبعتها .. وكانت تدس اصابعها فى صدره بين الفينة والفينة ، التماسا للدفء !

آه ! .. لقد تلاشى كل ذلك فى ادراج الزمان ! .. لو أن طفلهما الأول عاش ، لكان اليوم فى الثلاثين من عمره !

والتفت خلفه فلم ير شيئا فى الطريق .. وغشيته كآبة موحشة ، وقد خيل إليه ان نفسه غدت كالبيت الخاوى المهجور ! .. وامتزجت الذكريات العذبة بالذكريات الأليمة ، فى راسه الذى اثقله الشراب .. واحس برغبة فى ان يعرج على الكنيسة ، بيد انه خشى أن تزداد شجونه ، فيمم صوب داره راسا ..

ووصل السيد « شارل » وزوجته إلى (توست) فى نحو الساعة السادسة ، فاذا الجيران فى النوافذ يرتقبون الزوجة الجديدة لطبيبهم ..

وتقدمت الخادم العجوز فحيتهما ، واعتذرت لأن العشاء لم يعد بعد ، ثم سألت السيدة أن تتفقد منزلها ، ريثما تعد المائدة .

الفصل الخامس

● كان المنزل مشيدا من الطوب ، وواجهته نحو الطريق .. وخلف الباب ، كان ثمة معطف ذو ياقة صغيرة ، معلقا مع عنان جواد ، وقلنسوة من الجلد الأسود .. وعلى الأرض ، قبع فى أحد الأركان زوج من احذية الركوب ذات الرقاب الطويلة ، يعلوه بعض الطين الجاف .. وإلى اليمين ، امتدت الردهة الوحيدة التى كانوا ياكلون فيها ويجلسون .. وقد علقت إلى أحد الجدران الرديئة الطلاء ، ورقة صفراء اللون ، وفى طرفها الأعلى باقة من الزهر الباهت اللون . وكانت الستائر القطنية البيضاء ــ المحلاة بشرائط حمراء ــ تتقاطع على النوافذ ، بينما كان يلمع على حافة المدفأة الضيقة ، بندول ساعة يعلوه رأس « أبقراط »(١) وقد قام إلى جانبه شمعدانان من الفضة ، تحت مظلتين بيضاويتى الشكل ..

وفى الناحية الأخرى من المدخل ، كان مكتب «شارل» .. حجرة صغيرة عرضها ست خطوات تقريبا ، تضم منضدة وثلاثة مقاعد ، فضلا عن مقعد خاص للمكتب .. واحتل الأرفف الستة فى مكتبة من خشب القرو ، قاموس العلوم الطبيعية بأجزائه التى لم تفض صفحاتها بعد ، رغم ما لحق بغلافاتها من تلف ، بسبب عمليات بيعها المتتالية !

(١) كتابى : ابقراط هو أبو الطب عند الاغريق .

وكان عبير الطعام ينساب من المطبخ متسربا خلال جدران غرفة المكتب اثناء فحص المرضى .. كما كان سعال المرضى المنبعث داخل غرفة المكتب يسمع فى المطبخ ، فضلا عن قصصهم بحذافيرها !

وكانت تلى غرفة المكتب مباشرة ، حجرة كبيرة ، مهدمة ، تطل على الفناء الذى يضم الحظيرة .. وكانت تحوى فرنا ، غير انها كانت تستخدم كمخزن للحطب ، والأغذية ، والمهملات ، وقد امتلأت بقطع الحديد القديمة ، والبراميل الفارغة ، وآلات الزراعة المهملة ، واكداس من اشياء اخرى مغبرة ، كان من المستحيل التكهن بما تستخدم فيه .

اما الحديقة فكانت مستطيلة ، يحدها جداران من الطين — حفت بهما اشجار المشمش — وتنتهى بسياج من الاشواك يفصل بينها وبين الحقول . وكانت تتوسطها « مزولة » — ساعة شمسية — من الأردواز، اقيمت على قاعدة حجرية .. واربعة احواض من نبات « النسرين » تحيط — فى انتظام — بحوض خامس زرعت فيه نباتات اكثر نفعا .. وتحت شجيرات السرو ، فى الطرف الأقصى للحديقة ، قام تمثال من الجص يمثل قسا يقرأ فى كتاب الصلوات !

وصعدت « ايما » إلى الطابق العلوى ، فاذا بأولى حجراته تكاد تكون خالية من الأثاث تقريبا ! .. اما الحجرة الثانية — وهى مخدع العروسين — فكانت تضم سريرا من خشب « الأكاجو » داخل فجوة فى الجدار احاطت بها ستائر حمراء ! .. وكان يزين خزانة الثياب صندوق من الصدف ..

وإلى جوار النافذة مكتب عليه آنية بها باقة من زهور البرتقال الجافة ضمتها اشرطة من « الستان » الأبيض .. وكانت باقة عروس .. العروس الأولى !!

ولاحظ « شارل » اتجاه نظرات « ايما » إلى الزهور ، فتناولها وذهب بها إلى المخزن .. وجلست « ايما » فى مقعد مريح اثناء ترتيب حاجياتها ، وقد سرح خاطرها إلى باقة عرسها التى وضعت فى صندوق من الورق المقوى .. وساءلت نفسها — وهى مسترسلة مع احلامها — عما يمكن ان يحل بتلك الباقة .. لو انها ماتت بدورها !

* * *

● أنفقت « ايما » الأيام الأولى فى تدبير التعديلات التى شاءت ان تجريها فى البيت ، فنزعت المظلات — « الأباجورات » عن المشاعل والصقت بها كساء جديدا من الورق ، واعادت طلاء السلم ، ووضعت حول المزولة — فى الحديقة — بعض المقاعد .. بل إنها راحت تفكر فى الحصول على نافورة وحوض تسبح فيه الأسماك !

وإذ كان زوجها يعلم انها تحب النزهة فى العربات ، فقد وفق إلى عربة مستعملة ، زودها بمصابيح جديدة ، و « رفارف » من الجلد ..

واصبح « شارل » هانىء البال ، لا يحمل هما .. حياته وجبات يتناولها مع « ايما » .. ونزهات مسائية برفقتها فى الطريق العام . وكان يستشعر متعة فى العبث بضفائرها ،

وفى رؤية قبعتها الخوصية معلقة إلى مزلاج النافذة .. وفى كثير من الأمور الشبيهة ، التى لم يخطر له يوما ببال أنهـا يمكن أن تكون مبعث سرور !

وكان ، إذا ما استيقظ فى الصباح وظل مسـتلقيا إلى جوارها على السرير ، يتأمل ضوء الشمس وهو يتخلل زغب وجنتيهـا البضتين اللتين كان جناحا قلنسوة النـوم ينسدلان إلى منتصفيهما .. وكان إذا حدق فى عينيها عن قرب ، خالهما أكثر اتساعا .. لا سيما وهى تفتح جفنيهـا وتطبقهما مرات متتابعة ، ريثما تألفان الضوء عند اليقظة ! .. وكانتا تبدوان سوداوين فى الظلام ، وزرقاوين قاتمتين فى ضـوء النهار .. بل لقد كان يخالهما تتألفان من طبقات متباينة من ألوان تبدو كثيفة فى أغوار الحدقة ، ثم تشف شيئا فشـيئا كلما اقتربت من السطح !

وكانت نظراتـه تضـل فى أعماق هاتين العينين .. عينيها ! .. وكان يرى صـورته ـــ حتى الكتفين ـــ تنعكس مصغرة على حدقتيهما ، ،وقد لف منديلا حريريا حول رأسـه ، وترك صدر قميصه مفتوحا ..

✻ ✻ ✻

● فإذا ما نهض وتهيأ للخروج ، وقفت « إيما » عنـد النافذة تودعه ، ثم تظل مستندة إلى حافتهـا بين آنيتين من زهـور « الجيرانيوم » ، وهى فى ثوب فضفاض .. وبينمـا ينهمك «شارل» ـ وهو فى الفناء ـ فى تثبيت مهمازيه ، رافعا قدميه تباعا إلى حافة السور ، كانت تأخذ فى الحديث إليه من

أعلى ، وهى تلتقط بفمهـا نتفا من الزهـر أو من العشـب الأخضر ، ثم تنفثها نحوه ، فتتطاير فى الهواء مرفرفة فى حركة نصف دائرية كالعصفور ، حتى تعلق بالشعر الأشعث المنتثر فوق عنق الفرس العجوز البيضاء التى تقف لدى الباب بلا حراك .. وما إن يعتلى « شارل » صـهوة الجواد ، حتى يرسل إليها قبلة فى الهواء ، فترد بإيماءة ، ثم تغلق النافذة ، بينما يشرع هو فى رحلته فينطلق فى محـاذاة الجسر الذى ينبسط أمامه كشريط من غبار لا نهاية له ، ويمضى فى دورب بين الأشجار الوارفة ، وأزقة ضيقة يرتفع القمح على جوانبها إلى الركبـة .. والشمس تسـتلقى على منكبيه ، وهـواء الصباح يملأ خياشيمه .. وقد أفعم فؤاده بما ناله فى ليله من لذات .. وسرت الطمأنينة إلى نفسه ، والراحة إلى جسده !

وكان يواصل السير وهو يجتر سـعادته فى تذوق من يتلمظ بعـد الغداء بما خلفه « عش الغـراب » فى فمه من طعم ! .. متى كانت الحياة رفيقة به كمـا هى الآن ؟ .. أفى أيام الدراسة ، حين كان محبوسـا بين جدران المدرسـة ، وحيـدا وســط زملاء يفوقونه ثروة واسـتيعابا للدرس ، ويسخرون من لهجته الريفية ومن ملابسـه ، ويعيرونه بأن أحدا لا يزوره كما كانت أمهاتهم يفدن لرؤيتهم ـــ فى حجـرة الاستقبال بالمدرسة ـــ وقد حملن لهم الفطائر ؟ ! .. أم فى فترة دراسة الطب ، عندما لم تكن حافظته تضم من النقود ما يمكنه من صحبة تلك العاملة الصـغيرة التى كان من الممكن أن تغدو عشقيته ؟ ! .. أم فى الشـهور الأربعة عشر التى

عاشها زوجا لتلك الأرملة التى كانت قدماها تستحيلان — فى السرير — إلى قطعتين من الثلج ؟!

ما ابعد كل هــذا عن حاضره ، وقد اصــبح يمتلك — ما عاش — هذه المراة الجميلة التى يعبدها ! .. لقد اصبح العالم فى نظره لا يتجاوز محيط « جونلتها » الحريرية !

وكان يلوم نفسه إذ يخيل إليه انه لا يحبها كما يجب ! .. وما كان ليطيق عنها بعدا ، فيتعجل العودة ، ويصعد سلم الدار بقلب خافق ، ثم يتسلل إلى حجرتها فى هدوء ليفاجئها وهى تتزين ، فيطبــع على ظهرهــا قبلــة قبــل أن تحس بوجوده .. فتصرخ جزعة !

ولم يكن يقوى على كبح يديه عن ان تتحسســا دوما مشطها وخواتمها وشالها .. وكان يطبع على وجنتيها أحيانا قبلات كبيرة ، بملء فمه ، أو يغطى ذراعيها العاريتين بقبلات خفيفة من اطراف اصابعها حتى كتفيها ، وهى تدفعه فى مزيج من الضيق والابتسام ، كما نفعل بالطفل إذ يتشبث بنا !

والواقع أن « ايما » كانت تعتقد قبــل الزواج انها قد وقعت فى الحب . فلما لم تحصل على ما كانت تخاله مترتبــا على هذا الحب من ســعادة ، توهمت أنها كانت على خطأ ، واخذت تسائل نفسها عما تعنيه عبارات النشوة والعاطفة والهيام التى كانت تقرؤها فى الكتب فتبهرها !

الفصل السادس

● كانت قد قرأت قصــة « بول وفرجينى » ، فحلمت بالبيت الصغير المقام على اعواد الغاب ، وبالعبد « دومينجو » والكلب « امين » .. كمــا احســت — بوجه خاص — بتلك الصداقة الرقيقة التى نلمسها فى أخ صغير يسعى ليجتلب لنا فاكهة وردية من اشجار ضــخمة يفوق ارتفاعهــا ابــراج الكنائس .. او يعدو على الرمال حافيا وقد حمل الينــا عش عصفور !

ولمــا بلغت الثالثة عشرة من عمرها ، اصطحبها ابوها إلى المدينة ليلحقها بالدير ، فنزلا فى فندق بحى (سان جرفيه) ، حيث قدم لهما العشاء فى صحاف موشاة برسوم تمثل حياة « مدموازيل دى لافالير » .. وكانت التفصيلات الخرافية — التى تناهت إلى اذنيها خلال صليل السكاكين عن حياة تلك الآنسة — تنطوى على تمجيد البلاط الملكى ، وإظهاره فى إطار من التدين ، ورقة المشاعر ، وابهة المنظر !

ولم تستشعر سأما من حياتها بالدير — فى الأيام الأولى — بل انها استطابت صحبة الراهبات الطيبات ، اللاتى كن يعملن على التسرية عنها باصطحابها إلى الكنيسة المتصلة بغرفة الطعام بأروقة طويلة .. ولم تكن تلعب فى أوقــات الفــراغ إلا نادرا ، إذ كانت تحرص على استذكار اصــول الدين عن ظهر قلب ، حتى غدت تنفرد دائما بالإجــابة على الأســئلة الصعبة الدقيقة التى كان القس يوجهها إلى الفتيات !

وهكذا عاشــت فى جــو حجرات الدراســة الدافىء لا تجاوزه ، وبين اولئك السيدات الناصعات البياض ، ذوات المسابح التى تتدلى منها الصلبان النحاســية .. وفى رفق ولين ، اخذت تستسلم لذلك الاسترخاء التصوفى الذى ينبعث من عطــور المذبح ، واحواض ميــاه التبــرك ، واضــواء الشموع ! .. وكانت تشغل عن تتبع القداس بتأمل الصور الدينية المحوطة باطار سماوى اللــون ، فى كتاب الدين .. فاحبت (الحمل المريض) ، و (القلب المقدس) الذى تخترقه السهام ، والمسيح المسكين الذى يسقط ، وهو سائر ، تحت الصليب . وكانت تحاول أن تصوم عن الطعام يوما بأكمله لتروض روحها .. وتجهد راســها فى ابتداع الوان من النذر لتعمل على تحقيقها !

وكانت حين تذهب إلى « كرسى الاعتراف » تبتكر خطايا صغيرة تزعمهــا لكى تطيل من فترة ركوعهــا فى الظــلال ، فتصغى إلى همس القس ، ويداها مضمومتان ، ووجهها امام السياج المحيط بالكرسى !! وكانت الأوصاف المجازية التى تتناول « الخطيب » ، و « الزوج » ، و « العاشق الالهى » ، و « الزواج الأبدى » ، والتى كانت تتردد فى المواعظ ، تثير فى أعماقها نشوة غريبة !

وفى المساء ، كانت الفتيات يقران فى قاعة الاستذكار — قبل الصلاة — نصوصا دينية ، كن يخترنها فى أيام الاسبوع من بعض ملخصــات التــاريخ المقدس ، أو من محــاضرات الراعى « فرايا سينوس » .. اما فى أيام الآحاد ، فكن يقران

فقرات من « عبقرية المسيحية » على سبيل الترويح .. وكم كانت تنصت فى البداية للمراثى الريانية المفعمة بالكآبة والشجن العاطفى ، والتى كانت أصداؤها تتردد بين الأرض والأبدية !!

ولو أنها عاشت طفولتها فى جوف حانوت بحى تجارى ، لتفتحت نفسها لنغمات الطبيعة الخلابة ، التى لا تسرى إلينا عادة إلا إذا ترجمها لنا الكتاب .. ولكنها عاشت تلك الطفولة فى الريف ، فعرفت ثغاء القطعان ، والالبان ، والمحاريث ! .. ولمــا كانت قد الفت المناظر الهادئة ، فقــد اخذت تتجه إلى نقيضها .. إلى المناظر المثيرة ! .. ومن ثم لم تعد تحب فى البحــر إلا أنواءه ، ولا تعجب بالخضرة إلا منتثرة وســط الخرائب .. كان لابد لها من الحصول على منفعة شخصية من الأشياء ، فلم تكن ترى نفعا لمــا لا تجــد فيه غذاء مباشرا لقلبها ، إذ كان مزاجها حسيا عاطفيــا ، اكثر منه فنيــا .. وبعبارة واحدة : كانت تبحث عن العاطفة اكثر مما تبحث عن المنظر !!

* * *

● وكانت تفد على الدير عانس تقضى أسبوعا من كل شهر ، تعنى خلاله بكل ما يتعلق بالملابس والأغطية . ولمــا كان المطران يرعاها لانتمائهــا إلى أسرة عريقة من أسرات النبلاء التى حطمتها الثورة ، لذلك كانت تتناول الطعــام فى القاعة المخصصة لذلك مع الراهبات .. ثم تجاذبهن الحديث قبل ان تصعد إلى عملها . وكثيرا ما كانت التلميذات يتسللن من قاعة الاستذكار إلى حيث تعمل، إذ كانت تردد فى همس —

وهى تحرك ابرتها فى القماش ـ بعض اغنيات غرامية من القرن
الماضى ، تحفظها عن ظهر قلب ! .. وكانت تقص النوادر ،
وتروى الأنباء ، وتقضى الحاجات من المدينة ، وتعير التلميذات
الكبيرات ــ سرا ــ روايات كانت تحتفظ بها دائما فى جيب
مرولتها .. ولا تكف عن « التهام » فصول طويلة منها ، بين
فترات عملها ! .. وما كان أمثال هذه الروايات ليدور إلا عن
الحب والمحبين ، ونساء معذبات يغمى عليهن فى خلوات
منعزلة ، وسياس يقتلون فى كل رحلة ، وخيل تنفق فى كل
صفحة ، وغابات مظلمة ، وشجون تفعم القلوب ، وعهود ،
وزفرات ، ودموع ، وقبلات ، وزوارق فى ضوء القمر ، وبلابل
فى الخمائل ، وسادة فى شجاعة الأسود ووداعة الحملان ،
اوتوا من الشهامة قدرا لا مثيل له .. محتفظين بأناقتهم
دائما .. ويبكون ، فتسيل دموعهم كالسيل الهتون !

وهكذا ظلت « ايما » خلال اشهر ستة من عامها السادس
عشر ، تنفض بأصابعها الغبار عن تلك الروايات العتيقة .
ثم ارشدها « والتر سكوت » ــ بعد ذلك ــ إلى التاريخ ،
فراحت تحلم بالأثاث والرياش ، وقاعات الحرس ، والشعراء
الذين يغنون اشعارهم على القيثارة . وكانت تتمنى لو انها
عاشت فى احد تلك القصور القديمة التى كانت تقرأ عنها ،
كأولئك النبيلات ذوات الصدار الطويل ، اللاتى كن يقضين
ايامهن تحت الأقواس ذات الطراز القوطى ، وقد اعتمدن
بمرافقهن على الأحجار ، واسندن ذقونهن إلى راحات أيديهن ،
وسرحن البصر يرقبن مقدم فارس ذى ريشة بيضاء يركض
بين الحقول على صهوة جواد اسود ! .. وانزلت « ايما »

الملكة الإنجليزية « مارى ستيوارت » من نفسها منزلة
القداسة ، واكبرت ــ فى حماس ــ النساء الشهيرات ،
المنكوبات : فكانت « جان دارك » ، و « هلويز » ، و « آنييس
سوريل » ، و «فيرونيير» الفاتنة ، و « كليمانس هيزور » ..
كل أولئك كن ــ فى نظرها ــ كواكب فى ظلمات التاريخ
اللانهائية ! .. وكانت تبرز لها من جوف الظلمات صور اخرى
غامضة ، مبهمة ، لا رابط بينها ، تمثل « سان لويس » وبلوطته
التى كان يجلس تحتها واحتضار « بايار » وفظائع لويس
الحادى عشر ، ولمحات من « سان بارتلمى » ، وغطرسة
« كونت بيارين » .. ثم ــ ودائما ــ ذكرى الصحاف التى
نقشت عليها صور تمجد لويس الرابع عشر !

ولم يكن فى الأغنيات ــ التى كانت تغنيها اثناء دروس
الموسيقى ــ سوى ملائكة صغار ، بأجنحة ذهبية ، وعذارى
مقدسات ، وقنوات يسبح فيها الجندول .. اغان ساذجة
كانت تلمح ــ خلال أسلوبها الركيك وموسيقاها الضعيفة ــ
صورا متلاحقة للحقائق الحسية . وكانت بعض الزميلات
يحملن إلى الدير ما يهدى إليهن فى عيد راس السنة من كتب
أنيقة ، كان إخفاؤها مشكلة عويصة !

وكن يقرأنها فى « عنبر » النوم ، فكانت « ايما » تقلب
بين يديها ــ فى رفق ــ تلك الكتب المغلفة بالحرير ، ثم تقف
ببصرها عند أسماء المؤلفين المجهولين الذين كان يسبق
توقيعاتهم ــ فى نهايات القصص ــ لقب « كونت » او
« فيكونت » .. وكانت تعتريها رجفة حين تنفخ فى رفق لترفع

الورق الشفاف عن الصـــور ، فلا يلبث ان يتثنى ثم ينزلق مستويا على الصفحات !

كان بين الصور منظر يمثل سور شرفة وقف خلفه شاب فى معطف قصير ، يضم بين ذراعيه فتاة فى ثوب أبيض ، ثبتت إلى حزامها كيس الصدقات .. كما كانت هناك صور بعض الإنجليزيات المجهولات ، ذوات الشعور الشقراء ، اللاتى يرمقنك من تحت قبعات الخوص المستديرة ، بأعين واسعة صافية .. وقد اضطجع بعضهن فى عربات تنســـاب وســـط الحدائق ، يقود خيولها سياس فى سراويل بيضاء ، وتجرى امامها كلاب الصيد الرشيقة .. بينما استلقت اخريات على الارائك مستغرقات فى الأحلام ، وإلى جوارهن رسائل غرام مفتوحة ، وقد سرحت أبصارهن نحو القمر الذى يطل خلال نافذة اخفت نصفها ستارة سوداء ! .. كما كانت بعض الصور تمثل فتيات ساذجات يطعمن اليمام خلال قضبان اقفاص من الطراز القوطى ، وقد سال الدمع على وجناتهن .. واخريات يبتسمن وقد ملن برؤوسهن على اكتافهن ، واخذن ينثرن اوراق زهر المرجريت بأصابعهن المدببة التى تشبه مناقير الصقور !!

هذا ، فضلا عن صور تبين سلاطين يدخنون الغلايين الطويلة ، وقد استلقوا تحت الخمائل مخدورين بين احضان الراقصات .. ثم السيوف والرماح التركية ، والقلنسوات اليونانيـــة .. واخيرا تلك المنـــاظر الباهتة التى تمثل بلادا يسودها جو شاعرى .. فتريك فى وقت واحد النخيل واشجار الصنوبر ، ونمرا إلى اليمين ، واسدا إلى اليسار ، ومآذن التتر عند حافة الأفق ، وخرائب الرومان فى المقدمة ، وإبل

«انيخت» بين هذه وتلك ، وقد أحاطت بالجميع غابة عذراء ، اجهد الرسام نفسه فى إبدائها نظيفة ! .. وقد سقط شعاع عمودى من الشمس ، واخذ يترجرج على صفحة الماء التى صبغت بلون رمادى كلون الفولاذ ، وقد غشـــيتها خدوش بيضاء على مسافات متباعدة ، تمثل البجع العائم !

وكان المصباح المعلق إلى الحائط فوق رأس « ايما » يضىء كل هذه اللوحات التى تمثل مناظر الدنيا ، فتتتابع امام بصرها ، و « عنبر » النوم غارق فى صمت ، يعكره فى بعض الأحيان ضجيج يتناهى من بعيد، منبعثا من عربة تذرع الطريق، بعد ان تقدم الليل !

وقد بكت « ايما » كثيرا فى الأيام الأولى لوفاة أمهـــا ، وأوصت بصنع لوحة حزينة مطرزة بخصلة من شعر «الفقيدة» . وأرسلت خطابا إلى (برتو) مليئا بأفكار قاتمة عن الحياة ، طلبت فيه ان تدفن — إذا ما حان اجلها — فى المقبرة التى ضمت امها . وجزع ابوها إذ ظنها مريضة فبادر بزيارتها .. واحست « ايما » فى اعماقها بالرضا ، إذ رات نفسها تقفز فجاة إلى ذلك اللون الباهت من الحياة المثالية النادرة ، التى لا تتطلع إليها النفوس التافهة !

وهـــكذا ، الفت نفســـها تنزلق إلى الوان الخيـــال « اللامارتينية » — اى التى كانت تسود مؤلفات « لامارتين » — فتنصت إلى القيثـــارات على البحيرات ، واناشـــيد البجع المحتضر ، وإلى صوت ســـقوط الأوراق الذابلة ، ورفرفـــة العذارى الطاهرات الصاعدات إلى السماء ، وإلى صوت الله يتردد فى الوديان !!

وما لبثت ان ملت كل هذا ، ولكنها لم تشأ فى البداية ان تعترف بالملل ، بل استمرت فى هذه الخيالات ــ بحكم العادة ، فى أول الأمر ، ثم بدافع من الزهو بعد ذلك ! ــ ولكنها وجدت السكينة تغمرها فى النهاية ، فلا حزن فى الفؤاد ، ولا تجاعيد فى الجبين !

وكانت دهشــــة الراهبـــات ــ اللائى احســـن الظن باستعدادها ــ بالغة ، إذ لاحظن ان الآنسة « روو » قـــد اخذت تفلت من رعايتهن .. والواقع أنهن كن قد سخون عليها بالطقوس والخلوات والمواعظ ، واسرفن فى تلقينها التبجيل الواجب نحو القديسين والشهداء ، وفى إزجاء النصائح التى تستهدف اخضاع الجسد وخلاص الروح ، حتى اصبحت الفتاة كالفرس التى تسحب بالعنان .. ثم قدر لها ان تقف وأن يخرج العنان من بين اسنانها !

.. ذلك لأن تلك الروح الايجابية التى نمت فى جوانحها وسط هذا النشاط الدينى .. تلك الروح التى احبت الكنيسة من اجل زهورها ، والأغانى بسبب كلماتها العاطفية ، والأدب من اجل مثيراته الحسية .. هذه الروح لم تلبث ان تمردت على اسرار الايمان ، كما تمردت على ذلك النظام الذى كان يتعارض مع مزاجها .. حتى ان احدا لم يأسف لرحيلها حين سحبها ابوها من الدير .. بل ان الرئيسة شكت من انها غدت فى الأيام الاخيرة قليلة الاحترام لراهبات الدير !

ووجدت « ايما » ــ فى الفترة الأولى التى تلت عودتها إلى البيت ــ لذة فى ان تصدر الأوامر إلى الخدم . بيد انها لم تلبث ان ابغضت الريف ، وحنت إلى الدير مرة اخرى !

وعندما وفد « شارل » إلى (برتو) لأول مرة ، احست بخيبة امل ، إذ لم يسفر ظهوره عن جديد تتعلمه او تحس به ! .. بيد ان شوقها الملهوف إلى شىء جديد ، والقلق الذى ساورها لتغير ظروفها ــ او لعله الاضطراب الذى بعثه ظهور هذا الرجل ــ كانا كافيين لكى يحملاها على ان توقن بانهـــا قد أصابت اخيرا تلك العاطفة الخارقة ، التى كانت تتراءى لها ــ حتى ذاك الحين ــ كعصفور كبير ذى ريش وردى ، يحلق ببهاء فى سماوات الشـــعر .. عاطفـــة الحب ! .. وما استطاعت حينذاك أن تتصور أن تلك السكينة الناعمة التى كانت تعيش فيها ، هى .. السعادة التى كانت تحلم بها !

———— ● ————

الفصل السابع

● على أنها كانت تخال احيانا ، ان الأيام المقبلة هى اجمل ايام حياتها .. ايام شهر العسل ، كما يسمونه ! .. بيد انها كانت ترى لزاما ــ لكى تتذوق حلاوة ذلك « العسل » كاملة ــ ان ترحل إلى البلاد ذات الأسماء الرنانة ، التى تتسم فيها فترة ما بعد الزواج بلذة الدعة والاسترخاء .. والتى يصعد المرء فيها ــ على مهل ــ طرقا وعرة ، فى عربات ذات ستائر زرقاء ، وهو ينصت إلى أنشودة السائس ترددها قمم الجبال ، ويختلط بها رنين الأجراس الملتفة حول أعناق الماعز ، وخرير الماء المتساقط .. ومع غروب الشمس ، يتنسم المرء ــ عند حواف الخلجان ــ عبير أشجار الليمون ، حتى إذا أرخى الليل سدوله ، خلا العروسان إلى نفسيهما فى الشرفة يحدقان فى النجوم وقد اشتبكت أصابعهما ، واخذا يرسمان الخطط للمستقبل !!

بل لقد خيل إليها ان فى الدنيا بقاعا تنبت السعادة ، كما لو كانت السعادة شجرة لا تنبت إلا فى تربة معينة لا نمو لها فى غيرها !

ولطالما ساءلت نفسها : لماذا لم يقدر لها ان تتكىء على حافة شرفة منزل خشبى على جبال سويسرا ، أو ان تحبس شجونها فى كوخ باسكتلندا ، مع زوج يرتدى حلة من المخمل الأسود ذات ذيل سابغ ، وحذاءين طريين ، وقبعة مدببة ، واكماما منشاة ؟ ! .. لكم تمنت لو تفضى لأحد بهذه الخواطر

جميعا .. ولكن ، كيف السبيل إلى الافصاح عن ذلك الضيق الذى يتعذر التعبير عنه ، والذى تتبدل صوره كالسحاب ، ويعصف بنفسها كالرياح ؟ .. وهكذا ، كانت تعوزها الالفاظ ، كما أعوزتها الفرصة والجرأة !

ومع ذلك .. آه، لو أراد «شارل».. لو خطر بباله .. لو التقت نظراته مرة بخواطرها .. اذن ، لتفتح قلبها ــ فيما تحسب ــ عن فيض مفاجىء ، كما تتساقط الثمار الناضجة عن الأشجار بمجرد أن تمسها الأيدى ! .. بيد ان الأمر كان يجرى على النقيض من ذلك .. فكلما ازدادت الالفة بينهما ، ازداد شعورها بانطواء روحى ، واتسعت الهوة التى تفصلها عنه !

كان حديث «شارل» سطحيا .. كسطح إفريز الطريق، تمر عليه آراء الناس فى لباسها العادى ، فلا تثير فيه انفعالا ، أو ضحكا ، أو خيالا ! .. فهو لم يحس بحب الاستطلاع ــ كما كان يقول ــ يدفعه لأن يذهب إلى المسرح لمشاهدة الممثلين الباريسيين ، أيام كان يقيم فى (روان) .. ولا كان يعرف السباحة ، ولا استخدام السلاح ، ولا إطلاق الرصاص .. وعجز مرة عن أن يفسر لها عبارة من مصطلحات الفروسية ، صادفتها فى إحدى الروايات !

ألم يكن من الواجب أن يسير الأمر على العكس من ذلك، فيعرف الرجل كل شىء .. ان يكون مبرزا فى كثير من نواحى النشاط ليدرب زوجته عليها .. ان يبصر المرأة بخبايا العواطف ومتع الحياة .. وبكل الأسرار ؟ ! .. لقد كان « شارل » على العكس من هذا كله ، فلا هو بصرها بشىء ، ولا كان يعرف شيئا .. بل إنه لم يكن يطمح إلى شىء !!

كان يظنها سعيدة ، وهى فى الواقع تنقم عليه هـــذا السكوت الخامل ، وذلك الركود المطمئن .. بل تنقم عليه ان حظى بتلك السعادة التى اتاحتها له !

وكان يحلو لها احيانا ان ترسم ، فكان « شارل » يجد تسلية ممتعة فى ان يقف جامدا يتأملها وهى عاكفة على لوحتها ، او وهى تنعم النظر إلى الرسم وقد ضاقت حدقتاها إمعانا فى الدقة ، او وهى تعبث بقطعة من لبـــاب الخبـــز تكورها بين اصابعها .. اما إذا عزفت على « البيانو » ، فكان اعجابه يزداد كلما ازدادت حركات اناملها سرعة ! .. كانت توقع النغمات فى ثقة ، وتجرى اصابعها على المفاتيح من اعلى إلى اسفل دون توقف ، فتهتز اوتار الآلة القديمة ، حتى ليصـــل صوتها إلى اقصى القرية إذا كانت النافذة مفتوحة .. وكثيرا ما يحدث ان يكون محضر القرية مارا فى الطريق ، فيتوقف عن السير ، ويأخذ فى الاصغاء وهو عارى الرأس ، وأوراقه فى يده !

***

● وكانت « ايما » — من ناحية أخرى — تحسن تدبير المنزل ، وتكتب للمرضى رسائل لبقة تذكرهم فيها بأتعـــاب الاستشارات الطبية ، دون ان يشتموا منها رائحة المطالبة! .. وعندما يصادف وجود ضيف من الجيران على مائدة الغداء — فى ايام الآحاد — كانت تنتهز الفرصة لتعرض بعض آيات الاناقة فى تقديم اصناف الطعام .. كأن ترص اهرامات من البرقوق على ورق العنب ، او تصوغ الحـــلوى فى قوالب

تصبها على الأطباق .. بل إنها أخذت تعرب عن رغبتها فى شراء « سلاطين » تملأ بالماء ، لتغمس فيها الأصابع بعد تناول الحلوى ! .. وكان كل هـــذا مدعـــاة إلى رفع شأن اسرة « بوفارى » فى انظار الناس !

وانتهى الأمر بشارل إلى ان ازداد تقديره لنفســه إذ وفق إلى مثل هذه الزوجة ! .. وكان يطلع زائريه مزهوا على لوحتين صغيرتين رسمتهما « ايما » بالفحم ، وصنع هو لهما اطارين عريضين ، وعلقهما إلى الحائط بشريطين اخضرين .. وكثيرا ما أصبح يرى واقفا امام باب منزله — بعد مبارحة الكنيســة — وفى قدميه خفان بديعا التطريز يختال بهما فخورا !

وكان فى بعض الأحيان يعود إلى المنزل متأخرا — فى الساعة العاشرة ، وربما فى منتصف الليل — فيطلب الطعام ، بينما تكون الخادم قد أوت إلى فراشها ، وعند ذاك كانت « ايما » تتولى اعداد المائدة له ، فيخلع سترته لكى يتناول عشاءه فى ارتياح ، وينطلق فى سرد أسماء جميع من قابل من الناس ، وما زار من قرى ، وما وصف لمرضاه من أدوية .. ثم يأتى — وهو راض عن نفســه — على ما تبقى امامه من « يخنى » ، ويعقب بقطعة من الجبن ، ثم يأخذ فى قضم تفاحة ، وفى افراغ ابريق النبيذ فى جوفه .. ولا يلبث ان يذهب إلى السرير فينطرح عليه ، ويمضى فى الغطيط !

وكان قد عدل عن « الطاقية » القطنية التى اعتاد لبسها فى السرير ، والف ان يلف حول رأسه وشاحا لا يكاد يستقر على اذنيه ، فيصحو فى الصباح وشعره متهدل ، مبعثر على

وجهه ، وقد علق به بعض حشو الوسادة التى تكون أشرطتها قد انحلت أثناء الليل .

كذلك كان يرتدى فى النهار حذاءين كبيرين ، لكل منهما رقبة عالية ، تعلو سطحها ثنيتان سميكتان تنحرفان نحو كعب القدم .. اما وجه الحذاء فكان دائما مستويا فى خط مستقيم ، وكأنه مشدود على خشب . وكان يردد دائما : « هذا هو النوع المناسب للريف » !

وكانت أمه تؤيده فى هذا الاقتصاد ، إذا ما جاءت لزيارته — كلما اشتبكت فى خلاف مع زوجها — كما كانت تفعل أيام الزوجة الأولى ! .. وكانت تبدو برمة بالزوجة الجديدة ايضا ، إذ كانت ترى أساليبها مدعاة لاسراف يفوق مستوى ثرائهم .. فالخشب والسكر والشموع تستهلك بكميات تعادل ما يستهلك فى البيوت الكبيرة .. وكمية الجمر التى كانت تحرق فى المطبخ تكفى لطهو عشرين صنفا من الطعام ! .. وكانت تعمد إلى ترتيب « بياضات » زوجة ابنها فى الصوان ، وتعلمها كيف تحاسب الجزار إذا ما احضر اللحم ، فكانت « ايما » تتقبل بصبر ما تجود به الأم من دروس ! .. وكانت كلمتا « ابنتى » و « أمى » تتبادلان طوال النهار ، مصحوبتين برعشة فى الشفاه ، إذ كانت السيدتان تلفظان اعذب كلمتين ، بلهجة تهتز بالغضب !!

كانت الأم العجوز تشعر فى عهد مدام « دوبيك » بأنها ما زالت الأثيرة المفضلة لدى ابنها .. اما الآن ، فقد بدا لها حب « شارل » لايما بمثابة فرار من حنانها ، أو عدوان على ما كان لها .. فاخذت ترقب سعادة ابنها فى صمت كئيب ،

كإنسان افلس فراح ينظر خلال زجاج النوافذ إلى اغراب احتلوا داره القديمة .. وكانت تروى له مشقاتها وتضحياتها — على سبيل الذكرى — وتقارنها باهمال « ايما » ، عسى ان يستنتج ان ليس من الحكمة أن « يعبد » السيدة الشابة ، على هذا النحو الذى يملك عليه كل عواطفه !

ولم يكن « شارل » يدرى كيف يتصرف .. فهو يحترم امه ، كما يحب زوجته حبا لا حد له .. وكان يعتبر امه معصومة من الخطأ ، ولكنه — مع ذلك — لم يكن يرى فى مسلك زوجته مدعاة للوم ! .. وكان يستجمع جراته — بعد ان ترحل مدام بوفارى — فيردد فى استحياء — وبنفس الفاظ امه — بعضا من اهون المآخذ التى يكون قد سمعها منها .. ولكن « ايما » كانت — بكلمة واحدة — تقنعه بانه على خطأ ، وترسله إلى مرضاه ! .. ومع ذلك فقد ظلت تحاول ان تقنع نفسها بأنها تحبه وفقا للنظريات التى كانت تؤمن بها ! .. كانت تردد على مسمعه — فى الحديقة ، وفى ضوء القمر — ما كانت تحفظه عن ظهر قلب من الشعر الملتهب ، وتغنى له — وهى تتنهد — بعض الالحان المشجية .. بيد انها كانت تجد نفسها بعد ذلك ساكنة العواطف ، كما ان « شارل » لم يكن يبدو اكثر حبا ولا انفعالا مما كان قبل الشعر والغناء !

وهكذا لم تلبث — بعد ان قدحت زناد قلبها فلم تنبعث منه شرارة — ان انساقت إلى اقناع نفسها بان حب « شارل » خال من الحرارة ! .. فقد أصبحت اوقات انطلاقه وتحلله منتظمة .. وهو يقبلها فى « مواعيد » معينة ، وكأنه يمارس

« عادة » من العادات ! .. او كأنه يتناول حلوى مرتقبة بعد عشاء ممل !!

* * *

● وحدث ان عالج الطبيب احد الحراس من التهاب رئوى ، فأهدى الحارس زوجته كلبة إيطالية صغيرة اخذت تصحبها فى نزهاتها ، إذ كانت تخــرج احيــانا كى تخلو إلى نفسها ، وحتى تريح بصرها بعض الشىء من النظر إلى تلك الحديقة العتيقة ، والطريق المتربة ! .. كانت تمضى حتى غابة الزان عند (بنفيل) ، على مقربة من البناء المهجور الذى تؤلف جدرانه زاوية عند منعطف الطريق المفضية إلى الحقول .. وهناك ، وسط الاعشاب النامية فى الخندق ، وأعواد البوص ذات الأوراق الحادة ، كانت تتأمل ما حولها لتتبين ما إذا كان قد الم بالمكان اى تغير عما كان عليه فى آخر مرة جاءته .. فكانت ترى زهور « الريجتيالا » والقرنفل فى نفس منابتها ، والنباتات الشوكية تحيط بالأحجار الكبيرة ، والطحالب على طول النوافــذ الثــلاث — فى المبنى المهجــور — التى كانت مصاريعها مقفلة باستمرار ، يتسرب خلالها التراب ليتراكم على قضبانها الحديدية التى علاها الصدأ .

وكانت افكارها لا تلبث ان تهيم بلا غاية ، مثل كلبتها التى كانت تجرى فى حلقات خلال الحقول ، وترسل نباحها خلف الفراشات الصــفراء ، وتطارد الجــرذان او تعضــعض الخشخاش النامى على حافة حقل القمح . ثم تأخذ افكارها فى التركز شيئا فشيئا ، فتردد لنفسها وهى تفترش الحشائش



كانت تخــرج احيــانا كى تخلو إلى نفسها وحتى تريح بصرها بعض الشىء

التى كانت تعبث بها بطرف مظلتها : « يا الهى ! .. لماذا تزوجت ؟ ! » .

وكانت تسائل نفسها : « أو لم تجد المصادفات طريقا آخر تدفعها خلاله لتلتقى برجل آخر ؟ » .. ثم تمضى فى تخيل الأحداث التى كانت تترتب على ذلك .. الاحداث التى لم تقع ، والحياة التى تغاير حياتها الحالية ، والزوج الذى لم تعرفه.. فلا مراء فى ان الأزواج ليسوا جميعا مثل زوجها !.. كان من الممكن أن يكون زوجها جميلا ، مرحا ، أنيقا ، جذابا ، مثل أولئك الازواج الذين ولا بد قد حظيت بهم زميلاتها فى الدير ! .. ترى ماذا تفعل أولئك الزميلات الآن فى المدينة ، وسط ضجيج الشوارع ، واضواء المسارح ، وصخب المراقص ؟ .. انهن ولا ريب يحظين بحياة يتفتح بها القلب ، وتنتعش الحواس .. اما هى ، فان حياتها باردة كالمخزن الذى أوتى نافذة شمالية !

والملل ؟ ! .. ذلك العنكبوت الصامت الذى كان يغزل نسيجه فى الظلال ، فى كل ركن من أركان قلبها !

وتذكرت ايام توزيع الجوائز — اثناء الدراسة — حين كانت تصعد إلى المنصة لتتسلم نصيبها من التيجان الصغيرة ، وقد بدت بديعة بشعرها المجدول ، وثوبها الأسود ، وحذاءيها الصوفيين الخفيفين .. وكان السادة ينحنون ليسمعوها عبارات التهنئة ، إذا ما عادت إلى مكانها .. ويطلون من نوافذ العربات التى تملأ صحن الدير ليودعوها عند انصرافها ! .. كما كان مدرس الموسيقى يحييها إذ يمر بها حاملا قيثارته .. أواه ! .. لكم اصبح كل هذا بعيدا .. آه ، شد ما بعد !

● وكانت تنادى كلبتها « جالى » فتضعها على ركبتيها ، وتمر بأصابعها فوق رأسها الصغير ، وتهمس لها : « هيا .. قبلى سيدتك ! .. قبليها يا من لا تثقل الهموم قلبها ! » .

وتأخذ فى تأمل وجه هذا الحيوان الرشيق ، الواجم ، الذى يتثاءب فى بطء ، فيلين قلبها ، وتروح تقارن بين نفسها وهذا الحيوان ، وتحدثه بصوت مسموع ، وكأنها تعزى شخصا منكودا !

وكانت الريح تهب أحيانا قوية ، تاتى من ناحية البحر فتكتسح هضبة (كو) بأسرها ، وتحمل إلى الحقول المترامية رطوبة ملحة .. فيصدر من البوص صفير خافت ، وهو يميل على سطح الأرض .. وبين اغصان الزان تسرى رعشة سريعة ، بينما ينبعث على قممها همس عميق ، فتشد « ايما » شالها حول كتفيها وتنهض منصرفة .

وكان ضوء النهار ينبعث خلال اوراق الشجر، مستعيرا لونها الأخضر ، فينعكس على العشب القصير الذى يئن فى رفق تحت قدميها .. ولا تلبث الشمس أن تجنح للمغيب ، فتحمر السماء إذ تلوح بين الغصون ، وتبدو جذوع الأشجار النامية بانتظام فى خط مستقيم ، كأنها اعمدة قائمة على صفحة من الذهب .. وتسرى الرهبة إلى نفس « ايما » فتنادى كلبتها « جالى » ، وتسرع إلى (توست) .. ثم تستلقى على مقعد مريح ، وتظل صامتة بقية الليل !

* * *

● واعترض حياتها — فى أواخر سبتمبر — حادث غير

عادى . فقد دعيت إلى (فوبيسار) لزيارة مركيز « اندرفيليه » ! .. ولما كان المركيز قد تولى الوزارة من قبل — عند عودة الملكية — فانه اخذ يتطلع للعودة إلى الحياة السياسية ، وبكر بالتمهيد لترشيح نفسه لمجلس النواب .. فكان فى الشتاء يوزع الحطب ، وكان فى مجلس المقاطعة يطالب متحمسا باصلاح الطرق فى دائرته .. فلما جاء الصيف بحره اللافح ، اصيب بدمل فى فمه ، استطاع « شارل » أن يريحه منه — بما يشبه المعجزة — بحركة من مبضعه على وجهه فى الوقت المناسب !

وعندما عاد المندوب الذى أرسله المركيز إلى (توست) ليدفع أتعاب الطبيب ، ذكر لسيده أن فى حديقة الطبيب نوعا ممتازا من « الكريز » الذى كان نمو بذوره متعذرا فى حدائق (فوبيسار) .. فطلب المركيز بعض « العقل » .. وعنى بأن يذهب بنفسه إلى الطبيب ليشكره .. وهناك وقع بصره على « ايما » ، فلاحظ قوامها الأهيف ، واسترعى انتباهه انها لا تنحنى بالتحية كالفلاحات .. ولم ير اى مغالاة فى التواضع أو ثمة خرق للتقاليد ، فى دعوة الزوجين الشابين إلى قصره !

وفى الساعة الثالثة من احد ايام الاربعاء ، رحل السيد والسيدة « بوفارى » إلى (فوبيسار) فى عربة شدت إلى سطحها حقيبة كبيرة .. ووضع أمام مقعدها صندوق للقبعات، فضلا عن أن « شارل » حمل على فخذيه صندوقا من الورق المقوى .

ووصلا عند هبوط الليل ، عندما كانت مصابيح الحدائق تضاء ، لتنير الطريق للعربات .

الفصل الثامن

● كان القصر مبنيا على الطراز الإيطالى الحديث ، يمتد منه جناحان ، وله ثلاثة مداخل تفضى إلى شرفات ذات درجات .. وكان يقوم فى نهاية مرج واسع ترعى فيه بعض الأبقار ، بين مجموعات متباعدة من الأشجار الضخمة ، التى بسطت أوراقها المتفاوتة الخضرة على احواض الورد ، واحواض الزهر المسمى بكرات الجليد ، والتى انتثرت على طول الطريق الرملى المتعرج .. وكان هناك جدول يجرى تحت قنطرة .. ومن خلال الضباب كانت تلوح مبان معروشة بالقش ، تنتثر فى المروج التى حفت بها هضبتان تنحدران انحدارا هينا ، وتكسوهما الغابات .. وعلى البعد ، بدا وسط الأحراش صفان متوازيان من المخازن والحظائر ، هما كل ما تبقى من القصر القديم المتهدم .

ووقفت عربة « شارل » أمام السلم الاوسط ، فظهر الخدم .. وتقدم المركيز فأعار زوجة الطبيب ذراعه وقادها إلى البهو ، الذى رصفت ارضه ببلاط من الرخام ، وارتفع سقفه إلى علو شاهق ، فكان يتردد لوقع الأقدام والأصوات فيه صدى كالذى يتردد فى الكنائس ، وفى أقصى البهو كان يوجد سلم مستقيم .. وإلى اليسار كانت ثمة شرفة تطل على الحديقة ، وتؤدى إلى قاعة « البلياردو » التى كانت اصوات ارتطام الكرات العاجية تنبعث خلال بابها .

وبينما كانت « ايما » فى طريقها إلى قاعة الاستقبال ، وقع بصرها على رجال تبدو عليهم سيماء الوقار والعظمة ،

وقد استقرت ذقونهم فوق أربطة رقابهم العالية .. وكانوا جميعا يحملون الأوسمة ، ويبتسمون فى صمت وهم مكبون على مائدة « البلياردو » .. وفوق الخشب الداكن الذى يكسو الجدران ، كانت ثمة اطارات مذهبة ، نقشت على حوافهـا السفلى أسماء بحروف سوداء ، قرأت « ايما » منها : « جان انتوان دواند فيلييه دى ايفربونفيل ، كونت دى فوبيسار ، وبارون دى فرينای ، الذى قتل فى موقعة (كوترا) فى ٢٠ اكتوبر سنة ١٥٨٧ » .. وقرأت تحت اطار آخر : « جان انتوان هنرى جى دى اندفيلييه دى فوبيسار ، اميرال فرنسا ، وحامل وسام فروسية القديس ميشيل ، الذى جرح فى موقعة (هوج سان فاست) فى ٢٩ مايو سنة ١٦٩٢ ، ومـات فى (فوبيسار) فى ٢٣ يناير سنة ١٦٩٣ » .. اما بقية الاسماء ، فلم يسهل على « ايما » تبينها ، إذ كانت اضـواء المصـابيح المنعكسة من مائدة « البلياردو » الخضراء تلقى ظلالا قاتمة حول القاعة ، وعلى اللوحات الأفقية ، فتظهر التشققات التى كانت تتخلل سطحها كخطوط دقيقة .. ومن خلال هذه المربعات الكبيرة السوداء ، المحاطة باطارات من ذهب ، كانت تبدو هنا وهناك اجزاء اكثر وضوحا فى اللوحة : جبهة شاحبة ، أو عينان حادتان ، أو شعر مستعار يتهدل على الأكتاف فوق ملابس حمراء ، او عقدة ربطة الســاق فوق الربلة (بطن السـاق) ..

وفتح المركيز باب الصالون ، فنهضت إحدى السيدات — وهى المركيزة نفسها — واستقبلت « ايما » واجلستها فى مقعد إلى جوارها ، ثم اخذت تؤثرها بحديث ودى ، كما لو

كانت تعرفها منذ زمن بعيد ! .. كانت سيدة فى نحو الأربعين ، أوتيت كتفين بديعتين ، وانفا حادا ، وصوتا لينا .. وكانت تطرح فوق شعرها الكستنائى — فى ذلك المساء — شالا من « الدانتيلا » ينسدل على ظهـرها فى شـكل مثلث .. وإلى جوارها ، كانت تجلس شابة ، فى مقعد عالى الظهر ، ورجال حليت عرى ستراتهم بورود صغيرة ، وقد اشتبكوا فى الحديث مع السيدات حول المدفاة .

* * *

● واعد الطعام فى الساعة السابعة ، فجلس الرجال — وكانوا اكثر عددا من السيدات — حول المائدة الأولى فى قاعة الطعام ، بينما جلست السيدات حول المائدة الثانية التى كان يراسها المركيز والمركيزة .

واحست « ايما » عند دخولها القاعة بجو دافىء : مزيج من أريج الزهور ، والملابس الجميلة ، وابخرة اللحم ، ورائحة « عش الغراب » ، وشموع المشاعل التى انعكست السنة لهيبها الطويلة على الأوانى الفضية والأكواب البلورية المضلعة التى احاطتها الابخرة بغلالة خفيفة ينبعث خلالها بريق باهت . وتناثرت الزهور على طول المائدة ، واستقرت المناشف — التى طويت على شكل قلنسوات رجال الدين — على الأطباق ذات الحواف العريضة ، وبرزت خلال ثناياها ارغفة بيضـاوية صغيرة .. ورصت الفاكهة الكبيرة الحجم بعضها فوق بعض طبقات ، على فراش من العشب الأخضر داخل سلال مفتوحة الجوانب .. والابخـرة تتصـاعد ورئيس خـدم المـائدة

(السفرجية) — فى جوربيه الحريريين ، وسرواله القصير ، ورباط رقبته الأبيض ، وقميصه الذى وشى صدره بالدانتيلا — يمر بالطبق بين أكتاف المدعوين فى وقار القضاة، وبغمزة واحدة من ملعقة بين أجزاء الصنف الذى يحمله — وقد قسمت من قبل — تقفز إليك القطعة التى تختارها ! .. وفوق المدفأة الخزفية ذات القضبان النحاسية ، كان ثمة تمثال لامراة مدثرة حتى الذقن ، تنظر فى صمت إلى القاعة التى حفلت بالناس !

.. ولاحظت « ايما » أن كثيرا من السيدات لم يضعن قفازاتهن فى أكوابهن !(١) .

* * *

● وجلس فى اقصى المائدة — وحيدا بين السيدات — شيخ انحنى على طبقه الملىء ، وقد ربط منشفته إلى صدره كالطفل ، واخذت قطرات « الصلصة » تتساقط من فمه وهو ياكل .. وكانت عيناه محتقنتين بلون الدم .. ذلك كان والد زوجة المركيز : « دوق فردبير » المسن ، الذى كان ذا حظوة لدى «كونت دارتو» فيما مضى، أيام نزهات الصيد فى(فودرى) عند المركيز « دى كونفيان » .. والذى قيل إنه كان عشيقا للملكة « مارى انتوانيت » ، إلى جانب عشيقيها الآخرين « دى كوينى » و « دى لوزون » !

وكان الدوق قد عاش حياة عربيدة صاخبة ، حفلت بالمبارزات والمراهنات ، وبالنساء اللواتى كان يغويهن .. وقد بدد ثروته ، وازعج أسرته كلها !

---

(١) كانت هذه هى عادة سيدات المجتمع فى فرنسا فى القرن الماضى .

وكان يقف خلف مقعده خادم يهتف فى أذنه باسماء الأطباق التى يشير إليها بأصبعه مغمغما فى « تهتهة » .. واخذت عينا « ايما » ترتدان باستمرار — وبحركة تلقائية — إلى هذا الشيخ ذى الشفة المتدلية ، لتحدقا فيه ، وكأنه شخص غذ جليل ! .. كيف لا وقد عاش فى البلاط الملكى ، ونام فى فراش الملكات !!

وكانت الكؤوس تترع بالشمبانيا المثلجة ، التى كانت ترسل فى جسد « ايما » كله رعدة ، كلما مست شفتيها !! لم تكن قد رات الرمان فى حياتها من قبل ، ولا اكلت الأناناس !.. بل إن مسحوق السكر الناعم بدا لها أنصع بياضا واكثر نعومة منه فى اى مكان آخر !

وما لبثت السيدات ان صعدن إلى حجراتهن ليتخذن اهبتهن للحفلة الراقصة .. فعنيت « ايما » بزينتها فى دقة المثلة التى تستعد لليلة ظهورها الأول .. ونسقت شعرها وفقا لنصائح الحلاق ، واخذت ترتدى ثوبها الصوفى الخفيف الذى كان مبسوطا على السرير ، بينما كان « شارل » يشد بنطلونه إلى وسطه .

وقطع « شارل » الصمت قائلا : « لسوف يضايقنى السير الجلدى — الذى يشد الحذاءين إلى البنطلون — اثناء الرقص » .

فهتفت فى استنكار : « الرقص ؟ ! » .

وإذ أجاب : « نعم » ، قالت : « هل طاش عقلك ؟ ..

لسوف يسخرون منك ! .. الزم مقعدك ! » .. ثم أردفت :
« ان هذا اليق بمكانتك كطبيب » !!

ولزم « شارل » الصمت ، وراح يذرع الغرفة ريثما تفرغ « ايما » من ارتداء ثيابها .. كان يراها من الخلف ــ على صفحة المرآة ــ بين مشعلين ، وقد لاحت عيناها اشد سوادا مما عهدهما .. وخصلات شعرها المنسدلة فى تموج على اذنيها تلمع ببريق أزرق ، وقد ثبتت فى لفافة شعرها المكور فى مؤخرة رأسها وردة صناعية على ساق متأرجحة ، وقد تناثرت على أوراقها قطرات من الماء ! .. أما ثوبها ، فكان ذا لون أصفر شاحب ، تحليه ثلاث باقات من ورد صناعى أحيط بالخضرة .

وتقدم «شارل» فطبع على كتفها قبلة. وإذ ذاك هتفت:
« ابتعد عنى لئلا تتلف اتساق ملابسى ! » .

* * *

● وسمعت « ايما » انغاما من قيثارة ، ودوى بوق ، فهبطت السلم وهى تمسك نفسها بعناء عن الجرى .. وكانت حلقات الرقص الرباعى قد بدات ، واخذ المدعوون يتدافعون، فجلست فى مقعد مستطيل إلى جوار الباب .. حتى إذا انتهت الرقصة ، خلت الحلبة إلا من رجال اخذوا يتحدثون وهم وقوف ، والخدم يروحون ويغدون فى زيهم الرسمى وقد حملوا الصحاف الكبيرة .. وعلى طول الصف الذى ضم النساء ، كانت المراوح تهتز ، وباقات الورد تحجب جانبا من الوجوه الباسمة ، وقنينات العطر ذات الأغطية الذهبية تدار فى الأيدى

التى شفت قفازاتها البيضاء عن أناملها ، وضغطت على معاصمها .. وكان وشى « الدانتيلا » والمشابك الماسية ، والأساور ذات الزوائد المدلاة ، يتارجح فوق الأثواب ، ويلمع فوق الصدور وحول الأذرع العارية ! .. وكان الشعر المصفف بعناية فوق الجباه ، والمعقود فى مؤخرات الرؤوس ، يحمل زهور الفل أو الياسمين أو الرمان أو البازلاء ، أو السنابل التى عقدت على شكل تيجان أو عناقيد أو أغصان .. وكانت الأمهات يجلسن ساكنات بوجوه عابسة ، تتوج رؤوسهن عمائم حمراء !

وخفق قلب « ايما » قليلا عندما تقدمت تتخير لنفسها مكانا فى الصف ، انتظارا لحركة قوس عازف القيثار ، إيذانا ببدء الرقص ، وقد امسك زميلها بأطراف أناملها .. وما إن انسابت الأنغام حتى زايلها الانفعال ، فتحركت إلى الأمام على إيقاع الموسيقى وهى تهز رقبتها هزا خفيفا .. واخذت ترتسم على شفتيها ابتسامة ، تزداد اتساعا كلما ابدع عازف القيثار، حين ينفرد بالعزف احيانا وتكف الآلات الأخرى عن مشاركته !.. كانت نغماته رقيقة ، هادئة ، حتى ليمكن معها سماع رنين الجنيهات الذهبية على الجوخ الأخضر ، فوق موائد الميسر فى الغرفة المجاورة .. ثم لا تلبث الفرقة الموسيقية ان تعود إلى العزف المشترك فجاة ، ويرسل البوق انغامه الرنانة ، فتدق الأقدام فى إيقاع . وترفرف أطراف « الجونلات » وتتلامس ، بينما تتشابك الأيدى ثم تفترق .. والعيون التى تغض عنك لا تلبث ان تعود إلى التحديق فى عينيك !

وكان ثمة نحو خمسة عشر رجلا ، تتراوح أعمارهم بين الخامسة والعشرين والأربعين ، ينتشرون بين الراقصين ، او يتبادلون الأحاديث عند الأبواب ، وقد امتازوا عن الباقين — على تباين اعمارهم وزيناتهم واشكال وجوههم — بسيماء عراقة الأصل ! .. وكانت ثيابهم البديعة الصنع تبدو أرق نسيجا من سواها ، وشعورهم تنسدل على الأصداغ فى تموجات ، وهى تلمع بأطيب الدهون ! .. وكانت لهم بشرة المترفين .. بشرة بيضاء ، يزيدها رواء ما ينعكس عليها من جو الحجرة وما فيها من خزف شاحب ، وحرير يتموج ، واثاث جميل لامع ! .. بشرة يضفى عليها رونق الصحة نظام دقيق فى التغذية ! .. وكانت رقابهم تتحرك فى يسر فوق أربطة منخفضة . وكانوا يمسحون شفاههم بمناديل طرزت عليها حروف اسمائهم ، وتتضوع بشذى مختلف العطور ! .. وبينما كانت امارات الشباب تبدو على من ناهز منهم الشيخوخة ، كانت وجوه الشبان منهم تتسم بمسحة من نضوج .. اما نظراتهم غير المكترثة ، فكانت تنطق بهدوء حدة الشهوات التى تجد كل يوم ريا وإشباعا ! .. ومن خلال حركاتهم الرشيقة ، كان ينبثق ذلك الاعتداد الذى يولده اعتياد السيطرة على ما فى اليد من اشياء ، كما هو الحال فى رياضة الخيل الأصيلة .. ومصاحبة الغوانى !

وعلى بعد ثلاث خطوات من « ايما » ، اخذ احد فرسان حلبة الرقص — وكان فى ثياب زرقاء — يتحدث عن إيطاليا ، إلى شابة شاحبة اللون تتحلى باللآلىء .. وراحا يعبران عن اعجابهما بضخامة اعمدة كنيسة القديس بطرس ،

والتريفولى ، وبركان فيزوف ، والكاستلامارى ، والكاسين ، وورود جنوا ، والكوليزيوم فى ضوء القمر !

وبالأذن الثانية ، اخذت « ايما » تنصت إلى حديث زاخر بألفاظ لم تكن تفقهها .. إذ احاطت جماعة بشاب غض كان جواده قد فاز فى سباق الأسبوع الماضى ، وكسب الفى جنيه فى مباراة للقفز فوق حفرة فى إنجلترا .. وكان بعض افراد الشلة يشكون من ازدياد اوزان بعض خيولهم ، بينما كان فريق آخر يشكو من اخطاء مطبعية حرفت اسماء جيادهم فى الصحف !

* * *

● وثقل جو المرقص ، واخذت اضواء المصابيح تخفت ، والجميع ينصرف إلى قاعة « البليارد » .. وصعد خادم فوق مقعد فكسر لوحين من الزجاج .. وإذ ادارت مدام « بوفارى » راسها على الصوت ، لمحت خلال النافذة وجوه الفلاحين فى الحديقة تتطلع إلى ما يجرى بداخل القصر ، فتذكرت (برتو) ، وعادت إلى مخيلتها صور المزرعة ، والبحيرة وابيها تحت أشجار التفاح مرتديا قميصه ! .. بل إنها رات نفسها — كما كانت فى الماضى — تنتزع القشدة باصبعها من قدور اللبن ! .. غير ان حياتها الماضية — التى كانت واضحة المعالم حتى تلك اللحظة — سرعان ما تلاشت عن آخرها فى بريق ساعتها الراهنة ، حتى كادت ترتاب فى أنها عاشتها يوما ! .. ولم تعد تعيش إلا فى حلبة الرقص ، بينما كانت الظلال تلف ما عداها .. واخذت تتناول المثلجات فى

كأس مطعمة بالذهب امسكتها بيسراها ، وراحت تسبل جفنيها وهى ترفع الملعقة إلى فمها !

وكانت إلى جوارها سيدة تركت مروحتها تسقط ، ثم قالت لأحد الراقصين وهو يمر بها : « هل لك يا سيدى ان تتفضل بالتقاط مروحتى التى سقطت وراء هذه الأريكة » .. وانحنى السيد .. وفيما كان يلتقط المروحة ، لمحت « ايما » السيدة تلقى فى قبعته بشىء ابيض مطوى على شكل مثلث ، وما لبث السيد ان قدم المروحة باحترام إلى السيدة ، فشكرته بهزة من راسها ، وتحولت تنشق عبير باقة من الزهور كانت تحملها !

وبعد وجبة العشاء – التى حوت الكثير من نبيذ اسبانيا ، ونبيذ الراين ، وحساء السمك ، وحساء اللوز ، وعصيدة جبل طارق ، وشتى انواع اللحم البارد المحوط بالجلاتين – اخذت العربات ترحل تباعا ، واضواء مصابيحها تبدو – من خلف الستائر الحريرية – مترنحة فى جوف الظلام . وبدات المقاعد تخلو .. غير ان بعض المقامرين تخلفوا .. وراح الموسيقيون يلعقون اطراف اصابعهم ليرطبوها .. واستسلم « شارل » إلى شبه اغفاءة وقد اسند ظهره إلى احد الأبواب ..

وفى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، بدا رقص « الكوتيون » ، ولم تكن « ايما » على دراية برقصة « الفالس » ، بينما راحت بقية الحاضرات – حتى مدموازيل دى اندفيلييه والمركيزة نفسها – يرقصنها .. ولم

يكن قد بقى غير اثنى عشر شخصا تقريبا هم نزلاء القصر . على ان احد راقصى « الفالس » – وكان شابا يرتدى صدارا واسع الفتحة يلتصق بصدره كالقالب ، ويدعوه القوم بلقب « الفيكونت » – تقدم من مدام « بوفارى » يدعوها لمراقصته ، مؤكدا لها انه سيرشدها فلا تلبث ان تتقن الرقصة !

* * *

● وشرعا يرقصان فى بطء ، ثم ازدادت السرعة . واخذا يدوران فيدور معهما كل ما حولهما من مصابيح ، واثاث ، وجدران ، وارض ! .. وعندما مرا على مقربة من الباب ، التف ذيل ثوبها حول بنطلونه ، فتداخلت ارجلهما .. وخفض بصره نحوها .. ورفعت هى بصرها نحوه .. وعلى الفور ، احست بدبيب مخدر يسرى فى اعصابها ! .. وتوقفنا عن الرقص لحظة ، ثم استأنفاه .. وإذا « الفيكونت » يقود « ايما » بحركة رشيقة إلى نهاية البهو ،حيث اختفى معها . وكانت قد اوشكت ان تسقط لاهثة الأنفاس ، فاسندت راسها هنيهة إلى صدره .. ثم عاودا الدوران فى حركة اهدا من ذى قبل ، حتى عاد « الفيكونت » بها إلى مكانهما الأول ، فتهالكت على مقعد بجوار الحائط ، وغطت عينيها براحتيها !

وعندما فتحت عينيها من جديد ، رات سيدة تجلس على مقعد فى منتصف الصالون ، وقد انحنى امامها ثلاثة من الراقصين يتنافسون على الفوز بها زميلة فى الرقص . ولم تلبث السيدة ان اختارت « الفيكونت » . وعادت القيثارة إلى

العزف .. واتجهت الأنظار إلى الراقصين الذين اخذا يروحان ويجيئان ، وجسم السيدة ثابت فى استقامته ، وذقنها منكسة إلى اسفل . كذلك كان الفيكونت مشدود القامة ، مقوس الذراع ، وقد رفع راسه .. ولم يكن ثمة شك فى أن السيدة تجيد « الفالس » . .. وقد استمرا فى الرقص وقتا طويلا ، حتى انهكا بقية الراقصين !

***

● وانتهى الرقص .. ودار الحديث دقائق ، ثم تبادل القوم تحيات الوداع ، أو — بالأحرى — تحيات الصباح ، ثم انصرف نزلاء القصر إلى مخادعهم ..

وصعد « شارل » السلم وهو يجر نفسه جرا ، وقد كادت ساقاه تعجزان عن حمله ، بعد أن ظل واقفا خمس ساعات متوالية يشاهد لعب الورق دون أن يفقه منه شيئا ! .. وتنفس الصعداء حين حرر قدميه من حذاءيهما !

اما « ايما » ، فقد لفت كتفيها بالشال ، وفتحت النافذة واتكأت على حافتها .. كان الليل دامسا ، والمطر يتساقط رذاذا .. واخذت « ايما » تستنشق — فى نهم — الهواء الرطب الذى ارسل فى كيانها انتعاشا .. وكانت موسيقى الرقص ما تزال تطن فى اذنيها .. وجهدت لتظل ساهرة ، كى تمكن خيالها من أن ينعم ، اطول وقت ممكن ، بالحياة المترفة التى لم يكن بد من تركها عما قليل !

وبزغ الفجر ، فرمقت نوافذ القصر بنظرات طويلة ،



وشرعا يرقصان فى بطء ، ثم ازدادت السرعة

محاولة ان تتصور ما كان يجرى فى مخادع أولئك الذين لفتوا نظرها فى الليلة السالفة ، وكأنها تود لو عرفت حياتهم ، وتسللت إليها ، وامتزجت بها ! .. ثم فطنت إلى انها كانت ترتعش من البرد ، فخلعت ثيابها ، واندست تحت الأغطية إلى جوار « شارل » .. الذى كان قد استغرق فى النوم !

وفى اليوم التالى ، حضر الغداء عدد كبير ولكن جلوسهم إلى المائدة لم يتجاوز عشر دقائق .. وادهش الطبيب ان لم تقدم خلال الوجبة اية خمور .. وما لبثت مدموازيل « دى اندفيلييه » أن جمعت قطعا من الخبز فى سلة لتحملها إلى البجع فى بركة الماء .. بينما انصرف القوم للنزهة فى البيوت الزجاجية التى اعدت لإنماء نباتات المناطق الحارة ! .. وكانت ثمة نباتات غريبة ملبدة بالزغب ، صفت على شكل اهرامات ، تحت اصص معلقة تشبه اوكار الأفاعى ، تدلت من حوافها اشرطة طويلة من الورق الأخضر المتشابك .. وكان بستان البرتقال القائم فى طرف الحظائر يمتد فى طريق مسقوف حتى مرافق القصر ..

وقاد المركيز زوجة الطبيب الشابة إلى حظائر الخيل ، على سبيل التسلية وقتل الوقت .. وكانت ثمة لافتات من الخزف ، فوق المذاود الشبيهة بالسلال ، تحمل اسماء الخيول بحروف سوداء .. وكانت كل دابة تتحرك فى مأواها ، وتقعقع بلسانها ، عندما يمر احد على مقربة منها .. وبدت أخشاب ارض الحظائر لامعة كانها أرضية صالون .. وكانت اطقم العربات مصفوفة فى الوسط فوق عمودين ملتفين ،

بينما رتبت الأعنة والسياط والسلاسل فى خط مستقيم على طول الحائط ..

وفى تلك الأثناء ، ذهب « شارل » يرجو خادما أن يعد عربته التى كانت قد اقتيدت إلى المدخل .. حتى إذا حملت إليها الحقائب ، قدم الزوجان « بوفارى » تحياتهما إلى المركيز والمركيزة ، ثم استقلا العربة عائدين إلى (توست) .

❊ ❊ ❊

● راحت « ايما » ترقب فى صمت العجلات وهى تدور ، بينما كان « شارل » يقود العربة وقد جلس على حافة المقعد منفرج الذراعين ، والجواد الصغير يخب بين ذراعى العربة الخشبيتين ، والعنان المرتخى يضرب عجز الحصان فيبتل بالزبد ، بينما كان الصندوق الذى ربط خلف العربة يرتطم بجدارها فى ضربات منتظمة ..

وعندما وصلا إلى مرتفعات (تيبورفيل) ، مر امامهما فجأة عدد من الفرسان يتضاحكون ولفافات السيجار فى أفواههم .. وخيل لايما أنها تعرفت بينهم على « الفيكونت » فالتفتت ، غير انها لم تر فى الأفق سوى رؤوس تتحرك فى ارتفاع وانخفاض ، مع حركات الخيل فى عدوها وخببها ..

وما إن قطعا نصف الفرسخ حتى اضطرا إلى الوقوف ، كى يصلا بالحبال ما انقطع من « السير » الذى يربط الجواد إلى العربة .. وفيما كان « شارل » يلقى نظرة أخيرة على الطاقم بعد أن اصلحه . لمح بين أقدام الجواد — على

الأرض ـ حافظة سيجار من الحرير الأخضر المطرز ، يتوسطها شعار ينم عن أنها لشخص من ذوى الألقاب .. فقال : « إن بها سيجارين ، سأدخنهما بعد العشاء الليلة » .

فتساءلت « ايما » : « إذن فأنت تدخن ؟ »

قال : « أحيانا .. عندما تسنح فرصة لذلك ؟ »

ووضع « غنيمته » فى جيبه ، ثم هوى بسوطه على ظهر الجواد الذى اندفع بالعربة ..

ولم يجدا العشاء معدا حين بلغا دارهما ، فاحتدت « ايما » . ولما اجابتها الخادم « نستازى » فى قحة .. صاحت بها :

ـ اخرجى من هنا ! .. هذه وقاحة مشينة ! .. انت مطرودة من هنا !

وتحولت تعد العشاء بنفسها .. وكان يتكون من حساء بالبصل ، وقطعة من لحم العجول .. وجلس شارل أمام « ايما » يفرك يديه ويقول فى غبطة : « ما أمتع أن يعود المرء إلى داره ! »

وتناهى إليهما صوت « نستازى » وهى تبكى .. وكان « شارل » ينزل الفتاة المسكينة من نفسه منزلة طيبة ، إذ شاطرته الأمسيات الطويلة التى مرت به أيام حزنه ، كما كانت أول من عرفه من أهل المنطقة ، حين بدأ يمارس مهنته فيها .. فلم يلبث أن سأل زوجته : « أحقا طردتها ؟ » .

وردت « ايما » ، فى حنق : « اجل .. من يمنعنى من ذلك ؟ ! »

وبعد العشاء ، التمسا الدفء فى المطبخ ، حيث اخذ شارل يدخن وهو يمط شفتيه ويبصق فى كل لحظة، ويضطجع فى استمراء عند كل نفثة دخان ! .. فما لبثت « ايما » ان قالت له فى استهجان : « لسوف تؤذى نفسك » ! .. ومن ثم وضع السيجار جانبا ، ثم جرى إلى المضخة ـ « الطلمبة » ـ ينشد كوبا من الماء البارد .. وإذا ذاك تناولت « ايما » حافظة السيجار فقذفت بها فى قاع الصوان ..

* * *

● ولاح لها اليوم التالى طويلا ، فأخذت تتمشى فى حديقتها الصغيرة جيئة وذهابا ، متوقفة من آن إلى آخر أمام الأحواض او عرائش الكروم او تمثال القس المصنوع من الجص ، تتأمل فى دهشة هذه الأشياء القديمة التى ألفتها وعرفتها من قبل .. لكم لاحت لها ليلة الرقص بعيدة ! .. ترى منذا الذى اقام هذا الحاجز الكبير بين صباح أمسها ومساء يومها ؟ ! .. لقد تركت رحلتها إلى (فوبيسار) ثغرة فى حياتها كتلك الثغرات الواسعة التى تخلفها العاصفة فى الجبال احيانا ، فى ليلة واحدة !

على انها تقبلت الواقع فى استسلام ، وطوت فى وجوم ثيابها الجميلة داخل الصوان ، وبينها حذاءاها الحريريان ، وقد أصفر نعلاهما من اثر الشمع الذى كانت تنزلق عليه فوق

ارض حلبة الرقص ! .. تماما كما انطبع فى قلبها ــ بعــد احتكاكه بالثراء ــ اثر لا يزول !

وهكذا غدت ذكرى تلك الليلة الراقصة شغلها الشاغل ، فكانت ــ حين تستيقظ فى صباح الأربعاء من كل اسبوع ــ تهمس لنفسها : « آه ! .. لقد انقضى عليها اسبوع .. مضى اسبوعان .. مرت ثلاثة اسابيع .. مذ كنت هنــاك ! » .. وشيئا فشــيئا ، اخذت معالم الحفلــة تختلط وتتداخــل فى ذاكرتهــا ، فنسيت الحان الرقص ، ولم تعد تذكر الملابس والحجرات فى وضوح .. فقد ذهبت بعض التفصيلات .. وبقيت لها الحسرة !

●

الفصل التاسع

● كثيرا ما كانت « ايما » تسعى إلى الصــوان ــ إذا ما غادر «شارل» المنزل ـ فتخرج حافظة السيجار الحريرية الخضراء من ثنايا الثياب التى دستها بينها ، وتروح تتأملهــا ، وتفتحها .. بل إنها كانت تتنسم رائحة بطانتها التى جمعت بين العطر والتبغ ! .. ترى لمن كانت تلك الحافظــة ؟ .. اتراها كانت للفيكونت ؟ ! .. لعلهــا إذن هدية من عشيقته نسجتها وطرزتها على إطار من خشب الورد ، لتكون تحفة صغيرة يحتفظ بها بعيدا عن أعين الفضوليين جميعا!.. ولعل الحائكة الحالمة شغلت بصنعها ساعات طوالا ، كانت خصل من شعرها تتهدل خلالها على النسيج .. ولا بد أن نسمة من الحب سرت بين خيوط الرقعة ، والفتاة تثبت مع كل غرزة من إبرتها املا أو ذكرى ! .. كأن الخيوط الحريرية فى امتدادها وتقاطعها ، انعكاس لما كان فى فؤادها من هيام صامت ! .. حتى إذا فرغت منها فى النهاية ، حملها « الفيكونت » معه ! .. ترى فيم كان يدور الحديث حين كان يضع هذه الحافظة فوق المدفأة ذات الاطار العريض ، بين اصص الزهور وساعات « بمبادور » البندولية !

وكانت « ايمــا » ترتد من هــذا الحلم إلى التفـكير فى نفســها .. ها هى ذى فى (توســت) و « الفيــكونت » فى باريس .. بعيدا .. ترى كيف تكون باريس ؟ .. يا للاسم الضخم ! .. وراحت ترddه لنفسها هامسة ، وهى تستشعر

متعـــة فى تكراره ! .. كان يرون فى اذنيهـــا رنين ناقوس الكنيسة .. بل بدا كما لو كان يبعث شـــعاعا يترامى حتى يصل إلى البطاقات الصغيرة الملصقة على علب الدهـــان والمساحيق !

وكان صيادو السمك يمرون فىالليل تحت نوافذ الدار ، وهم يرددون أناشيدهم ، فكانت تستيقظ من نومها ، وتصغى إلى قرقعة العجلاتالحديدية حتى يتلاشى ضجيجها فىالنهاية ، بعد أن تبارح العربات البلدة .. وعنـــدئذ تحدث نفســـها قائلة : « لسوف يصلون إليهـــا غدا ! » .. وكانت تتابعهم بخيالها ، وهم يصعدونالربى ، ويهبطون الوهاد ، ويجتازون القرى ، وينسابون فى الطريق العريض الممتد تحت اضـــواء النجوم .. ولا تلبث ، بعد مسافة لا تدرى مداها ، ان تجد نفسها فى مكان غامض ينتهى عنده حلمها !

وابتاعت خريطة لباريس ، فكانت تتابع معالمها باصبعها وتقوم بجولات وهمية فى احيائهـــا : تســـير فى الشـــوارع الكبيرة ، وتقف عند الأماكن التى تتقاطع عنـــدها خطـــوط الشوارع أمام المربعات البيضاء التى تمثل المنازل .. حتى إذا كلت عيناها ، اطبقت جفنيها .. وإذ ذاك ، كانت تـــرى على صفحة الظلام صور المشاعل والرياح تعبث بالسنتها ، وابواب العربات إذ تفتح فى صخب أمام ابهاء المسارح !

واشتركت فى صحيفة « لاكوربى » ــ النسوية ــ ومجلة « سيلف » (اى « حوريات الصالونات ») ــ الاجتماعية ــ واخذت تلتهم ما كان ينشر فيهما ، دون ان تغفل كلمة من انباء

حفـلات العرض الأول للمسرحيـــات ، وحفلات الســـباق والسهرات .. وكانت تهتم بظهور مغنية جديدة ، أو بافتتاح متجر ! .. واخذت تتعرف على الأزيـــاء الحديثة ، وتحفظ عناوين امهر الحائكين والحائكات ، والأيام التى اعتاد المجتمع الباريسى ان يخرج فيها للنزهة فى الغابة ، او للســـهر فى الأوبـــرا .. وراحت تدرس فى « اوجين سويه » أوصـــاف الأثاث .. وقرأت لبلزاك وجورج صاند وهى تنشـــد اشباعا وهميا لمطامعها الشخصية ! .. وبلغ من شغفها هذا ، ان كانت تحمل كتابها معها إلى المائدة وتقلب صفحاته ، بينما يكون « شـارل » منهمكا فى الأكل والحديث .. وكانت ذكرى « الفيكونت » لا تفتأ تعاودها أثناء قراءاتها ، فتقارن بينهـــا وبين الشخصيات التى تصادفهـــا فى الروايات . على ان الدائرة التى كانت تحيط بشـــخصيته راحت تتسع شـــيئا فشيئا .. واخذت هالة الرواء ، التى احاطته بهـــا ، تفارقه رويدا لتمتد إلى مسافات ابعد ، حيث تضىء احلاما اخرى !

وهكذا باتت « ايما » ترى باريس اكثر اتســـاعا من المحيط ، وقد راحت تتألق امام عينيها فى جو قرمزى !

❋ ❋ ❋

● على أن الوان الحياة المصطخبة فى هـــذا الخضم ، كانت ــ عند « ايما » ــ مقسمة إلى اجزاء ، ومرتبة فى لوحات متباينة ... ولم تكن « ايما » تتبين من العوالم التى تضمها باريس سوى اثنين او ثلاثة تطغى على ما عداها ، كما لو كانت الإنسانية برمتها تتمثل فيها وحدها : دنيا السفراء ،

يخطرون فيها فوق أرض لامعة ، فى صالونات كسيت جدرانها بالمرايا ، ويجلسون حول موائد بيضاوية مغطاة بمفارش من المخمل المزركش بالقصب ! .. وفى هذا العالم أثواب ذات ذيول جرارة ، وأسرار خطيرة ، ومآس تختفى وراء الابتسامات ! .. ويلى ذلك ، عالم الدوقات .. حيث تكتسى الوجوه شحوبا ، ويستقيظ الرجال فى الساعة الرابعة ! .. وترتدى النساء — أولئك الملائكة المساكين — « جونلات » وشيت ذيولها بالنقوش المطرزة .. بينما يمتطى الرجال — أولئك الذين أوتوا كفايات مجحودة تتوارى خلف مظاهر تافهة — جيادهم ، ويندفعون بها ، حتى الموت فى سبيل التسلية ، ويذهبون إلى مصيف (باد) لقضاء فصل الصيف .. ثم يتزوجون فى النهاية — إذا ما بلغوا الأربعين — من النساء الوارثات !

.. وفى قاعات المطاعم التى تقدم العشاء بعد منتصف الليل ، يضحك — فى ضوء الشموع — جمهور مختلط الألوان من رجال الأدب والممثلات .. قوم مسرفون كالملوك ، تمتلىء نفوسهم بأنواع الطموح المثالى ، والهذيان الخارق ! .. وتختلف حياتهم عن حياة الآخرين ، فهى معلقة بين الأرض والسماء ، فى غمرة العواصف .. حياة فيها شىء من السمو !

أما ما عدا هذه من عوالم ، فقد كان فى نظر « ايما » مضيعا ، تائها ، لاى مكان له ولا وجود !

وكانت « ايما » من أولئك اللاتى يزهدن فى أقرب الأشياء اليهن .. فكلما قربت الأشياء منها ، ازدادت نفسها عنها

ازورارا .. فكل ما يحيط بها مباشرة : من ريف ممل ، وبورجوازية ضئيلة حمقاء ، وحياة زرية ... كل هذه كانت تلوح لها أشياء شاذة ، ومصادفات خاصة « تورطت » فيها .. بينما كان يمتد خلفها جميعا — وإلى ما لا نهاية — عالم اللذات والانفعالات !

واختلطت فى أحاسيسها لذات البذخ المادية بمسرات القلب ، ورقى العادات برقة المشاعر .. أفلا يحتاج الحب — كما تحتاج نباتات الهند — إلى تربة معينة ودرجة حرارة خاصة ؟ .. فالزفرات فى ضوء القمر ، والعناق الطويل ، والدموع التى تنهمر على الأيدى المستسلمة ، وحمى الجسد ، ورقة الحنان ... كل هذه أمور لا انفصال لها عن شرفات القصور الكبيرة المليئة بأوقات الفراغ ، ولا عن المخادع ذات الستائر الحريرية ، والطنافس السميكة ، وأحواض الزهور ، والأسرة المقامة على منصات مرتفعة عن سطح الأرض ، وبريق الأحجار الكريمة ، وأشرطة أزياء الخدم !!

* * *

● وكان السائس يفد كل صباح ليعنى بالفرس ، فيعبر المدخل فى حذاءيه الخشبيين الكبيرين — اللذين يضمان قدميه العاريتين — وسترته التى تتخللها الثقوب ، وسرواله القصير الذى لم تكن ثمة حيلة سوى الاكتفاء به ! .. فاذا انتهى من عمله ، انصرف إلى حيث لا رجعة له بقية النهار ، إذ أن « شارل » كان يتولى بنفسه — عند عودته — إيواء الفرس فى الحظيرة ، ورفع سرجها عنها ، بينما تحمل إليها الخادم حزمة من القش ترميها فى المذود كيفما اتفق !

وكانت « نستازى » قد غادرت (توست) أخيرا ، وهى تذرف الدمع مدرارا ، فاستعاضت « ايما » عنهـا بفتـاة فى الرابعة عشرة ، يتيمة ، مليحة القسمات . وحظرت عليهـا لبس « الطاقية » القطنية ، وعلمتها كيف تخاطبها فى احترام، ودربتها على ان تحمل كوب الماء فى طبق ، وان تطرق الباب قبل الدخول ، وان تكوى الثياب وتكسبها بالنشاء استواء ، وان تساعدها على ارتداء ثيابها .. كل ذلك لانها ارادت ان تجعل منها وصيفة لها !

واعتادت الخادم الجـديدة ان تطيع فى غير تذمر حتى لا تطرد ! .. وإذ كانت السيدة قد الفت ان تترك المفتاح فى « البوفيه » ، فان « فيليسيتيه » — الخـادم — كانت فى كل مساء تأخذ قطعة صغيرة من السكر لتأكلها ، حين تخلو إلى نفسها فى فراشها ، بعد أن تؤدى الصلاة ! .. اما فى الفترات التى كانت السيدة تلزم فيها مخدعها فى الطابق العلوى — بعد ظهر كل يوم — فكانت الفتاة تسعى احيـانا إلى السـياس الموجودين فى المبنى المواجه للمنزل فتجاذبهم الحديث !

وكانت « ايما » فى تلك الفتـرات ترتدى « روب دى شامبر » مفتوحا ، تكشف قلابات صدره العريضة عن صدار ذى ثنيات وثلاثة أزرار ذهبيـة ، يضم اطرافه حـول الخصر حزام كالحبل المجدول ، ينتهى بكرات كبيرة ذات «شرابات» .. اما قدماها ، فكانت تغيبهمـا فى خفين — « بانتوفلى » — فى لون الرمان ، تنتشر على سطحيهما اشرطة عريضة ..

وابتاعت أوراقا للكتابة ، واوراق نشاف ، وريشـة ،

ومظاريف وورقا للرسائل ، وإن لم يكن ثمة من تكتب إليه ! .. وكانت تنفض الغبار فى الرف ، وتتطلع فى المرآة ، ثم تتناول كتابا فلا تلبث ان تراودها الأحلام بين سطوره فتشغل عنـه ويسقط بين ركبتيها ! .. واخذت تتوق إلى القيام برحلات ، او إلى العـودة للـدير كى تعيش فيـه ! .. كانت تتمنى المتناقضات فى آن واحد .. ان تمـوت .. وان تعيش فى باريس !!

اما « شارل » ، فكان ينطلق على جواده خلال الطرق الفرعية — المفضية إلى المزارع والقرى — تحت المطر والجليد ، ياكل « العجة » على موائد الريف ، ويدس يديه فى الأسرة الرطبة التى يرقد فيها المرضى ، ويتلقى على وجهه رشـاش الدم الدافىء المنبثق من الفساد ، ويسمع الحشرجات ، ويفحص البطون ، ويرفع الثياب القذرة على اجسـاد المعلولين ! .. لكنه كان يجد فى كل مساء نارا مستعرة ، ومائـدة معدة ، واثاثا مريحا ، وزوجة فى ابدع زينة ، تتضـوع بأريج عطر كان يحار فى التكهن بمكانه : اهو قميصها ، ام بشرتها ؟ !

وكانت تفتنه بمبتكراتهـا ، التى كانت تتمثل حينـا فى مظلات جديدة من الورق تصنعها لتضعها فوق الشمعدانات ، وتتمثل حينا آخر فى ثنيـة تغير موضعهـا فى ثوبهـا ، او فى اسم مبتكر للون بسيط من الطعام اخفقت الخادم فى صنعه ، فلا يصد إخفاقها « شارل » عن التهـام الصنف حتى يأتى عليه !

ورات « ايما » فى (روان) سيدات يحطن ساعاتهن بعقود من الحلى الزائفة ، فابتاعت حليا زائفة ! .. ورات ان تزين رف مدفأتها بآنيتى زهور كبيرتين من الزجاج الأزرق ، لم تلبث أن ضمت إليها صندوقا من العاج لأدوات الحياكة ، و « كستبانا » من العقيق ! .. وكان « شارل » كلما ازداد عجزا عن فهم كنه أسباب تلك الأناقة ، ازداد انصياعا لسحرها ، إذ كانت تضفى على حواسه لذة ، وعلى داره رواء .. وكأنها غبار ذهبى ينتشر على طول طريق حياته الضيق !

وغدت صحته طيبة ، ووجهه مشرقا ، وشهرته مستقرة منيعة ! .. كان الريفيون يحبونه لأنه لم يكن متغطرسا ، بل كان يداعب أطفالهم ! .. ولم يكن يغشى الحانات .. وكان فى خلقه — فوق ذلك — ما يوحى بالثقة والطمانينة .. وقد نجح — بوجه خاص — فى علاج نزلات البرد والأمراض الصدرية ! .. والواقع أن « شارل » كان يخشى دائما ان يقتل مرضاه ، ولذلك لم يكن يوصى لهم إلا بالأدوية المهدئة للألم !! وكان يوصى — بين آن وآخر — بشراب مقيىء ، وبحمام القدم ، وباستخدام العلق (الدود) الذى يمتص الدم الفاسد ، وكان يسرف فى فصدهم بالعلق فى سخاء ، وكأنهم جياد ! .. أما فى اقتلاع الأضراس ، فقد كانت له قبضة حديدية !

* * *

● وحتى يظل على دراية بما يستحدث فى الطب ، اشترك فى مجلة « الخلية الطبية » بعد أن تسلم اعلانا عنها .



ثم تتناول كتابا ، فلا تلبث أن تراودها الأحلام بين سطوره ، فتنشغل عنه ويسقط بين ركبتيها

وكان يقرأ فيها بعض الوقت عقب العشاء ، ولكن دفء الغرفة ، والاسترخاء الذى يدب فى الجسم اثناء عملية الهضم ، كانا لا يلبثان ان يسلماه إلى النوم بعد خمس دقائق .. فيظل مسترخيا ، وذقنه معتمدة على يديه ، وشعره متهدل — كالعرف — حتى اسفل المصباح ، و « ايما » ترقبه ، ثم تهز كتفيها ! .. لماذا لم تحظ بزوج ولو من أولئك الذين يقضون الليل بين الكتب ، ويحملون فى النهاية — إذ ما بلغوا الستين ، سن « الروماتيزم » — وساما على شكل الصليب ، فوق بزاتهم السوداء ؟ .. لكم كانت تشتهى أن يغدو اسم « بوفارى » ذائعا ، وأن تراه معروضا عند باعة الكتب ، تردده الصحافة ، وتعرفه فرنسا بأسرها !

بيد أن « شارل » لم يكن يعرف الطموح أبدا !

ولقد حدث ان اهانه يوما طبيب من (ايف تو) — اجتمع معه للتشاور — امام فراش مريض ، وعلى مسمع من اقاربه المحيطين بهما ، فلما روى الحادث لايما فى المساء ، ثارت فى حنق على ذلك الزميل إلى درجة جعلت « شارل » يتأثر بالفعل ، ويقبلها فى جبينها وهو دامع العينين .. ولكنها كانت تغلى لفرط احساسها بالخزى لما ناله ، حتى لقد ودت لو تضربه ! .. ولكنها لم تملك إلا ان تسير إلى الردهة فتفتح النافذة لتعب الهواء العليل حتى تهدأ ثورتها .. واخذت تعض شفتها وتردد فى صوت خفيض : « ياله من رجل مسكين ! .. يا له من رجل مسكين ! » .

والواقع أن ثورتها كانت ضد زوجها بالذات .. فلقد

اخذت حركاته وتصرفاته تغلظ بتقدم السن .. كان يلهو — عند تناول الحلوى — بتقطيع سدادات الزجاجات الفارغة .. وكان بعد الأكل يلعق اسنانه بلسانه .. كما كان يرشف الحساء بصوت منكر .. ولما كانت البدانة قد اصابته ، فان وجنتيه المنتفختين دفعتا بعينيه الصغيرتين إلى اعلى نحو الصدغين !

وكانت « ايما » تسوى له اطراف صداره الحمراء فى بعض الأحيان ، وتصلح من وضع رباط عنقه ، او تطوح جانبا بقفازين قذرين يهم باستعمالها .. والواقع انها لم تكن تفعل ذلك من اجله — كما كان يخال — وإنما كانت تفعله من اجل نفسها ، وبدافع من اثرتها وتوتر اعصابها ! .. وكانت تحدثه احيانا عن شىء مما تقرأ ، كفقرة من رواية أو مشهد من مسرحية جديدة او حادث من انباء الطبقة الراقية المنشورة فى الصحف .. فقد كانت ترى انه — على اية حال — إنسان ، له اذن تسمع باستمرار .. وله استعداد للموافقة دائما على ما يسمع ! .. بل إنها كانت تبوح باسرارها لكلبها .. ولحطب المدفأة ، وبندول الساعة !!

وكانت فى هذه الأثناء كلها لا تنى تنتظر فى اعماق نفسها حدثا ما ! .. كانت ، كالملاح المكروب ، تسرح ببصرها القانط فى وحشة حياتها ، بحثا عن شراع ابيض فى ضباب الأفق البعيد ! .. وما كانت تدرى كنه ذلك الحدث ، ولا اى ريح ستسوقه إليها ، ولا إلى اى شاطىء سيدفعها .. وهل هو زورق ، او سفينة ذات ثلاثة طوابق .. وهل يكون مفعما

بالأسى ، أو طافحا بالهناءة ! .. ولكنها كانت إذا استيقظت فى كل صباح تمنت لو يواتيها فى يومها .. كانت تنصـت لكل صوت ، وتقفز ناهضة تستجليه ، ثم تشعر بصدمة لأن شيئا لم يحدث ! .. فاذا جنحت شمس اليوم للمغيب ، اشتد بها الأسى ، وراحت تتمنى لو تعجل الغد وأقبل !

ووفد الربيع مرة اخرى ، فغشيتها انقباضات من موجات الحر الأولى التى تهب حين تزهر اشجار الكمثرى .. حتى إذا بدا شهر يوليو ، اخذت تعد الأسابيع على اصابعها فى ارتقاب شهر اكتوبر ، راجية ان يقيم « المركيز دى اندفيلييه » حفلا راقصا آخر فى (فوبيسار) ! .. بيد ان شهر سبتمبر انصرم عن آخره دون ما خطابات أو زيارات !

* * *

● واحست مرة اخرى - بعد انقضاء المرارة التى خلفتها خيبة الرجاء - بفراغ فى فؤادها .. وبدات من جديد سلسلة الأيام المتشابهة الرتيبة ، التى لا تتغير ، ولا تأتى بجديد ! .. لقد كان يصادف حياة سواها - مهما تكن هذه الحياة خاوية مملة - حدث من الأحداث يتيح لها فرصة الخروج عن المألوف .. ولقد تؤدى مغامرة واحدة - احيانا - إلى سلسلة لا تنتهى من الأحداث التى تغير إطار الحيـاة .. اما هى ، فلم يكن يصادفها شىء .. كما لو كانت تلك هى إرادة الله ! .. كان المستقبل يمتد امامها كسرداب مظلم ينتهى بباب محكم الاغلاق !

واهملت الموسيقى .. فلمـاذا تعزف ، ومنذا الذى يسمعها ؟ ! .. لم يكن ثمة ما يدعو إلى بذل الجهد فى المران ،

ما دامت لن تستشعر همس النشوة يتصاعد حولها كالنسيم وهى تمس بأناملها الرقيقة مفاتيح « البيانو » العاجية فى حفل عام ، وقد ارتدت ثوبا من المخمل قصير الكمين ! .. كذلك ابقت لوحـات الرسـم وقطع التطريز فى الصـوان .. إذ ما جدواها ؟ .. واى نفع منهـا ؟ .. اما الحياكة ، فقـد اصبحت تثير اعصابها ! .. حتى القراءة ، انصرفت عنها قائلة لنفسها : « لقد قرات كل شىء ! » .

واخذت تضع الملاقط فى النار لتحركها فتسهو عنها حتى تحمر .. وترقب المطر وهو يتساقط بنظرات جـوفاء ! .. ولشد ما كان يجتاحها الأسى إذا ما دق الناقوس لصلاة المساء فى يوم الأحد ! .. كانت تصغى بذهن شارد إلى دقات الجرس المشروخ وهى تتتابع .. بينما يخطر على سطح المبنى القائم فى مواجهتها قط احنى ظهره لأشـعة الشمس الشاحبة .. والريح تثير غيوما فوق الطريق الرئيسية .. وقد ينبعث من بعد نباح احد الكلاب والناقوس مسترسل فى دقاته المملة ، يرسلها فى إيقاع رتيب ، فلا تلبث ان تتلاشى فوق الحقول ..

ثم يخرج الناس من الكنيسـة : النسـاء فى احذية لامعة ، والرجال فى أقمصة جديدة ، يتقدمهم الأطفال يقفزون ورؤوسهم عارية .. ويأوى الجميع إلى منازلهم فيما عدا خمسة رجال او ستة ، كانوا دائما يظلون - حتى يهبط الليل - امام الحانة يمارسون لعبة الفلين !

* * *

● ثم أقبل الشتاء قارسا ، وأخذ الجليد يكسو زجاج النوافذ فى كل صباح ، فيبدو — إذ يخترقه الضوء — كالزجاج « المصنفر » .. وفى ذلك الجو المتجهم ، كان لابد من اضاءة المصابيح منذ الساعة الرابعة بعد الظهر ..

وكانت « ايما » تهبط إلى الحديقة فى الأيام الرائقة ، فاذا الندى قد خلف فوق الكرنب وشيا من الفضة ، تتخلله خيوط طويلة شفافة تمتد من كرنبة إلى اخرى .. ولم تكن شقشقة العصافير تتردد ، بل كان كل شىء يبدو مخلدا إلى النوم ، والعرائس مكسوة بالقش ، والكروم تمتد — كثعبان كبير مريض — تحت اقبية الجدران ، حيث يرى الإنسان — إذا ما اقترب — الخنافس وهى تزحف ! .. وإلى جوار السياج من ناحية غابة الصنوبر كان تمثال القس ذى القلنسوة ماضيا فى قراءة كتاب الصلوات ، وقد فقد قدمه اليمنى ، بينما عبث الصقيع بطلائه فخلف على وجهه قرحا بيضاء !

ولا تلبث « ايما » أن تصعد إلى مخدعها فتغلق الباب ، وتبسط الوقود ، حتى ترسل المدفأة حرارة تخدرها ، وتبعث فى نفسها مللا تخاله ثقلا فادحا يجثم على صدرها ، فتود لو هبطت لتأتنس بالحديث مع الخادم ، لولا أن يمنعها الحياء !

وفى ساعة معينة من كل يوم ، كان ناظر المدرسة ذو الطاقية الحريرية السوداء يفتح نوافذ منزله .. ويمر حارس الحقول حاملا سيفه فوق قميصه .. وكانت خيل البريد تعبر الشارع — فى الصباح والمساء — ثلاثة ، ثلاثة ، تسعى إلى البركة لترتوى .. ومن وقت إلى آخر ، يصلصل جرس باب احدى الحانات .. فاذا هبت الريح ، انبعث

صرير من اللافتات النحاسية المعلقة على جانبى حانوت الحلاق ، الذى كانت كل زينته تتمثل فى صورة الصقت على لوح من زجاج النافذة ، وتمثال نصفى من الشمع لامرأة ذات شعر اصفر زاه . وكان صاحب هذا الحانوت يندب — هو الآخر — موهبته التى تعطلت ، ومستقبله الذى ضاع .. ويحلم بحانوت فى بلد كبير مثل (روان) ، يقوم إلى جوار المسرح ، مطلا على الميناء ! .. وكان يقضى نهاره يتمشى جيئة وذهابا بين دار البلدية والكنيسة ، يرتقب العملاء فى اكتئاب .. فكلما اطلت مدام « بوفارى » الفته فى سيره هذا كديدبان فى نوبته ، وقد ارتدى سترة العمل التى لا يغيرها ، وقلنسوة يونانية !

وكان يبرز — فى اويقات العصر احيانا — راس رجل وراء زجاج البهو .. راس لفحته الشمس ويزينه شاربان اسودان ، وقد اخذت اساريره تنفرج فى تؤدة عن ابتسامة عريضة عذبة تكشف عن اسنان بيضاء .. ثم تبدأ رقصة — على نغمات « الفالس » المنبعثة من ارغن يديره الرجل — فى صالون دقيق صغير ، لا يتجاوز كل راقص فيه حجم الاصبع ! .. راقصون بينهم نساء بعمائم وردية ، ورجال من ابناء « التيرول » فى معاطفهم التقليدية ، وقردة فى ملابس سوداء ، ورجال فى سراويل قصيرة .. يدورون ويدورون بين المقاعد الوثيرة والارائك والموائد ، وتنعكس حركاتهم مرارا فى مرايا التصق بعضها إلى بعض بشريط من ورق مذهب . وكان عازف الأرغن يدير يد الآلة وهو يجيل بصره يمنة ويسرة ، ثم يتطلع إلى النوافذ .. وكان يرفع آلته — من

وقت إلى آخر ـ بركبته ، بعد أن تعيى كتفه حمالتها الغليظة ، وهو يرسل قذائف طويلة من بصاق بنى اللون على أحجار الطريق .. والموسيقى الحزينة المتباطئة — تارة — والمرحة السريعة — تارة أخرى — تنبعث من صندوقه خلال ستارة من « التافتاه » وردية اللون ، علقت بمشجب نحاسى ذى زخرف عربى .. وكانت هذه الموسيقى بالذات تعزف فوق المسارح ، او فى الصالونات حيث يدور الرقص على وقعها فى السهرات ، وتحت الثريات المتلألئة .. فكانت بمثابة أصداء تصل إلى « ايما » من المجتمعات الراقية التى تهفو إليها ! .. وفى مخيلتها ، كانت تتتابع مواكب راقصة لا تكاد تنتهى ! .. وكان تفكيرها يقفز مع النغمات ـ كالراقص فوق بساط من زهور ـ متنقلا من حلم إلى حلم .. ومن شجن إلى شجن !

وكان الرجل — بعد أن يتلقى فى قلنسوته ما يجود به اهل الشارع من صدقات ـ يطرح فوق الأرغن غطاء قديما من الصوف الأزرق ، ثم يحمله على ظهره وينصرف فى خطى ثقيلة .. و « ايما » ترقبه وهو يبتعد !

وكان جلدها يغدو اقرب ما يكون إلى النفاد والانهيار فى أوقات الوجبات ، فى تلك القاعة الصغيرة بالطابق الأرضى ، حيث الموقد الذى لا ينفك عن ارسال الدخان ، والباب الذى يبعث صريرا ، والجدران المنداة ، والأرضية الرطبة .. كان يخيل لها إذ ذاك أن مرارة الحياة بأسرها تخالط طعامها ! .. ومع بخار الحساء ، كانت تتصاعد من أعماق روحها نفثات من الإعياء والضيق ! .. ولما كان « شارل » بطيئا فى الأكل ، فقد كانت تنفق الوقت فى قرض بندقة ، أو تعتمد بمرفقيها

على المائدة وتتسلى برسم خطوط بسن سكينها على المفرش !

واصبحت تهمل كل شىء فى دارها .. فلما اقبلت مدام «بوفارى» الأم إلى (توست) لتقضى بضعة أيام اثناء الصوم، راعها هذا التغير . فإن « ايما » ، التى كانت فيما مضى شديدة العناية بنفسها ، حريصة على اناقتها ، أصبحت تمكث اياما بطولها دون أن ترتدى ملابس زينتها ، وهى تروح وتغدو فى جوربين رماديين من القطن .. كما اصبحت تقتصر على استخدام الشموع فى اضاءة البيت ، مرددة أن لابد من الاقتصاد لانهم ليسوا من اهل الثراء ! .. وكانت تضيف إلى هذا انها سعيدة كل السعادة ، راضية كل الرضا ، وأن (توست) تروق لها .. وامثال هذه العبارات الجديدة التى كانت تغلق فم حماتها عن اللوم !

على أن « ايما » أضحت — إلى جانب ذلك — تبدى عدم استعداد لتقبل ارشادات حماتها ! .. وقد حدث مرة ان بدا لمدام « بوفارى » الأم أن تشير إلى أن من واجب المخدومين ان يعنوا بمراقبة احترام الخدم لشعائر الدين ، فأجابتها « ايما » بنظرة تتقد غضبا ، وابتسامة تفيض برودا ، مما حدا بالسيدة إلى ان تكف بعد ذلك عن كل احتكاك بها !

واصبحت « ايما » حادة المزاج ، كثيرة النزوات ، غريبة الاطوار .. فهى تطلب الوانا معينة من الطعام ثم لا تقربها .. وقد تصر يوما على ان لا تتناول سوى اللبن الصافى ، ثم تقبل فى اليوم التالى على عشرات من اقداح الشاى ! .. وكانت تقرر أحيانا عدم الخروج ، فتضيق

انفاسها وتفتح النوافذ ثم ترتدى ثوبا خفيفا ! .. وكانت تعنف مع الخادم ، ثم لا تلبث أن تسترضيها بالهدايا ، او ترسلها للنزهة لدى الجيران ! .. كذلك كانت أحيانا تقذف للفقراء بجميع ما فى كيسها من نقود فضية ، رغم انها لم تكن يوما رقيقة القلب ولا سهلة التأثر بانفعالات الآخرين !

***

● وحوالى نهاية شهر فبراير ، حمل الأب « روو » — بنفسه — إلى صهره ديكا روميا بديعا ، رمزا لذكرى شفائه . واقام فى (توست) ثلاثة ايام . وإذ كان « شـــارل » فى تلك الاثناء مشغولا بمرضاه ، فقد بات على « ايما » وحدها عبء مصاحبته ، فامضها منه انه كان يدخن فى الغرفة ، ويبصق فى المدفاة ، ويتحدث عن الزراعة والعجول والأبقـــار والدجاج والمجلس البلدى .. حتى لقد عجبت من نفســـها إذ احســـت بشعور من الارتياح يداخلهـــا حين اغلقت البـــاب خلفه عقب رحيله ! .. والواقع انها لم تعد تتحرج من ان تبدى احتقارها لشىء او ازدراءها لأحد .. وكانت تصـــدر عنها احيانا آراء غريبة ، فتنتقد ما يرضاه الناس ، وتحبذ أمورا لا تستقيم مع الأخلاق ، الامر الذى كان يترك زوجها مذهولا !

وكانت لا تفتأ تسائل نفسها : أيلازمها هذا البؤس ابد السنين ؟ ! .. او ليس هناك من مخرج ؟ ! .. إنها لا تقل عن اولئك اللائى يعشـــن فى ســـعادة .. بل لقـــد رات فى (فوبيسار) دوقات أسوا منها قواما ، واقل رقة وتهذيبا ! .. واخذت تسخط على ظلم الأقدار .. وتســـند راســـها إلى الجدران لتبكى ! .. كانت تحسد اولئك الذين يحظون بحياة

صاخبة ، ويقضون الليالى فى حفلات تنكرية ، وينعمون بتلك اللذات العنيفة التى تثير سماعها فى نفسها مشاعر لا تدرك كنهها !

ومال لونها إلى الشحوب ، واضطربت دقات قلبهـــا ، فأعطاها « شارل » دواء يهدىء أعصابها ، ووصف لهـــا حمامات الكافور .. ولكن محاولاته لم تزدها إلا هياجا ! .. وكانت فى بعض الأيام تثرثر فى فيض محمـــوم ، ثم لا يلبث ان يعقب هذا الانطلاق ركود مفاجىء ، لا تنطق خـــلاله بلفظ ، ولا تأتى بحركة .. ولم يكن ينعشها إذ ذاك سوى زجاجة من ماء « الكولونيا » تسكبها على ذراعيها !

وإذ اخذت تشكو من (توست) بلا انقطاع ، فقد حدس « شارل » أن مرضـــها ناشىء عن سبب محلى ، ورسخ فى نفسه هذا الراى ، حتى أنه اخذ يفكر جديا فى ان يبحث عن بلد آخر يقيمان فيه ..

ثم عمدت إلى شرب الخل لتزداد نحافة ، فأصـــيبت بسعال بسيط جاف ، وفقدت شهيتها إلى الطعام تماما ! .. وكان يعز على « شـــارل » ان يرحـــل عن (توست) بعد اقام بها اربع سنوات توطد خلالها مركزه .. ولكنه مع ذلك لم يلبث ان خضع لأحكام الضرورة ، عندما صحبها إلى أستاذه القديم فى (روان) ، فتبين — بعد ان فحصها — انها تعـــانى من مرض عصبى ، لا بـــد لعـــلاجه من ان تبدل الجـــو الذى تعيش فيه !

واخذ « شارل » يتحرى هنا وهناك ، حتى علم ان فى مقاطعة (نيوشاتل) قرية كبيرة تسمى (ايونفيل ــ الدير) غادرها طبيبها ــ وكان من البولنديين اللاجئين ــ منذ اسبوع ، فكتب إلى صيدلى القرية يسأله عن عدد سكانها ، وعن المسافة التى تفصلها عن أقرب قرية بها طبيب ، وعن الدخل الذى كان يصيبه سلفه فى العام .. الخ . ووجد فى الرد ــ حين جاءه ــ ما ارضاه ، فقرر ان ينتقل إلى تلك القرية فى الربيع التالى ، إذا ظلت صحة « ايما » دون ما تحسن !

وفيما كانت « ايما » تستعد للسفر ، أصيب أحد اصابعها بوخزة من سلك باقة زواجها ، وهى ترتب أحد الادراج ذات يوم . كانت براعم البرتقال ــ فى الباقة ــ قد اصفرت لفرط تراكم الغبار عليها ، واخذت الأشرطة الحريرية ذات الحواف الفضية تنسل .. ولم تحجم « ايما » عن إلقاء الباقة فى نار المدفأة ، فاذا بها تشتعل بأسرع مما يشتعل القش الجاف .. وما لبثت النيران أن التهمتها ، فراحت تتقلص ببطء وقد تفجرت حبيبات الورق المقوى ، والتوت الأسلاك ، وانصهرت الأشرطة المعدنية ، وتيبست أوراق الزهر الصناعى .. ثم اخذت اشلاؤها تتراقص فوق اللهب كالفراش الأسود .. وما لبثت ان تطايرت خلال المدفأة !

وعندما غادر الزوجان (توست) فى شهر مارس ، كانت مدام « بوفارى » حاملا !!

- ٢ -

الفصل الأول

● اخذت قرية (ايونفيل ــ الدير) هذا الاسم عن دير قديم للرهبان الكابوشيين ، لم يتبق منه حتى الأطلال .. وتبعد تلك القرية ثمانية فراسخ عن (روان) ، وتقع بين طريق (آبفيل) وطريق (بوفيه) ، عند نهاية واد يرويه نهر (الريبول) .. وهو فرع صغير يصب فى نهر (الانديل) بعد ان يدير ثلاث طواحين قامت بالقرب من مصبه . وبه بعض السمك من نوع « البلطى » يصيده الغلمان بالشص فى ايام الآحاد .

فاذا ترك المرء الطريق الرئيسية عند (بواسيير)، مضى فى طريق مستوية حتى يصل إلى أعلى هضبة (لو) ، حيث يشرف على الوادى .. ويشق هذا الوادى نهر يشطره إلى قسمين مختلفى المعالم .. فالشطر الممتد على الضفة اليسرى كله مراع ، فى حين ان الشطر المترامى على الضفة اليمنى كله حقول .. وتمتد المراعى تحت سياج من التلال المنخفضة حتى تتصل فى اقصاها بمراعى مقاطعة (بريد) ، بينما يصعد السهل فى رفق من الناحية الشرقية ، ثم يأخذ فى الاتساع .. وتمتد على مرامى البصر حقول القمح الشقراء ، والماء يجرى فى خط ابيض يفصل بين المروج من ناحية ، والأرض المزروعة من ناحية أخرى .. وكان المنظر ــ فى مجموعه ــ عباءة كبيرة بسطت امامك ياقتها التى صنعت من مخمل أخضر حف بشريط من فضة .

وعند نهاية الأفق ، تبدو للرائى أشجار البلوط فى غابة (ارجى) ، ومرتفعات هضبة (سان جان) ، تتخللها — فى خطوط تمتد من اعلى إلى أسفل — مسارب طويلة حمـراء غير متساوية من آثار المطر .. اما اللون الأحمـر الذى يميز هذه الخطوط الدقيقة خلال لون الجبل الرمادى ، فناشىء عن توفر مادة الحديد ، التى تفيض بها العيون العديدة المتناثرة فى المنطقة المحيطة .

هناك تقع الحدود الفاصلة بين (نورمانديا) و (بيكاردىا) و (ليل دى فرانس) .. مقاطعة تضم سكانا من عناصر شتى ، ولا تمتاز لغتها بلهجة خاصة ، كما لا تمتاز مناظرها بطابع خاص ! .. وهناك ايضا تصنع أردا انواع الجبن الذى يصنع فى مقاطعة (نيوشاتل) باسرها .. فضلا عن أن الزراعـة فى هذه المنطقة تتطلب نفقات باهظة ، لانها تحتاج إلى كثير من الأسـمدة لتخصب تلك التربة الهشـة المليئـة بالرمل والحصى .

ولم يكن فى هذه المنطقة — حتى سـنة ١٨٣٥ — طريق ممهد يفضى إلى (ايونفيل) . بيد أن طريقا ريفيا فرعيا انشىء فى ذلك العام ، فوصل بين طريقى (ابفيـل) و (اميـان) ، واصبحت تجرى عليه أحيانا عربـات النقل الذاهبـة من (روان) إلى (الفلاندر) ..

* * *

● على أن (ايونفيل — الدير) ظلت على حالهـا ، بالرغم من الاصلاحات الجديدة . فبدلا من أن ينشط اهلها

لتحسين الزراعة بها ، ظلوا متشبثين بالمراعى على انخفاض دخلها وقيمتها . واخذت القرية الكسول تنفصل بالطبيعة عن السهل ، وتتبع فى اتساعها مجرى النهر ، حتى أن الرائى يلمحها عن بعد راقدة على طول النهر ، كقطيع من البقـر يقيل على حافة المـاء !

وفى نهاية جسر مقام على النهر — فى أسفل الهضبة — يمتد طريق تحف بجانبيه أشـجار الحور الصغيرة ، يفضى بك مباشرة إلى طليعة منازل القرية .. وهى بيوت تحيط بها أسوار ، وقد اقيمت وسط ساحات تناثرت فيهـا المعاصر ومخازن العربات ومعامل التقطير ، تحت الأشجار المتشابكة التى تستند إليهـا سـلالم متنقلة ، او تعلق باغصانهـا (الخطاطيف) والمناجل ..

وكانت الأسقف المصنوعة من القش تشبه طاقيـات الفراء المنزلقة على عيون لابسيها ، إذ كانت تكاد تخفى ثلث النوافذ المنخفضة ، التى كان زجاجهـا السميك المحدودب يتجمع عند وسطه فى عقدة كقاع الزجاجة .. وعلى الجدران المشيدة من الجص ، والتى تمتد بين زواياها المتقابلة أعمـدة خشبية سوداء ، كنت ترى أحيانا شـجرة من شـجيرات الكمثرى الهزيلة .. وعند الباب الخارجى لكل دار ، كان ثمة حاجز به باب منخفض ليصد الدجاج الذى يتسلل إلى عتبة البيت لالتقاط فتات الخبز المنقوع فى نبيذ التفاح ! .. وكلما تقدمت فى السير نحو القرية ، صغرت افنية الدور ، وتقاربت المبانى واختفت الحواجز بينها .. وقد ترى هنا حزمة من نبات « السرخس » تهتز فى نهاية عصا مكنسة تحت احدى

النوافذ .. وهناك حانوت بيطار ، أو محل نجار سدت الطريق أمامه عربتان أو ثلاث عربات جديدة .. وعبر مسافة من الفضاء يلوح بيت أبيض تمتد امامه رقعة معشوشبة يزينها تمثال « كيوبيد » وإحدى أصابعه على شفتيه .. وإلى جانبى قمة الدرجات الأمامية آنيتان من النحاس .. وعلى الباب تلمع لافتتان تنمان عن ان هذا بيت موثق العقود .. اجمل بيوت البلدة !

وعلى الجانب الآخر من الشارع ، وعلى بعد عشرين خطوة، تقوم الكنيسة عند مدخل الميدان ، تحيط بها مقبرة صغيرة ، يحتضنها سياج فى ارتفاع صدر الإنسان ، وقد اكتظ بالقبور حتى اصبحت الأحجار القديمة فى مستوى الأرض ، تؤلف فيما بينها رصيفا طويلا ، امتدت الحشائش خلاله تقسمه إلى مربعات .. وكان مبنى الكنيسة قد جدد فى عهد شارل العاشر ، فاخذ سقفها الخشبى يبلى عند قمته .. وفى المكان المخصص للأرغن — فوق الباب — اقيمت شرفة للرجال ، تؤدى إليها سلم حلزونية تهتز تحت وقع الأقدام فى نعالها الخشبية !

وكان الضوء الذى ينفذ خلال الزجاج غير الملون يسقط فى انكسارات على المقاعد المصفوفة بطول الجدران التى زينت — هنا وهناك — بحصائر من القش كتب عليها بحروف ضخمة « مقعد السيد فلان » . وعلى مسافة قليلة ، يضيق دهليز الكنيسة ، ثم يقوم كرسى الاعتراف إلى احد الجانبين ، وإلى الجانب الآخر تمثال للعذراء فى ثوب من الحرير ، وعلى رأسها

نقاب من التل مرصع بنجوم فضية ، وقد طليت وجنتاها باللون الأحمر كما لو كانت وثنا من أوثان جزر « سندويتش » !! .. واخيرا ، تطل على المذبح المرتفع صورة « الأسرة المقدسة — مهداة من وزير الداخلية » ، بين اربعة شمعدانات . أما مقاعد المرتلين المصنوعة من خشب الصنوبر ، فقد ظلت بلا طلاء !

* * *

● وكانت السوق — أو بالأحرى السقف المصنوع من الآجر والمقام على عشرين عمودا تقريبا — تشغل حوالى نصف الميدان العام فى « ايونفيل » .. اما دار البلدية — التى شيدت وفقا لرسم اعده مهندس من باريس — فكانت تشبه معبدا إغريقيا ، وترسم مع حانوت الصيدلى شكل زاوية . وكانت فى الطابق الأرضى ثلاثة أعمدة يونانية .. وفى الطابق الأول بهو نصف دائرى تعلوه قبة يشغلها تمثال « ديك الغال » ، وقد اعتمد على ساق استقرت على وثيقة الدستور، بينما أمسك بقدمه الأخرى ميزان العدالة !

على ان اكثر ما كان يسترعى الانتباه، هو صيدلية السيد « هوميه » التى تقع فى مواجهة فندق « الأسد الذهبى » .. لا سيما فى المساء حين يضاء المصباح فيرسل اشعته خلال القوارير الكبيرة الحمراء والخضراء، ثم يبعث عبر الشارع جدولين من الضوء الملون .. وخلال هذا الضوء كان طيف الصيدلى وهو متكىء إلى مكتبه يبدو كما لو كان غارقا فى اضواء الصواريخ ! .. وكانت داره مكسوة باعلانات كتبت

بخط اليد أو بالحروف الكبيرة أو بحروف الطباعة : « مياه فيشى ، وسلترد ، وباريج .. ومنقيات الدم .. وعقار راسبيل .. والمزيج العربى .. و « باستيليا » دارسيه .. وبلسم رينيو .. واربطة .. وكمادات .. وشيكولاته » .. الخ . وفى مؤخرة الحانوت ، وخلف النضد الذى حمل الميزان الكبير كانت كلمة « المعمل » تبدو على باب زجاجى تكرر على وسطه اسم « هوميه » بحروف ذهبية ، فوق رقعة سوداء !

ولم يكن ثمة ما يشاهد فى « ايونفيل » عدا ذلك ، فان الشارع الأوحد — الذى لم يكن طوله يتجاوز مرمى المقذوف النارى والذى تقوم الحوانيت على جانبيه — كان لا يلبث أن ينتهى عند منعطف الطريق الزراعى .. فاذا خلفه المرء وانحرف إلى اليمين فى محاذاة منحدر هضبة (سان جان) ، وصل إلى المقابر .. وكان القوم ، عندما تفشت «الكوليرا» ، قد هدموا جانبا من جدارها ، وضموا إليها بضعة أفدنة لتوسيعها ، بيد ان القطعة الجديدة بقيت شبه خالية ، وظلت القبور تتكدس على مقربة من الباب ، كما كانت الحال من قبل . وقد استغل الحارس — الذى كان فى الوقت ذاته شماسا ، مما مكنه من مضاعفة الإفادة من موتى الابروشية — بقاء هذه الأرض على حالها ، فراح يستنبت البطاطس فيها . بيد ان حقله الصغير اخذ يضيق سنة بعد أخرى ، إلى ان تفشى الوباء ، فلم يعد يدرى : أيبتهج لكثرة المرضى ، أم يحزن لامتداد المقابر ؟ ! .. ولقد قال له القس يوما : «انك تعيش على الموتى يا لستيبودوا» ، فحملته هذه الملاحظة الكئيبة على التفكير ، وصدته زمنا عن حقله .. ولكنه ما زال حتى اليوم — (أى حتى كتابة هذه

القصة) — يواصل زراعة بطاطسه ، بل ويزعم فى صفاقة انها تنمو من تلقاء ذاتها !

ولم يتغير شىء فى «ايونفيل» منذ الأحداث التى سنرويها .. فما زال العلم ذو الألوان الثلاثة ، والمصنوع من الصفيح ، يدور فوق برج الكنيسة .. وما زالت ترفرف على متجر الأقمشة رايتان من البفتة .. والأجنة التى يحتفظ بها الكيميائى محنطة كحزم الصوفان الأبيض آخذة فى التحلل يوما بعد يوم فى كحولها المعكر ! .. وما زال تمثال الأسد الذهبى الحائل اللون يجثم على الباب الأمامى للفندق ، يطالع المارة بلبده الشبيه بفروة الكلب !

* * *

● وفى المساء الذى كان مقدرا أن يصل فيه « بوفارى » وزوجته إلى « ايونفيل » ، كانت الأرملة « لوفرانسوا » — صاحبة الفندق — كثيرة المشاغل إلى حد أن العرق أخذ ينضح منها فى قطرات كبيرة وهى تروح وتغدو بآنية المطبخ ! .. كان اليوم التالى هو يوم السوق ، ولا بد من أن تقطع اللحم مقدما ، وتنظف الدجاج ، وتعد الحساء والقهوة . كما كان عليها — فوق ذلك — ان تجهز للنزلاء غداءهم ، وأن تعد للطبيب وزوجته وخادمهما العشاء .. وكانت تتردد فى قاعة « البلياردو » ضحكات صاخبة . وفى غرفة الجلوس ، كان ثمة ثلاثة من الطحانين يصيحون فى طلب الخمر ! .. وكانت النار تتأجج فى خشب الموقد ، والآنية النحاسية تئز فوقها بعد ان بدأت محتوياتها فى الغليان . وعلى مائدة المطبخ الطويلة ،

وبين قطع اللحم الكبيرة النيئة ، تكدست أكوام من الأطباق كانت تهتز باهتزاز اللوحة التى كانت « السبانخ » تتقطع فوقها .. ومن فناء المبنى كانت تنبعث صيحات الدجاج الذى كانت الخادم تطارده لتمسك به وتدق أعناقه !

ووقف بجوار المدفأة — يدفىء ظهره — رجل على وجهه بقايا طفيفة من آثار الجدرى، وقد ارتدى خفين أخضرين وقلنسوة من المخمل ذات « شرابات » ذهبية .. ولم يكن وجهه ينم عن شىء اللهم إلا الرضاء عن نفسه ، وقد بدا أنه يطمئن إلى الحياة طمأنينة طائر الشرشر الصداح حين يدس رأسه بين قضبان قفصه .. كان ذلك الرجل هو : الصيدلى !

وعلى حين غرة ، صاحت السيدة صاحبة الفندق : « أرتميز .. شقى بعض الخشب ، واملئى الدوارق ، وأحضرى بعض الخمر ، وايقظى حواسك .. آه ، لشد ما أنا حائرة فى اختيار حلوى أقدمها بعد العشاء للضيوف الذين ترتقبهم يا مسيو هوميه ! .. يا للسماء الرحيمة ! .. هاهم الحمالون يستأنفون ضوضاءهم فى غرفة « البلياردو » بعد أن تركوا عربتهم أمام الباب ! .. أن « العصفورة » — (اسم عربة) — قد تصطدم بها إذا ما جاءت ، فادعوا بوليت لتقودها إلى الحظيرة .. تصور يا مسيو هوميه أنهم لعبوا نحو خمسة عشر دورا منذ الصباح ، وشربوا ثمانى قنينات من نبيذ التفاح ! .. إنهم يوشكون أن يمزقوا كساء منضدة البلياردو »!

وأخذت تتأملهم عن كثب ، بينما أجاب السيد هوميه : « لن يكون الضرر كبيرا ، فانك مسوقة حتما إلى شراء غيرها » !

فهتفت الأرملة مأخوذة : « منضدة أخرى للبلياردو ؟ » .

— أجل ، إذ أن هذه أوشكت أن تتداعى يا مدام « لوفرانسوا » .. إننى أكرر ما قلت من قبل ، فإنك تؤذين نفسك أبلغ إيذاء ! .. ثم أن اللاعبين يطلبون الآن جيوبا ضيقة وعصيا ثقيلة للبلياردو ، لأن الهواة لم يعودوا يقبلون على البلياردو الفرنسى الآن .. لقد تغير كل شىء ! يجب أن يجارى المرء الزمن ! .. ألا انظرى إلى تلبيه ! » .

واحمر وجه صاحبة المنزل استياء ، بينما استطرد الصيدلى : « لك أن تقولى فيه ما شئت ، ولكن « بلياردة » خير من « بلياردك » ، ولو أن أحدا فكر فى أن ينظم مباراة من أجل إغاثة بولندا ، أو ضحايا الفيضان فى ليون ! .. » .

فقطعت عليه صاحبة المنزل حديثه قائلة ، وهى تهز كتفيها السمينتين : «ان الصعاليك أمثاله لا يزعجوننى.. على رسلك يا مسيو هوميه ! .. لسوف يفد الناس على فندق « الأسد الذهبى » طالما ظل على قيد الوجود .. ليس لدينا ما يدعو إلى القلق ، فى حين أنك لن تلبث أن ترى فندق « المقهى الفرنسى » يوما مغلقا ، وقد سمرت أبوابه » ! .. واستأنفت وكأنها تحدث نفسها : « أغير « بلياردى » ! .. المائدة التى أعتمد عليها فى طى الغسيل ، والتى هيأت فوقها فراشا لستة نزلاء فى موسم الصيد ! .. ولكن ذلك المتسكع « هيفير » لم يصل بعد .. » .

— أو ترجئين تقديم العشاء لنزلائك حتى وصوله ؟

— وهل أملك هذا ؟.. ماذا يفعل السيد بينيه ؟.. ما إن تشرع الساعة فى اعلان السادسة حتى تراه مقبلا ، فليس له مثيل تحت الشمس فى دقة المواعيد ! .. ولا بد من ان يكون مقعده معدا فى قاعة الجلوس الصغيرة ، فانه يؤثر الموت على ان يتناول العشاء فى اى مكان آخر .. وهو حريص على الدقة، شديد العناية باختيار شرابه ! فهو ليس مثل كالسيد ليون الذى يفد احيانا فى السابعة ، بل وفى السابعة والنصف ، ولا يكاد يأبه لما يقدم إليه من طعام .. ما أظرفه ! .. إنه ما تلفظ مطلقا بكلمة نابية ! » .

— لا اشك فى انك تدركين ان ثمة فارقا شاسعا بين الرجل المثقف وبين جندى متقاعد اصبح يعمل محصلا !

* * *

● ودقت الساعة مؤذنة بالسادسة ، فدخل « بينيه ».. كان يرتدى « ردنجوت » أزرق يستوى على جسده الناحل فى استقامة ، وقلنسوة جلدية ثبتت إلى راسه برباط ، وقد بدا تحت حافتها المرفوعة جبين عريض ، خلفت كثرة ارتداء الخوذات اثرا عليه ! .. وكان يرتدى كذلك صدارا اسود وياقة من الفرو وسروالا رماديا .. ثم حذاءين بالغى النظافة ، ينتقل بهما طوال العام ، وقد برز فى جانبيهما نتوءان يشيان بموقعى اصبعى قدميه الكبيرتين! .. ولم تكن ثمة شعرة واحدة فى سوالفه تشذ عن النظام ! .. وقد كانت هذه السوالف تستطيل إلى فكيه على نمط العشب الذى يحيط بالحديقة ،

محتضنة وجهه الجامد الطويل، ذا العينين الصغيرتين والأنف المعقوف .. وكان بارعا فى جميع الألعاب ، ماهرا فى الصيد ، ذا خط جميل ، كما كان يملك مخرطة يصنع عليها حلقات مشاجب المناشف التى كان يحتفظ بها فى غيرة الفنان وانانية الثرى ، الحديث الثراء ، حتى ملأ بها بيته !

ويمم شطر قاعة الجلوس الصغيرة ، ولكن .. كان لا بد من إخراج الطحانين الثلاثة منها اولا ! .. وظل بينيه صامتا فى مقعده القريب من المدفاة طيلة الوقت الذى استغرقه اعداد المائدة ، حتى إذا تم ذلك ، اغلق الباب وخلع قلنسوته جريا على عادته !

وما ان خلا الصيدلى إلى صاحبة المنزل ثانية ، حتى بادر قائلا : « ما كان إلقاء التحية لينقص شيئا من لسانه ! » .

فأجابته : « إنه لا يتكلم قط أكثر مما تدعو إليه الضرورة. لقد كان لدينا فى الأسبوع الماضى نزيلان من تجار الاقمشة .. وكانا مرحين ، ظلا يرويان لنا فى المساء من الفكاهات ما جعلنى ابكى من كثرة الضحك .. بينما كان هو قابعا كالسمكة ، فلم ينبس قط ببنت شفة » !

قال الصيدلى : « اجل .. لا خيال ، ولا فكاهة ، ولا شىء مما يكون رجل المجتمع » .

فقالت محتجة : « ومع ذلك ، فانهم يقولون ان له اصدقاء ومجالس » !

— مجالس ! .. مجالس ! .. من المحتمل ان تكون على شاكلته !

وما لبث أن استطرد قائلا : « اننى ادرك ان التاجر ذا الصلات الواسعة ، والقنصل ، والطبيب، والصيدلى، يجدون من اعمالهم ما يشغلهم ويلهيهم ، حتى ليبدو الواحد منهم غريب الأطوار ، او جافا .. ان التاريخ حافل بقصص هؤلاء . ولكن المهم ان عذرهم فى هذا راجع إلى ان لديهم ما يشغل تفكيرهم .. فأنا مثلا كثيرا ما ابحث عن قلمى على المكتب لأدون تذكرة ، فلا البث ان اتبين فى النهاية اننى وضعته خلف أذنى! .. » .

وفى تلك اللحظة ، سارت مدام «لوفرانسوا» إلى الباب لترى إذا كانت العربة المرتقبة ــ « العصفورة » ــ مقبلة .. ولكنها اجفلت إذ ولج المطبخ فجاة رجل فى ثياب سوداء .. وكان فى وسع المرء أن يتبين على ضوء آخر فلول الغسق ، ان له وجها متوردا ، وجسما رياضيا .

وسألته ربة المنزل وهى تتناول من فوق المدفأة احد الشمعدانات النحاسية التى كانت مصفوفة وقد ثبتت فيها الشموع : « أية خدمة املك أن اؤديها لك يا سيدى القس .. هل لك فى تناول شراب ما ؟ .. جرعة من نبيذ « كاسى » الأسود ؟ .. أو زجاجة من النبيذ الأحمر ؟ ! » .

وهز رجل الدين رأسه فى أدب بالغ ، وقال انه جاء من اجل مظلته التى نسيها منذ أيام فى دير « ايرنمو » . وبعد أن سأل مدام « لوفرانسوا » أن تعمل على ارسالها إليه فى دار «الخورى» فى المساء، انصرف إلى الكنيسة التى كان ناقوسها يدق مؤذنا بصلاة المساء .

ما إن اطمأن الصيدلى إلى انه لم يعد يسمع وقع قدمى

القس فى الميدان ، حتى ابدى رايه فى مسلكه فوصفه بانه ناب ! .. فقد بدا رفضه ــ فى راى الصيدلى ــ ابغض الوان الرياء ، إذ ان كل القساوسة يحتسون الخمر فى الخفاء ، ويحاولون ان يستعيدوا الأيام التى كانت الكنيسة تتقاضى فيها الضرائب من رعاياها !

وانبرت صاحبة النزل تدافع عن القس قائلة : «انه رغم قولك يستطيع ان يطوى أربعة من أمثالك على ركبته ! .. لقد ساعد رجالنا على تخزين العشب الجاف فى العام الماضى ، فبلغ من قوته انه كان يحمل ستا من الحزم فى آن واحد » ! ..

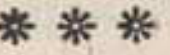
فهتف الصيدلى : « مرحى ! .. ارسلوا بناتكم اذن ليعترفن امام رجال من هذا الصنف ! .. لو اننى كنت فى مركز الحكم لأمرت بأن يفصد دم القساوسة مرة فى كل شهر .. اجل يا مدام لوفرانسوا .. فى كل شهر .. وفصدا جيدا ، فى سبيل مصلحة البوليس والأخلاق » !!

ــ كف عن هذا يا مسيو هوميه ، فانت كافر ، لا دين لك!

فأجاب الصيدلى : «بل لى دين .. دينى الخاص .. وإن لدى من التقوى ما يفوق ما لدى هؤلاء الآخرين جميعا ، رغم نفاقهم ودجلهم .. اننى على العكس أعبد الله .. أؤمن بالكائن الأعلى .. اؤمن بوجود خالق ، كيفما يكن كنهه .. ومهما يكن هذا الخالق الذى اوجدنا هنا لنؤدى واجباتنا كمواطنين وارباب اسرات .. ولكنى فى غير حاجة لأن اذهب إلى الكنيسة لأقبل اطباقا فضية ، ولأسمن من مالى رجالا لا يصلحون لشىء ولا نفع منهم ، ويحظون بمعيشة انعم مما

نحظى ! .. ان المرء ليستطيع ان يهتدى إلى الله فى غابة ، او فى حقل ، او حتى بمجرد تأمل قبة الأثير ، كما كان القدماء يفعلون ! .. ان الهى هو اله سـقراط وفرنكلين وفولتير وبيرانجيه ! .. إننى من انصار الايمان الذى دعا إليه « قس سافوا »(١) .. ومن المؤمنين بمبادىء ثورة سنة ١٧٨٩ الخالدة ! .. ولا استطيع ان اعبد إلها مزعوما ، يسير فى حديقته وعصاه فى يده ، ويودع اصدقاءه اجواف الحيتان ، ويموت صارخا ، ثم يبعث بعد ثلاثة ايام ! .. هذه جميعا — فى حد ذاتها — سخافات، تناقض تماما كل قوانين الطبيعة .. وفى هذا ما يوضح لنا — ضمنا — كيف ان القسس ظلوا دائما متشبثين بجهل صلد لا يلين ، يحاولون ان يدفنوا البشر معهم فى جوفه » !!

وامسك عن الكلام ، واجال بصره فيما حوله وكأنه يتأمل جمهورا يحيط به .. فقد ظن الصيدلى فى انفعاله انه فى قاعة المجلس البلدى ! .. على ان ربة النزل لم تكن تنصت إليه ، بل اصاخت بسمعها تحاول ان تستبين صوتا انبعث عن بعد ، اختلطت فيه ضوضاء العجلات بسنابك حديدية تضرب الأرض .. وما لبثت « العصفورة » ان وقفت أمام الباب أخيرا !



(١) يشير الى فصل فى كتاب « اميل » لجان جاك روسو ، وفيه يقود القس تلميذه اليافع الى اعلى جبال « سفوا » ليحدثه عن الله والايمان ، فى غمرة من جلال الطبيعة .

وما لبثت « العصفورة » ان وقفت أمام الباب أخيرا !

● كانت « العصفورة » تتكون من صندوق أصـــفر يقوم على عجلتين كبيرتين يصل محيطاهما إلى مســـتوى سقفه ، فيحولان بين المسافرين ورؤية الطريق ، ويلطخان اكتافهم بالقاذورات ! .. وكان زجاج نوافـــذها الضـــيقة يهتز فى إطاراته إذا ما اغلقت ابوابها .. فضلا عن انها كانت ملطخة — هنا وهناك — ببقع من الوحل استقرت على طبقة من غبار قديم لم تستطع امطار العواصف أن تزيلها تماما .. وكان يجرها ثلاثة جياد ، ربط أولها أمام زميليه .. وعند انحدارها من المرتفعات ، كان قاعهـــا يمس الأرض فيرتج ارتجـــاجا شديدا .

واقبل على الميدان عدد من اهالى « ايونفيل » ، اخذوا يتكلمون معا فى آن واحد : يتساءلون عن الأخبار ، ويستفسرون عن سلال الهدايا . ولم يكن «هيفير» — السائق — يدرى أيهم يجيب، أولا ، فقـــد كان هو المنـــوط بقضاء حوائج القـــرية من (روان) ، وكان يطوف بالحوانيت يجلب لفـــات الجلد لصانع الأحذية ، والحديد للبيطار ، وبرميـــل « الرنجـــة » لمخدومته — ربة النزل — والقبعات من صانعها ، والشعور المستعارة من الحلاق .. وكان يوزع الحزم على طول الطريق وهو عائد ، فيقف على مقعده ويقذف بها من فوق الأسوار صائحا بملء فيه ، والخيل ماضية !

وكان تأخره فى العودة راجعا إلى حادث بسيط ، فقد هربت كلبة مدام « بوفارى » فى الحقول ، فقضوا ربع الساعة يصفرون لها .. بل ان « هيفير » رجع مسافة نصف الفرسخ

أملا فى العثور عليها ، متوهما فى كل لحظة أنه قد لمحها ! .. وبكت « ايما » ، وسخطت ، واتهمت « شارل » بأنه كان السبب . وقد حاول السيد « ليريه » — تاجر الأقمشة الذى كان يرافقهما فى العربة — أن يواسيها ، فضرب لها أمثلة بكلاب ضاعت ثم « اهتدت » إلى أصحابها بعد سنوات طويلة! .. بل لقد روى لها ما سمعه عن كلب عاد إلى باريس من القسطنطينية ! .. وعن كلب آخر قطع خمسين ميلا فى خط مستقيم ، وعبر أربعة أنهار سباحة ! .. وتمادى فذكر لها أن أبـــاه كان يملك كلبا فقـــده اثنى عشر عاما ، ثم فوجىء به يقفز على ظهره ذات مساء ، وهو فى طريقه لتناول العشاء فى المدينة !!

———— ● ————

الفصل الثانى

● كانت « ايما » اول من هبط من العربة ، وتبعتهـا « فيليسيتيه » ، فالسيد « ليريه » ، فمرضعة .. واضطروا إلى أن يوقظوا « شارل » الذى كان قد استسلم فى ركنه لنوم عميق ، مذ أرخى الليل سدوله !

وقدم « هوميه » نفسه ، مزجيا احتراماته للسيدة ، وتحياته للسيد ، معربا عن شدة اغتباطه إذ أتيح له ان يؤدى لهما بعض الخدمات .. واضاف فى لهجة الصديق انه قد تجرا فدعا نفسه لتناول العشاء معهما ، إذ ان زوجته غائبة عن البلدة !

وعندما دلفت مدام « بوفارى » إلى المطبخ ، اقتربت من الموقد ، وامسكت بثوبها عند الركبتين بأطراف أناملها فرفعته حتى حاذى ذيله عرقوبيها، ثم مدت قدميها بحذاءيهما الاسودين نحو اللهب ، فوق « الفخذة » التى كانت تئز ، فاذا اللهب يضىء كل كيانها ، ويتغلغل نوره فى نسيج ثوبها ، ومسـام جلدها البض الأملس ، بل وفى جفون عينيها اللتين اخـذت تغمضهما من وقت لآخر ! .. ودفعت الريح المتسللة من الباب المنفرج وهجا دائما هب عليها .. وكان ثمة شاب أشقر يرقبها فى صمت من الجانب الآخر للمدفأة .

كان السيد « ليون ديبوى » ــ الشاب الأشقر ــ ثانى النزلاء الدائمين فى « الأسد الذهبى » ، وقد اعتاد ان يؤخر تناول عشائه فى كل مساء على امل ان ينزل بالفندق مسافر

يستطيع ان يجاذبه الحديث ، إذ اشتد به السأم فى « ايونفيل » حيث كان يعمل كاتبا لدى الأستاذ «جويومان» موثق العقود.. غير انه لم يكن يملك ــ إذا ما فرغ مبكرا من عمله ــ سوى ان يعود إلى الفندق ، ومن ثم يضطر إلى مصاحبة « بينيه » طوال العشاء . لهذا رحب مغتبطا فى تلك الليلة باقتراح ربة الفندق ان يتناول عشاءه فى صحبة القادمين فى القاعة الكبرى، حيث افتنت مدام « لوفرانسوا » فى اعداد المائدة لأربعـة اشخاص !

وابدى « هوميه » رجاءه فى ان يسمحوا له بأن يظـل مرتديا طاقيته الإغريقية خشية « الانفلونزا » ، ثم التفت إلى جارته قائلا : « لا ريب فى أن السيدة متعبة فان « عصفورتنا » ترج المرء رجا » .

واجابت « ايما » : « هذا حق ، بيد أن السفر يلذ لى ، فانا احب التنقل من مكان لآخر ! » ..

وتنهد كاتب الموثق قائلا : « من ابشع ما يسقم النفس ان يظل المرء مرتبطا بمكان واحد » ! .. فسأله « شارل » : « وماذا كنت تفعل لو انك كنت مثلى مضطرا إلى امتطاء جوادك دائما ؟ » .. فأجاب ليون وهو يتجـه بحديثـه إلى مـدام « بوفارى » : « ولكنى لا ارى شيئا أمتع من هذا ، لو كان فى إمكان المرء .. » .

وهنا قال الصيدلى : « على ان ممارسة الطب ليست بالغة المشقة فى هذا الجزء من العالم ، إذ ان طرقنا تسـمح باستخدام العربات .. ولما كان المزارعون فى حالة من اليسر،

فانهم يدفعون بسخاء عادة ! .. ومن الناحية الطبية لدينا — فضلا عن الحالات العادية كالتهاب الأعصاب والنزلات الشعبية والأمراض الناشئة عن الصفراء ... الخ — بعض الحميات المتقطعة التى تظهر من وقت إلى آخر فى موسم الحصاد . وبالاجمال ليس لدينا من الحالات الخطرة سوى القليل ، وليس ثمة أحوال خاصة تستدعى الانتباه اللهم إلا كثرة الأمراض الناشئة عن غدد الرقبة ، وهى كثرة مرجعها بلا شك إلى سوء الحالة الصحية فى منازل الفلاحين .. آه ، لسوف تضطر يا سيد « بوفارى » إلى مكافحة كثير من المعتقدات الفاسدة والعادات المتأصلة التى ستصطدم بها مجهوداتك العلمية فى كل يوم .. فهم ما زالوا يلجأون إلى الرقى والتمائم ، وإلى القس ، بدلا من أن يسلكوا الطريق الصحيحة فيأتوا إلى الطبيب أو الصيدلى ! .. على أن الطقس ليس رديئا عندنا فى الحق ، حتى انك لتجد فى المقاطعة افرادا فى الحلقة التاسعة من اعمارهم ! .. وقد خرجت من ملاحظاتى بأن درجة الحرارة تهبط فى الشتاء إلى الرابعة المئوية . اما فى موسم الحر فترتفع إلى خمس وعشرين أو ثلاثين درجة مئوية على الأكثر .. اى ما لا يتجاوز اربعا وعشرين درجة بميزان « ريومير » ، أو — بعبارة اخرى — ٥٤ درجة بميزان « فهرنهيت » الإنجليزى ! .. والواقع اننا فى مأمن من رياح الشمال — من ناحية — بفضل غابة (ارجى) ، ومن الرياح الغربية — من الناحية الأخرى — بفضل هضبة (سان جان) .. وفضلا عن هذا ، هناك الحرارة الناشئة من ابخرة الماء المتصاعدة من النهر ، ومن الماشية الكثيرة التى تنطلق

فى المراعى وترسل — كما تعلم — الكثير من النوشادر — (الأمونيا) — او بالأحرى النيتروجين والهيدروجين والاوكسجين .. لا ، بل النيتروجين والهيدروجين فقط ، ومن ثم تمتص رطوبة الأرض ، وتخلط جميع هذه العناصر الغازية معا ، وتوحدها فى حزمة — إذا صح هذا القول — ثم تتحد مع الكهرباء المنتشرة فى الفضاء إذا ما وجدت ، فلا تلبث بمضى الزمن أن تولد أبخرة عفنة ، كما يحدث فى البلاد الحارة ! .. هذه الحرارة المتولدة كما ذكرت تجد تلطيفا تاما من حيث تنبعث ، أو بالاحرى من حيث ينبغى ان تنبعث — فى أى مكان من الناحية الجنوبية — بفضل الرياح الجنوبية الشرقية التى تصل إلينا باردة — بعد ان ترطب نفسها بالمرور فوق (السين) — وكأنها نسمات من روسيا ! » .

وفى ذلك الوقت كانت « ايما » تواصل حديثها مع الشاب قائلة : « .. على انك ولا بد تجد مجالا للنزهة .. فى البقاع المجاورة على الأقل » .

واجاب الشاب : « انها جد قليلة .. فهناك مكان يسمونه (لاباتير) — أى المرعى — على قمة التل عند حافة الغابة .. وإليه اسعى احيانا ، فى ايام الآحاد ، فأمكث فى صحبة كتاب حتى اشهد مغيب الشمس » .

قالت معقبة : « ما احسب ان هناك ما هو ابدع من غروب الشمس ، وخاصة عند شاطىء البحر » .

فهتف مسيو ليون : « آه اننى اعبد البحر ! » .

— ثم ، الا ترى أن الذهن يكون اكثر تحررا فى الفضاء الذى لا حد له ، والذى يسمو تأمله بالنفس ، ويوحى بأفكار عن اللانهاية .. والخيال المثالى ؟

— كذلك حال المناظر الجبلية .. فان لى ابن عم سافر إلى سويسرا فى العام الماضى ، وحين عــاد قال لى ان المرء لا يستطيع ان يتصور ما فى البحيرات من شاعرية ، وما فى مساقط المياه من سحر ، وما للأنهار من اثر هائل فى النفس .. فالمرء يرى هناك اشجار الصنوبر التى لا يتصور العقل حجمها ، عبر الممرات التى حفرتها السيول .. والأكــواخ معلقة على حواف الوهاد .. وتحت قدمى المرء بألف قدم ، تبدو — إذا ما انقشعت السحب — وديان فسيحة .. مثل هذه المناظر ولا ريب تحرك المشاعر ، وتبعث الشوق فى النفس إلى العبادة والتأملات السامية .. ومن ثم لم اعد اعجب من ذلك الموسيقى المبرز الذى اعتاد ان يوقف إلهامه بان يجلس لوضع موسيقاه أمام منظر رائع يسيطر على المشاعر !

فسألته : « وهل تعزف شيئا من الموسيقى ؟ » .

— لا ، ولكنى جد مشغوف بها ..

وقطع «هوميه» الحديث إذ قال وهو ينحنى على طبقه : « آه ! .. لا تلقى إليه سمعا يا مدام « بوفارى » .. هــذا مجرد تواضع .. كيف يا عزيزى وقد كنت منــذ ايام تغنى « الملاك الحارس » فى إبداع يملك الحواس ؟ .. لقد سمعتك من المعمل ، فاذا بك تؤديها كما لو كنت مغنيا محترفا ! » .

وبالفعل كان ليون يســكن حجرة صغيرة فى الطــابق الثانى من منزل الصيدلى تطل على الميدان .. وتضرج وجهه لثناء صاحب البيت ، الذى كان قد تحول إلى الطبيب واخذ يحصى له أهم سكان « إيونفيل » ، واحدا واحدا ، ويروى له تفصيلات ، ونوادر .. فمثلا لم يكن ثمة من يعــرف على وجه التحديد ثروة موثق العقود ، كما كان « آل تونــاش » يظهرون فى افخم مظهر ! .

وعادت « ايما » تقول : « واى موسيقى تؤثر ؟ » .

— آه .. الموسيقى الالمانية .. تلك التى تسلمك إلى الأحلام !!

— وهل ذهبت إلى الأوبرا ؟

— لم اذهب بعد ، ولكنى سأفعل فى العام التــالى ، حين اسافر إلى باريس لأتم دراسة القانون ...

وقطع الصيدلى الحديث مرة اخــرى قائلا : « انكما ستجدان — بفضل فرار ذلك المسكين « يانودا » وبفضــل حماقاته — ان بوسعكما ، كما تشرفت بشرح الأمر للســيد زوجك ، أن تستمتعا ببيت من افضل بيوت « ايونفيل » .. وابدع ميــزاته بالنســبة لطبيب هى أن له بابا يفضى إلى الحارة ، يستطيع المرء ان يلج وان يخرج عن طريقه دون ان يراه احد . كما انه مستوف لكافة الاحتياجات المنزلية : من حجرة للغسيل ، ومطبخ الحقت به غرفة للتحضير ، وقاعة للجلوس ، وبستان للفواكه .. الخ ، فلقــد كان صاحبه فتى

مسرفا ، لا يقيم وزنا للمال ، وقـد اقام فى نهاية الحديقة ، بجوار المـاء ، خميلة ليحتسى فيها « البيرة » فى ليالى الصيف .. وإذا كانت السيدة تهوى فلاحة البساتين ، ففى وسعها .. » .

وإذ ذاك قال « شارل » : « إن زوجتى لا تحفل بهذه الاعمال .. ومع انه اشير عليها بالرياضة والحركة ، إلا انها تؤثر ان تقضى الوقت فى غرفتها تقرا ! » .

فقال « ليون » : إنها مثلى .. فاى شىء اجمل فى الواقع من ان يقضى المرء المساء مع كتاب إلى جوار المدفاة ، والريح تلفح زجاج النافذة والمصباح يشتعل ؟ » .

قالت « ايما » وهى تحدق فيه بعينيها السوداوين الواسعتين : « اليس كذلك ؟ » .

ومضى يقول : « ان المرء لا يفكر فى شىء إذ ذاك .. والساعات تمر متلاحقة ونحن ننتقل — دون ان نتحرك من مكاننا — بين بلدان نخال اننا نراها .. وافكارك تختلط بالخيال لترسم الدقائق ، ولتوضح لك معالم المغامرات .. إنها تندمج فى الشخصيات حتى لتخال ان قلبك هو الذى ينبض تحت ثيابها ! » .

قالت : « هذا حق ! .. هذا حق ! » .

واستأنف « ليون » الحديث قائلا : « او لم يحدث لك قط ان عثرت فى كتاب على فكرة مبهمة كانت قد راودتك .. او على صورة معتمة تعود إليك من آفاق بعيدة وكانها تعبر

من ادق احاسيسك ؟ » .. فاجابت : « لقد شعرت بهذا فعلا » .

قال : « هذا هو السر فى اننى احب الشعراء ، فإنى اجد الشعر اكثر رقة من النثر .. إنه يشجى المرء بسهولة حتى يبكيه ! » .

قالت « ايما » : « على ان الشعر لا يلبث مع طول الوقت ان يثير السأم .. اننى الآن أهيم — على العكس — بالقصص التى تبهر الأنفاس ، وتثير الخوف .. واكره الأبطال العاديين ، والمشاعر المعتدلة ، على نحو ما نرى فى الطبيعة !! » .

قال الكاتب : « الواقع اننى ارى ان هذه الكتب — التى لا تمس القلب — تنحرف عن الغاية الحقيقية للفن . ما اعذب ان ينتقل المرء بفكره من مضايقات الحياة ليجول بفكره مع شخصيات نبيلة ، وعواطف خالصة ، وصور للسعادة . إننى — إذ اقيم هنا بمنأى عن الدنيا — اجد فى هذا ملهاتى الوحيدة .. بيد ان (ايونفيل) لا تتيح للمرء سوى موارد قليلة من هذا القبيل ! » .

فردت « ايما » قائلة : « انها ولابد مثل (توست) ، ومن ثم اشتركت فى مكتبة تعير الكتب » .

وسمع الصيدلى كلماتها الاخيرة فقال : « هل للسيدة ان تشرفنى بالافادة من مكتبتى الخاصة .. إن لدى — تحت تصرفها — مكتبة تضم خيرة المؤلفين ، مثل ، فولتير ، وروسو ،

ودوليل ، وولتر سكوت، وصحيفة «صدى الأدب» .. الخ .
كما اننى اتلقى صــحفا كثيرة ، بينهـــا « منـــــار روان »
اليومية ، إذ اننى مراســلها فى منـــاطق بوشى ، وفورج ،
ونيوشاتل ، وايونفيل وما حولها » .

* * *

● وانقضت عليهم حـــول المـــائدة ساعتان ونصـــف
الساعة، إذ كانت الخادم « ارتميز » تحضر طبقا بعد آخر فى
بطء وهى تجر خفيها فى كسل فوق البلاط ، وقد غفلت عن كل
شىء ، واخذت فى كل مرة تنسى إغلاق باب حجرة البليياردو ،
فيرتطم بالجدار ..

وكان « ليون » قد وضع قدمه على احد قضبان مقعد
مدام « بوفارى » ـــ أثناء الحديث ـــ دون أن يشـــعر ! ..
وكانت «ايما» تلف حول عنقها وشاحا حريريا أزرق صغيرا ،
يشد ياقة « مكشكشـــــة » مجعدة من « الباتيستة » . وكان
الجزء الأسفل من وجهها يغوص برفق فى ذلك الوشـــاح أو
يرتفع عنه ، تبعا لحركات رأسها ! .. وبينما كان « شارل »
والصـــيدلى يثرثران ، اندمج الشـــابان ـــ اللذان تجاور
مقعداهما ـــ فى أحـــد تلك الأحـــاديث المبهمة التى تقودك
العبارات خلالهـــا دائما إلى مركز ثابت تلتقى عنده الميـــول
والمشـــاعر .. فتحدثا عن مســـارح باريس ، وعناوين
القصص ، وأنواع الرقص الحديثة ، والمجتمع الذى لم يكونا
يعرفانه ، و (توســـت) التى كانت « ايما » تقيم فيهـــا ،
و (ايونفيل) حيث كانا إذ ذاك .. وتناقشـــا حتى نهـــاية
العشاء فى كل موضوع خطر لهما !

وبعد أن قدمت القهوة ، ذهبت « فيليسيتيه » لتعـــد
المخدع فى المنزل الجديد . وما لبث الضيوف أن نهضوا بعد
قليل ، فاذا مدام « لوفرانسوا » قد اغفت على مقـــربة من
النار المحتضرة ، بينما كان السائس فى انتظـــار الســـيد
« بوفارى » وزوجته ، وهو يحمل مصباحا ليرشدهما إلى
منزلهما ، وقد علقت بشعره بعض اعواد القش واخذ يعرج
بقدمه اليسرى ! .. وشرعوا فى الانصراف عندما حمل بيده
الأخرى مظلة القس .

وكانت البلدة قد نامت ، واعمدة السوق تلقى ظلالا كبيرة
على الأرض الرمادية ، كما كانت تبدو فى ليالى الصيف ..
وإذ كان بيت الطبيب لا يبعد عن الفندق بأكثر من خمســـين
خطوة ، فان القوم سرعـــان ما تبادلوا تحية الوداع ، ثم
انفضوا ..

وما إن ولجت « ايما » الردهة حتى احست برطوبة
الجص تهبط على كتفيها كقطعة مبتلة من قماش .. وكانت
الجدران جديدة ، وللدرجات الخشبية صرير .. وفى المخدع ـ
بالطابق الأول ـــ كان ثمة ضوء يميل إلى البياض ، ينفـــذ
خلال النوافذ التى لم تحجبها ستائر .. ولاحت لها رؤوس
الأشجار ومن خلفها الحقـــول تكاد تتوارى فى أحضـــان
الضباب الذى انتشر فى ضوء القمر على طول مجرى النهر ..
وفى وسط الحجرة ، تناثرت فى غير نظام ادراج الدواليب ،
والزجاجات ، وقضبان الستائر ، وعصى من المعدن المطلى ..
وعلى المقاعـــد كانت ثمـــة حشايا ، وعلى الأرض اوان

وأوعية .. فقد ترك الرجلان اللذان حملا الأثاث كل شىء فى غير ترتيب ..

تلك كانت المرة الرابعة التى تنام « ايما » فيها فى مكان لم تالفه .. كانت المرة الاولى يوم التحقت بالدير ، والثانية يوم انتقلت إلى (توست) ، والثالثة فى (فوبيســـار) .. وهاهى ذى الرابعة ! .. وكانت كل مـــرة بدايـــة لمرحلة جديدة .. ولم تعتقد ان الامور تجرى على وتيرة واحدة فى كل مكان .. وإذ كان الشطر الذى عاشته من حياتها سيئا ، فقد وقر فى نفسها أن الشطر الباقى سيفضله !

———— ● ————

الفصل الثالث

● عندما استيقظت « ايما » فى اليوم التـــالى ، لمحت كاتب الموثق يســـير فى الميدان .. وكانت فى ثـــوب المنزل (الروب دى شامبر) . ورفع الشاب رأسه إليها محييا ، فردت بايماءة سريعة ، واغلقت النافذة ! .. وقضى «ليون» نهاره كله فى ارتقاب الساعة السادسة .. ولكنه حين ولج الفندق لم يجد سوى السيد « بينيه » يجلس إلى المـــائدة !

كان عشاء الليلة السالفة مناسبة هامة فى نظره ، إذ لم يقدر له قبل ذلك ابـــدا أن يقضى ســـاعتين متتاليتين فى الحديث مع « سيدة » ، فكيف إذن وسعه ان يكلمها بمثل تلك اللغة ، وعن كل تلك الأمور التى لم تكن — من قبل — يجيد التعبير عنها على هذا النحو ، وهو الذى كان فى العادة خجولا ، يلتزم ذلك التحفظ الذى يجمع بين الحياء والتكتم فى آن واحد !؟ لقد كان أهـــل « ايونفيل » يعتبرونه « حســـن التربية » ، إذ كان ينصت للكبار حين يتكلمون ، ولم يكن يبدو مصابا بالهوس السياسى ، وهـــذه خلة هامة بالنسبة لأى شاب ! .. فضـــلا عن انه كان موهوبا ، يرسم بالألـــوان المائية ، وعلى إلمـــام بمبادىء الموســـيقى ، ويســـتطيب الحديث فى الادب بعد العشاء ، إذا لم يلعب الورق ، وكان السيد «هوميه» يحترمه لثقافته ، ومدام «هوميه» تحبه لطيبته ، إذ كثيرا ما كان يصحب ابناءهما إلى الحديقة ! .. وكانوا أطفالا ملطخين دائما بالقذارة ، مدللين إلى درجة افسدتهم كثيرا ، ميالين للكســـل والتراخى مثل أمهم ! .. وكان يعنى

بهم — إلى جانب الخادم — « جوستان » الشاب ، مساعد الصيدلى ، الذى كان من ابناء عمومة مسيو « هوميه » فآواه هذا فى البيت على سبيل الإحسان ، وكان يستغله — فى الوقت ذاته — كخادم !

وأثبت الصيدلى انه خير جار ، إذ كان يرشد مدام « بوفارى » إلى الباعة ، ويستقدم لها تاجر شراب التفاح ، ويذوق بنفسه الشراب ، ثم يستوثق من ان القنينات وضعت كما ينبغى فى قبو البيت ! .. كما كان يرشدها إلى طرق الحصول على كميات من الزبد بثمن زهيد ، ويتفق مع « ليستيبودوا » الذى كان — إلى جانب مهامه الكنسية والجنازية — يتعهد حدائق الدور الكبرى فى (ايونفيل) مقابل اجر يحسب بالساعة او بالعام ، وفقا لرغبة العميل !

ولم تكن الرغبة فى مساعدة الغير هى الحافز الوحيد الذى دفع الصيدلى إلى هذا التودد والمروءة ، بل انه كان يخفى قصدا آخر .. إذ كان قد خرق المادة الأولى من قانون ١٩ « فنتوز » من العام الحادى عشر للثورة — وهى المادة التى تحظر على كل من لا يحمل شهادة ان يزاول مهنة الطب — حتى انه استدعى إلى (روان) بناء على بلاغات قدمت ضده من مجهولين ، فمثل أمام وكيل النيابة فى مكتبه الخاص .. وقد استقبله النائب بوشاحه واقفا ، وعلى كتفه شريط القضاء ، وعلى رأسه قلنسوته .. وكان ذلك فى الصباح ، قبل ان تفتح المحكمة ابوابها .. وكان يسمع وقع احذية الشرطة الثقيلة فى الردهة ، وصوتا ينبعث عن

بعد لأقفال ضخمة تفتح وتغلق .. واحس الصيدلى بطنين فى اذنيه كذاك الذى يسبق نزلة الشلل .. ورأى بعين الخيال أعماق الزنزانات ، وأسرته فى دموعها ، والصيدلية وقد بيعت وتناثرت زجاجاتها .. حتى لقد اضطر إلى ان يلجأ إلى مقهى تناول فيه كأسا من « الروم » الممزوج بماء « سلزر » ليتمالك جأشه !

بيد ان ذكرى هذا الانذار ما لبثت ان اخذت فى الاضمحلال ، وعاد إلى ما كان يمارسه من قبل من تقديم المشورات الطبية لمن يطلبها فى الغرفة الخلفية بالصيدلية. غير ان العمدة كان يحقد عليه ، وزملاؤه يغارون منه ، فكان لابد له من ان يحسب حسابا لكل شىء ، ومن ثم رأى ان السيد « بوفارى » سيقدر ولا ريب ما يغمره به من مجاملات ، وسيحمله الاعتراف بالجميل على ان يمسك لسانه إذا ما لمح شيئا ! .. ومن ثم اعتاد أن يحمل إليه الصحيفة فى كل صباح، وأن يبرح الصيدلية بعد الظهر ليقضى فترة فى الحديث مع الطبيب !

وكان « شارل » مكتئبا لأن العملاء لم يقبلوا عليه .. وكان يجلس ساعات طويلة دون ان ينبس ببنت شفة ، او يلجأ إلى مكتبه لينام ، أو يتأمل زوجته وهى مستغرقة فى الحياكة . ثم اخذ يعمل فى البيت كالأجير ليتلهى عن افكاره .. بل إنه حاول ان يطلى جدران مخزن القمح ببقية من دهان تركه النقاشون .. بيد أن الشئون المالية كانت تشغل باله ، فقد انفق الكثير فى الإصلاحات التى ادخلها على داره فى

(توست) ، وفى توفير أدوات الزينة لزوجته ، وفى نقـل الأثاث ، حتى أن البائنة ــ التى نالها عند زواجه ــ تسربت كلها خلال عامين ، وكانت تتجاوز ثلاثة آلاف دينار .. وكم من أشياء تلفت او ضاعت اثنــاء نقلهــا من (توست) إلى (ايونفيل) .. ناهيك بتمثال القس الذى هوى من العربة اثر عثرة عنيفة ، فتحطم على طريق (كونيكا مبوا) إلى الف قطعة !

* * *

● ثم اقبلت مهمة سارة تشغله عن افــكاره .. تلك هى : حمل زوجته ! .. وكان كلما اقترب موعد الوضــع ازداد حدبا عليها .. فهذه رابطة اخرى ــ من لحم ــ تعزز صلتهما وتوجد فيهما إحساسا مستمرا بالرباط المشترك . وكان إذا رآها عن بعــد تمشى متثاقلة ، وقــوامها يلتف فى طراوة فوق ردفيها ، بعــد أن تحرر من الحــزام الذى كان يشده ، أطال النظر إليهــا .. فاذا جلسا متقابلين ، راح يتأملها فى تمعن وهى تتململ متقلبة بين الاوضاع فى مقعدها ، فتفيض به السعادة ، وينهض فيقبلها ، ويمسح وجهها بيده ، ويناديها بالأم الصــغيرة ، ويسعى لحملهــا على الرقص ، ويروى لها ــ بين الضحك والبكاء ــ كافة النكات اللطيفة التى تتبادر إلى ذهنه ! .. كانت تطربه فكرة إنجاب طفل .. ومن ثم لم يعد يعوزه شىء آخر ، فقد أصبح يعرف الحيــاة البشرية من بدايتهــا إلى نهايتهــا ، فكان يتدبرها فى خاطره مطمئنا ساكن النفس !

وكانت « ايما » فى دهشـــة بالغة ــ فى البداية ــ ثم اصبحت تتوق إلى ان تضـــع حملهـــا لتعـــرف كيف تكون الأمومة ! .. ولمــا لم تكن تملك أن تنفق عن سعة لتعـــد للطفل مهدا متأرجحا ــ على شــكل زورق ــ ذا ستائر من الحرير الوردى ، وطاقيات مطرزة ، فقــد عدلت ــ والمرارة تمضها ــ عن كل هذا ، وعهدت إلى امراة تشتغل بالتطريز فى احدى القرى بإعداد ما يلزم ، دون أن تختار بنفسها شيئا ! وهكذا لم تستمتع بهذه الاستعدادات التى تذكى الحنان فى الأمهــات ، حتى لقد بدا ان حبهــا للصغير قد فتر ــ بعض الشىء ــ عنه فى البداية ! .. على انهــا لم تلبث أن أخذت تفكر فيه باسترسال متواصــل ، إذ كان « شارل » لا يفتأ يتحدث عنه اثناء كل وجبة !

وتمنيت ان ترزق بولد ، قــوى ، اسمر ، تســميه « جورج » ! .. وكانت ترمق الفكرة كما لو كان إنجاب الذكر انتقاما مأمولا من كل ما أصــابها فى المــاضى من قصــور واستضعاف . فالرجل حر .. يستطيع على الأقل أن يجتاز كافة الانفعالات ، وأن يجوب الأقطار ، وأن يتخطى العقبات ، وأن يتذوق ابعد الملذات منالا ! .. فى حين أن المــراة تتعثر دائما فى المثبطات .. فاذا نشطت وتذرعت بالمرونة ، لا تلبث أن تجد ضعف جسدها والحياة التى فرضتها عليها الشرائع لتكون عالة على سواها ، عوامل تقعد بها .. وما أشــبه عزيمتها بنقاب قبعتها المعلق بخيط ، وهو يرفرف فى الهواء !

* * *

• ووافاها المخاض فى نحو الساعة السادسة من صباح يوم من أيام الآحاد ، والشمس تشرق .. وما لبث « شارل » أن قال : « إنها بنت ! » .. فأشاحت برأسها ، وراحت فى إغماء !

واقبلت مدام « هوميه » ومدام « لوفرانسوا » — صاحبة نزل الأسد الذهبى — مسرعتين لتقبلاها ، فور سماعهما النبأ .. اما الصيدلى ، فقد اكتفى — كرجل مهذب ، حيى ! — بأن أزجى إليها بعض التهانى خلال الباب المنفرج ، ثم رغب فى رؤية الوليدة ، وأعرب عن ارتياحه إلى حسن تكوينها !

وشغلت « ايما » كثيرا — خلال فترة النقاهة — باختيار اسم لابنتها .. فاتجهت فى أول الأمر إلى الأسماء التى تنتهى بمقاطع معينة ، على الطريقة الإيطالية ، مثل كلارا ، ولويزا ، واماندا ، واتالا .. ومالت كثيرا إلى اسم « جالسويند » .. وكانت اكثر ميلا إلى « ايزولته » أو « ليوكادى » . ورغب « شارل » فى أن تحمل الطفلة اسم امه ، ولكن « ايما » عارضته .. ثم راحا يستعرضان كل ما ضمه التقويم من اسماء القديسات ، واخذا يستشيران الأغراب . فقال الصيدلى : « كنت اتحدث منذ ايام مع السيد ليون ، فابدى عجبه لأنكم لا تختارون اسم « مادلين » الذى يقبل الجميع عليه فى هذه الأيام ! » .

ولكن مدام « بوفارى » الكبيرة ، عارضت بصوت مرتفع هذا الاسم الذى كانت تحمله إحدى الخاطئات ! .. اما السيد « هوميه » فكان يفضل الأسماء التى تبعث إلى الذهن ذكرى

عظيم ، أو واقعة بهيجة ، أو فكرة كريمة .. وعلى هذا النحو سمى ابناءه الأربعة ، فكان « نابوليون » يمثل المجد ، و « فرانكلين » رمزا للحرية ، وربما كان اسم « ارما » مظهرا لتأثره بالخيال القصصى العاطفى .. اما اسم « اتالى » فكان تحية لأعظم تحفة شهدتها المسارح الفرنسية ! .. إذ أن عقائده الفلسفية لم تكن تتعارض مع ميوله الفنية .. ولم تكن شخصية رجل الفكر تخنقها فى نفسه شخصية رجل العاطفة ، بل كان يعرف لكل حدودها ، وكان يفرق بين الخيال والتطرف المتعصب .. ففى مأساة «اتاليا» المسرحية — مثلا — كان ينتقد الآراء ولكنه يعجب بالأسلوب .. يكره الموضوع ، ولكنه يصفق للتفصيلات جميعا .. يزدرى الشخصيات ، ولكنه يزداد تحمسا لحوارها ! .. وكان يسرح مع الخيال إذا ما قرأ فقرات بديعة ، ولكنه كان يغتم إذا ما تذكر اهل المجون والمهرجين قد يستغلونها فى الاعيبهم على الغير ! .. وفى خضم هذه المشاعر المتضاربة التى كانت تجتاحه ، كان يود أن يتوج لفوره « راسين » — مؤلف المسرحية — بكلتا يديه ، وأن يقضى ربع ساعة فى نقاش معه !

وتذكرت « ايما » اخيرا انها سمعت المركيزة فى قصر (فوبيسار) تنادى شابة باسم «بيرت» .. ومنذ تلك اللحظة وقع الاختيار على هذا الاسم ! .. ولما لم يستطع السيد « روو » الحضور ، فقد سئل السيد « هوميه » أن يكون اشبينا للطفلة .. وكانت كل هداياه من المنتجات التى تحويها صيدليته : ست علب من ثمار العناب المحفوظة ، وقنينة مملوءة

باكسير مقو ، وثلاث انابيب من معجون الشيح ، فضلا عن ست أصابع من سكر النبات عثر عليها فى احد الصوانات . وفى امسية الاحتفال ، اقيمت مأدبة عشاء كبيرة حضرها القس ، وتخللها هرج ومرج .. وعندما حان موعد الشراب ، اخــذ السيد « هوميه » ينشد : « الله رب العالمين » ، وغنى السيد « ليون » إحدى اغانى الجندول ، والقت مدام « بوفارى » الكبيرة ــ وكانت اشبينة الطفلة ــ إحــدى اغانى العصر الإمبراطورى العاطفية ! .. واخيرا ، اصر مسيو « بوفارى » ــ الكبير ــ على احضار الوليدة ، وشرع يعمدها بأن سكب على راسها كوبا من الشمبانيا .. واثارت هذه السخرية من اقدس الشعائر الدينية غضب الأب « بورنيزيان » ، فرد عليه « بوفارى » الشيخ بفقرة من كتاب : « حرب الآلهة » ! .. وهم القس بالخروج ، فتضرعت إليه النسوة ، وتدخل السيد « هوميه » ، حتى افلحوا فى حمل القس على الجلوس ، ومن ثم عاد يستأنف احتساء ما بقى فى قدح القهوة ، فى هدوء !

ومكث مسيو « بوفارى » الكبير شهرا فى « ايونفيل » بهر خلاله اهلها بخوذة فخمة من خوذات الشرطة ، يتدلى منها زر فضى ، كان يرتديها فى الصــباح وهو يدخن غليــونه فى الميدان ! .. وإذ كان من عادته الافراط فى الشراب ، فكثيرا ما كان يوفد الخادم إلى «الأسد الذهبى» لتوافيه بزجاجة على حساب ابنه . واستنفد ــ ليعطر مناديله ــ كل ما كان لدى زوجة ابنه من ماء « الكولونيا » .. بيد ان هذه لم تكن تضيق بصحبته اطلاقا ، إذ كان قد جاب الأقطار ، فكان يحدثها عن برلين وفيينا وستراســبورج ، وعن ايام الجنــدية ، وعن

العشيقات اللاتى احببنه ، والولائم الحافلة التى اقامها ! .. ثم إنه كان لطيفا .. بل لقد كان فى بعض الأحيان يطوق خصرها بذراعه ــ على السلم او فى الحديقة ــ ويصيح : « شارل .. احترس لنفسك ! » .

إذ ذاك خشيت السيدة « بوفارى » ــ الام ــ على سعادة ابنها ، وخافت أن ينتهى زوجها مع مرور الوقت إلى ان يترك اثرا غير خلقى فى ما للمراة من آراء وافكار ، فعملت على التعجيل بالرحيل .. ولعلها كانت تكتم اسبابا اخطر من ذلك لقلقها ، إذ ان السيد « بوفارى » لم يكن بالرجل الذى يحترم شيئا !!

واحست « ايما » يوما برغبة مفاجئة فى ان ترى ابنتها ــ التى كانت قد أسلمت لزوجة النجار لتعنى بها وترضعها ــ وبدون ان ترجع للتقويم لتتبين ما إذا كانت اسابيع العــذراء الستة قد انقضت ، انطلقت إلى بيت « روليه » ــ النجار ــ فى الطرف الأقصى من القرية ، بين الطريق الرئيسية والحقول .. وكان الوقت ظهرا ، وقد اوصدت ابواب الدور ونوافذها ، وتالقت السقوف الاردوازية تحت ضوء السماء الباهر حتى كادت تقدح شررا من ابراجها ! .. وكانت الريح تهب بشدة ، وما لبثت « ايما » ان شعرت خلال سيرها بوهن ، واخــذت احجار الأرصفة تؤلم قدميها .. وترددت بين ان تعود إلى البيت ثانية ، او تلوذ باى مكان .. وفى هذه اللحظة ، برز السيد « ليون » من منزل مجاور ، وقد تأبط حزمة من الورق ، فخف لتحيتها ، ووقف تحت المظلة الرمادية الممتدة امام حانوت « روليه » .

وقالت مدام « بوفارى » انها فى طريقها لرؤية ابنتها ، بيد ان التعب اخذ يشتد بها ، فقال ليون : « هل لك ... » ، ثم امسك لا يجرؤ على أن يتم عبارته ، فسألته : « هل لديك أى عمل يشغلك الآن ؟ » .. وإذ اجابها بالنفى ، رجته أن يصحبها .. فلم يحن المساء حتى كانت « ايونفيل » بأسرها قد عرفت النبأ .. وصرحت مدام «توفاش» – زوجة العمدة – أمام خادمتها بأن « مدام بوفارى قد ورطت نفسها ! » .

***

● كان لابد « لايما » ، كى تصل إلى بيت المرضعة ، من ان تعرج إلى اليسار بعد نهاية الشارع وكأنها تسعى إلى المقابر ، ثم تسلك – بين الدور والأفنية – طريقا ضيقة محفوفة بأشجار اللبخ والفيرونكا والنسرين وبنات النار المزدهرة، وبالعوسعج المنبعث من الأحراش. وخلال ثغرات فى الأسيجة ، كانت الأبقار تلوح فى الخرائب وهى تحك قرونها فى جذوع الأشجار .. وسارا فى هوادة ، جنبا إلى جنب ، وقد استندت السيدة إلى زميلها الذى كان يضيق من خطاه كى تلائم خطاها ! .. وكان يحوم امامهما سرب من الذباب يطن فى الهواء الدافىء ..

وتعرفا على المنزل بفضل شجرة بندق قديمة كانت تظله ، وكان بيتا منخفضا ، مغطى بقرميد بنى اللون ، تتدلى من كوة مخزن الغلال فيه حزمة من البصل .. وخلف الحاجز الشوكى ، قامت عدة اغصان جافة تحيط بحوض زرع خسا ، وبعض عقل من « اللاوندة » ، وفروع من البازلاء المزدهرة



وما لبثت « إيما » ان شعرت خلال سيرها بوهن واخذت احجار الأرصفة تؤلم قدميها

استندت إلى عصى صغيرة ، والماء القذر ينساب على العشب حيث تناثرت عدة اشياء بالية غير واضحة المعالم : جوارب من نسج اليد ، وصدار من الحرير الهندى الأحمر ، وملاءة من القماش السميك منشورة على طول السياج ..

وعلى صوت صرير باب السياج خرجت المرضعة تحمل على ذراعها طفلا يرضع ، وتسحب باليد الاخرى طفلا هزيلا مسكينا كست وجهه البثور، وكان ابن صانع قبعات فى (روان)، تركه ابواه فى الريف لفرط انصرافهما إلى تجارتهما . وقالت المرضعة : « تفضلى .. إن طفلتك نائمة هناك ! » .

وكانت الغرفة التى بالطابق الأرضى . وهى الغرفة الوحيدة بالمسكن ، وقد اقيم لصق الجدار — فى اقصاها — سرير واسع بدون ستائر ، بينما شغل حوض العجين الجدار الذى تخللته النافذة ، وقد الصق فى مكان الزجاج المكسور فى هذه ، ورق أزرق .. وفى الركن القائم خلف الباب رصت احذية ذات مسامير لامعة ، تحت حافة المغسل ، بجوار زجاجة زيت دست فى فوهتها ريشة . وعلى رف المدفاة المغبر كانت ثمة نسخة من تقويم « ماتيولانزبرج » وسط قطع من الصوان واعقاب الشموع والصوفان . واخيرا ، كانت آخر مظاهر الترف فى المسكن ، لوحة تمثل « الشهرة » تنفخ فى بوق ، يدل مظهرها على انها قصت من إعلان للعطور ، وثبتت إلى الجدار بستة من مسامير الأحذية الخشبية (القباقيب) !

وكانت طفلة « ايما » ترقد فى سرير من الغاب ، فحملتها فى الغطاء الذى كان يلفها واخذت تغنى لها برفق وهى تهزها ..

ومضى « ليون » يذرع الغرفة ، وقد بدا له من الغريب ان يرى سيدة جميلة فى ثوب انيق وسط كل هذا البؤس والفاقة .. وتضرجت وجنتا مدام « بوفارى » فأشاح ببصره إذ خطر له ان نظرة فضولية بدت فى عينيه .. وما لبثت الأم ان ردت الطفلة إلى مهدها بعد أن تقيأت على صدر مرولتها ، فأقبلت المرضعة لمسح القىء فورا ، مؤكدة انه لن يخلف اثرا .. وقالت : « كم من افعال لها تشغلنى ، فإننى احرص على تنظيفها باستمرار ، ولو انك تفضلت فأمرت « كاميس » البدال بأن يعطينى بعض الصابون ، لكان هذا ادعى لراحتك ، لاننى لن اضطر لازعاجك » !

فقالت « ايما » : « حسنا .. ليكن ! .. طاب يومك ياسيدة روليه » .

وخرجت وهى تمسح نعليها عند العتبة .. وتبعتها المرضعة حتى نهاية الحديقة ، وهى تحدثها طيلة الوقت عن العناء الذى تلاقيه طيلة الليل ، قائلة : « ان الضنى يبلغ بى احيانا ان استغرق فى النعاس وانا جالسة فى مقعدى ، واعتقد انه يخلق بك ان تمنحينى رطلا على الأقل من البن المجروش ، يكفينى شهرا ، لاتناول منه قدحا مع اللبن فى كل صباح» .

وانصرفت مدام « بوفارى » بعد أن استمعت مكرهة لعبارات الشكر . على انها لم تكد تبتعد بضع خطوات حتى انتبهت إلى وقع حذاءين خشبيين .. وإذا بالمرضعة ، فسألتها : « ماذا هناك ؟ » .. وإذ ذاك انتحت بها الفلاحة جانبا خلف إحدى اشجار الدردار ، وراحت تحدثها عن زوجها الذىاوتى حرفة ، لا تدر عليه غير النذر الضئيل .. وقاطعتها

« ايما » قائلة « أسرعى ! » ، فاستأنفت وهى تتنهد بين كل كلمة واخرى : « آه .. اخشى ان يفتم إذا رآنى اتناول القهوة وحدى .. فأنت تعرفين الرجال ..... » .

قالت « ايما » : « لسوف تحصلين على البن .. ساعطيك اياه .. انك تضايقيننى ! » .

— أواه يا سيدتى العزيزة المسكينة ! .. إنه يعانى — بسبب جراحة — من انقباضات مزعجة فى الصدر .. ويقول ان شراب التفاح يضعفه !

— عجلى أيتها الام روليه !

فاستطردت المرضعة وهى تنحنى احتراما : « اذن ، فاذا لم اكن قد تماديت .. » ، وانحنت مرة أخرى .. « فلو تكرمت » .. وبدت فى عينيها ضراعة ، ثم افضت بغايتها اخيرا : « .. بقنينة براندى ! ولسوف ادلك منها قدمى طفلتك ، فهما رقيقتان كاللسان » !

* * *

● ما ان تخلصت « ايما » من المرضعة ، حتى امسكت بذراع « ليون » ، وسارت مسرعة بعض الوقت ، ثم تباطأت .. وفيما كانت تتطلع إلى الأمام ، وقع بصرها على كتف الشاب الذى كانت لسترته ياقة من المخمل الاسود ، يتدلى فوقها شعره الكستنائى الذى نسق فى عناية ، ولاحظت ان اظافره كانت اطول مما اعتاد الناس فى « ايونفيل » ان يتركوا عليه اظافرهم ! .. وكانت العناية بها من المهام الرئيسية التى

تشغله .. ومن ثم كان يحتفظ فى درج مكتبه بمطواة خاصة لذلك !

وعادا إلى « ايونفيل » سائرين بمحاذاة مجرى الماء .. كانت الضفة تتسع فى الموسم الحار عنها فى الأوقات الأخرى ، فتكشف عن أساس جدران الحدائق ، حيث تنحدر إلى مجرى النهر بضع درجات .. وكان الماء يجرى سريعا ، هادئا ، تكاد العين تلمس برودته ! .. والأعشاب الطويلة النحيلة تتشابك وتتجمع ، والتيار يدفعها ، ثم تبسط نفسها على سطح الماء النمير كالشعر المسترسل .. وكانت تبدو على قمم البوص أو على إحدى أوراق زنابق الماء — فى بعض الأحيان — حشرة دقيقة الأطراف تزحف أو تقبع مستريحة .. وكانت الشمس تخترق بأشعتها الفقاقيع الزرقاء الصغيرة التى تخلفها الأمواج ، والتى كانت تتتابع متكسرة .. واشجار الصفصاف العتيقة العارية الأغصان ، تعكس على الماء صور جذوعها المغبرة .. وفى المؤخرة ، بدت المراعى محيطة بالمنظر ، ممتدة على مدى البصر ، خالية من كل شىء .. كانت ساعة العشاء قد حانت فى المزارع ، فلم تسمع الشابة وزميلها اى صوت وهما يسيران ، اللهم إلا وقع خطواتهما على ارض الطريق ، والكلمات التى كانا ينطقان بها ، وحفيف ثوب « ايما » .

وكانت أسوار الحدائق — التى بدت من فوقها قطع الزجاج — ساخنة كزجاج نوافذ بيوت تربية النباتات الحارة ، وقد نبتت الزهور البرية بين احجارها ، فكانت مدام « بوفارى » تمس بعض هذه الزهور الجافة بحافة مظلتها المفتوحة ، وهى تمر بها ، فتتساقط ترابا اصفر .. كما كان يشتبك بحافة

المظلة احيانا غصن من اللبلاب المتدلى ، ويتأرجح فوق حريرها لحظة .

وكانا يتحدثان عن فرقة من الراقصين الإسبانيين مرتقبة الوصول إلى مسرح (روان) ، فسألته : « هـل سـتذهب لرؤيتها ؟ » .. واجاب : « إذا استطعت » ! ..

او لم يكن لديهما ما يقال غير هذا ؟ ! .. كانت عيونهما مفعمة بحديث اكثر جدية .. وكانا ، إذ يجهدان نفسيهما فى البحث عن عبارات تافهة ، يحسان بنوع واحد من الخدر يسرى فيهما .. ذاك كان همس الروح .. همس عميق ، مستمر ، يطغى على صوتيهما ! .. واخذهما العجب لهـذه العـذوبة الطارئة ، فلم يخطر ببالهما ان يتكلما عن هذا الاحساس او ان يبحثا عن سببه .. فان المسرات فى إقبالها تلقى ـ كالشواطىء الاستوائية ـ على الفضاء الشاسع رخاوتها الفطريه ، وتبعث فى الجو نسيما متضوعا .. فاذا هذه النشوة تسلمنا إلى اغفاء عذب يصرفنا عن التفكير فى الأفق الذى نجهله !

وكانت الارض قد مادت فى إحدى البقاع تحت اقـدام الماشية ، فكان لابد لهما من ان يقفزا على احجار كبيرة خضراء تناثرت فى الوحل .. وكثيرا ما كانت « ايما » تتريث لتستبين موقع قدمها ، وهى تتأرجح على حجر مهتز ، وقد بسـطت ذراعيها فى الهواء ، وانحنت قامتها فى حيرة ، وراحت تضحك وهى تخشى ان تهوى فى برك الماء !

وعندما بلغا حديقة دارها ، دفعت مدام « بوفارى » الباب ، وطوت السلالم عدوا ، واختفت .. فعاد « ليون »

إلى مكتبه ــ وكان رئيسه غائبا ــ فالقى على الملفات نظرة ، وشحذ لنفسه قلما ، ثم تناول قبعته اخيرا وانصرف متجهـا إلى المرج باعلى هضبة (ارجى) ــ عند مدخل الغابة ــ حيث استلقى على الارض تحت اشجار الصنوبر ، واخذ يتطلع إلى السماء من خلال اصابعه محـدثا نفسـه : « ما اشـد ضجرى ! » .

كان يحس انه خليق بالرثاء لإقامته فى هذه القرية ، حيث لا صديق سوى « هوميه » .. ومع السيد « جويومـان » رئيسه ! .. وكان الأخير ، بمنظاره ذى الإطار الذهبى ولحيته الحمراء وربطة عنقه البيضاء ، يكب على عمله ، ولا يفقه شيئا من المتع الفكرية ، وإن اتخذ لنفسه مظهرا إنجليزيا صارما بهر الكاتب فى الأيام الأولى !

اما زوجة الصيدلى ، فكانت خير زوجة فى (نورماندیا) .. وديعة كالحمل ، تحب اولادها واباها وامها وبنى عمومتها ، وتبكى لأحزان الآخرين ، مهملة فى الوقت نفسه كل شئون دارها ! .. وكانت تكره المشدات (الكورسيهات) ، غير أنها كانت بطيئة الحركة ، مملة الحديث ، مبتذلة المظهر ، ضيقة الأفق ، حتى ما كان احد ليتصور انها تصـلح زوجـة لغير الصيدلى ، او انها اوتيت شيئا من خصائص جنسها فيما عدا الثوب ! .. وكانت هى فى الثلاثين بينما كان هو ــ (اى ليون) ــ فى العشرين ، وكان مخدعه ملاصقا لمخدعها ، ومن ثم كان يخاطبها يوميا !

ثم .. ماذا كان هناك غير ذلك ! .. « بينيه » ، وبعض اصحاب الحوانيت ، واثنان او ثلاثة من اصحاب الحانات ، والقس ، واخيرا مسيو « توناش » ، العمدة ، وأولاده : وكلهم ثراة ، متغطرسون ، اغبياء ، يزرعون الأرض بانفسهم ، ويستأثرون بالولائم فيما بينهم ، متزمتون ، لا تطاق صحبتهم !

ولكن .. ماذا عن « ايما » ؟ .. لقد كانت تقف بمعزل عن كل الإطار العام الذى يضم هذه الوجوه البشرية .. وبعيدا عنه هو الآخر ، إذ كان يرى بينه وبينها هوة غامضة ! .. كان قد زارها مع الصيدلى عدة مرات فى البداية ، فلم يبد « شارل » ميلا واضحا إلى ان يراه مرة اخرى ، فلم يدر « ليون » ماذا يفعل ، إذ حار بين الخوف من ان يبدو متطفلا ، والرغبة فى الفة جميلة تكاد تلوح مستحيلة !

الفصل الرابع

● نقلت « ايما » ــ عندما بدات ايام الشتاء ــ مخدعها إلى حجرة الجلوس .. وكانت قاعة طويلة ، منخفضة السقف، استقرت على رف مدفأتها ــ أمام المرآة ــ حزمة كثيفة من المرجان . وكانت تجلس فى مقعدها الوثير بجوار النافذة ، حيث تشهد اهل القرية وهم يمرون على الإفريز .

وكان « ليون » يسعى بين مكتبه وفندق « الأسد الذهبى » مرتين فى اليوم ، فكانت « ايما » إذا سمعته عن بعد انحنت لتصيخ السمع ، بينما يمر الشاب دون أن يلتفت ، فتراه من خلف الستائر فى نفس المظهر والملبس دائما .. ولكنها عندما كانت تترك قطعة القماش التى تطرزها تسقط على ركبتيها ، وتستند بذقنها إلى يدها اليسرى ــ عند الغروب ــ كانت تسرى فى جسدها رجفة لظهور هذا الشبح ومروره بالبيت ! .. وكانت لا تلبث ان تنهض وتأمر بإعداد المائدة .

وكان السيد « هوميه » يصل اثناء العشاء ، وطاقيته الإغريقية فى يده ، فيدخل بخطى مكتومة الوقع كى لا يزعج احدا ، وهو يردد نفس العبارة دائما : « مساء الخير ايها الزميلان ! » .. فاذا اتخذ مجلسه إلى مائدة الزوجين ، سال الطبيب عن أنباء المرضى، فيستشيره هذا فيما يقدر من اتعاب، ثم يخوضان فى الحديث عما جاء بالصحيفة التى يكون «هوميه» قد استظهر كل ما فيها تقريبا ! .. فكان يرويه، مع التعليقات، كما كان يروى جميع النكبات الفردية التى وقعت فى فرنسا أو فى الخارج. ولم يكن يتوانى ـ إذا ما نضب موضوع الحديث ـ

عن ان يلقى بعض الملاحظات عن اصناف الطعام التى يراها ! .. بل إنه كان ينهض احيانا عن مقعده ليرشد السيده إلى اطرى قطع اللحم ، او يتحول إلى الخادم يوجه إليها إرشادات فى معالجة اللحوم ، والقواعد الصحية لاستخدام التوابل .. ويتكلم عن البهار ، والمفات ، وانواع العصير والهلام (الجيلاتين) .. على نحو مدهش ! .. ولما كان راس « هوميه » يحفل بتركيبات تفوق فى الكثرة ما تزخر به صيدليته من قنينات ، فانه كان يحذق صنع جميع انواع المربى ، والخل ، والمشروبات الروحية الخفيفة ، كما كان ملما بكافة المخترعات الحديثة المتعلقة بادوات الطهو الاقتصادية ، فضلا عن اصول صيانة الجبن ، وعلاج النبيذ الفاسد !

وكان « جوستان » يأتى فى الساعة الثامنة يستدعيه لاغلاق الصيدلية ، فيرمقه السيد « هوميه » بنظرة خبيثة ، لا سيما إذا كانت « فيليسيتيه » واقفة ، إذ كان قد فطن إلى ان مساعده يميل إلى التردد على بيت الطبيب ! .. وكان يقول : « ان هذا « الفحل » بدا يفكر .. وليأخذنى الشيطان إذا كنت مخطئا فى ظنى انه يحب خادمتكما ! » .

بيد ان اخطر عيب كان يؤاخذ « جوستان » عليه ، هو انه كان ينصت دوما إلى الحديث . فلم يكن من السهل إبعاده عن « الصالون » فى يوم الأحد مثلا ، عندما تناديه مدام «هوميه» لينقل الأطفال الذين ناموا فى مقاعدهم ، واخذوا يسحبون بظهورهم مفارشها عنها ! .. ولم يكن يحضر سهرات الصيدلى اناس كثيرون ، إذ نجح ميله للخوض فى الفضائح

والآراء السياسية فى تنفير مختلف الأشخاص المحترمين منه . على ان الكاتب لم يتخلف قط عن سهراته ، وكان إذا سمع جرس الباب بادر مسرعا إلى استقبال مدام «بوفارى» ، فيأخذ عنها شالها ، ويضع تحت نضد الصيدلية الخفين السميكين المزدانين بالشرائط ، اللذين كانت ترتديهما فوق حذاءيها إذا كان الجليد يملأ الشوارع .

وكانوا يلعبون أدواراً من لعبة الورق المعروفة برقم ٣١. ثم ينفرد السيد « هوميه » باللعب مع « ايما » ، و « ليون » من خلفها يقدم لها النصائح ، وقد وقف معتمدا بيديه على ظهر مقعدها ، محدقا فى أسنان المشط التى تعض عقصة شعرها . وكان الجانب الأيمن من ثوبها يرتفع مع كل حركة تقوم بها لالقاء الورق ، وينبعث من شعرها لون أسود ينساب على ظهرها ، ويأخذ فى الشحوب تدريجيا ، حتى يتلاشى فى الظلال .. ثم يتهدل ثوبها على جانبى المقعد ، منتفخا ، مليئا بالثنايا ، وينساب حتى يبلغ الأرض .. فاذا أحس « ليون » بأن نعله وقع على طرف منه ، ارتد مجفلا وكأنما داس شخصا !

وعندما كان ينتهى لعب الورق ، كان الصيدلى والطبيب يلعبان « الدومينو » ، فتنتقل « ايما » إلى مقعد آخر لتتكىء على المائدة وتقلب صفحات مجلة « الالستراسيون » .. كما كانت تحضر معها مجلتها النسوية ، فيجلس « ليون » يتأمل الصور إلى جانبها ، ويتريث أحدهما عند نهاية كل صفحة ريثما يفرغ منها الآخر . وكثيرا ما كانت ترجوه أن ينشدها شعرا ، فكان « ليون » يفعل بصوت متراخ كان يعنى بخفضه

عند العبارات الغرامية ، لتطفى عليه جلبة « الدومينو »!..
وكان السيد « هوميه » بارعا فى هذه اللعبة ، إلى حد انه كان
يفوز على « شارل » بدورين ، حتى إذا فرغا من الدور الثالث،
اضطجعا معا امام المدفاة ، فلا يلبثان ان يغفوا ! .. وتموت
النار .. ويخلو ابريق الشاى .. و « ليون » ماض فى
القراءة ، و « ايما » تنصت إليه ، وهى تعبث بمظلة المصباح
فى حركة آلية ، وتحدق فى الرسوم المنقوشة عليها : من
عصافير فى عربات ، إلى راقصين على الحبال ممسكين بالعصى
التى يحفظون بها توازنهم .. وكان « ليون » لا يلبث ان يمسك
عن القراءة ليشير بإيماءة إلى النائمين .. وإذ ذاك يشرعان فى
الحديث بخفوت ، فكان هذا الحديث يبدو لهما اعذب من
اى حديث ، لأن احدا لم يكن يسمعه !

.. وهكذا توثقت بينهما رابطة من نوع خاص ، واخذا
يتبادلان الكتب والروايات . ولم يكن السيد « بوفارى » ليشغل
باله بهذا .. فقد كان قليل الانسياق للغيرة !

وتلقى « شارل » فى عيد ميلاده صورة لراس رسم باللون
الأزرق ، لبيان الجهاز العصبى ، وقد انتشرت عليه الأرقام
والبيانات حتى القفص الصدرى ! .. تلك كانت هدية من
الكاتب الذى اخذ يقدم الكثير غيرها من الهدايا والخدمات ،
حتى لقد كان يقضى للطبيب حوائجه فى (روان) . وكان احد
الروائيين قد اورد فى كتاب له فصلا عن نبات « الصبار »
جعله بدعة لقيت رواجا ، فابتاع « ليون » بعض نبتات منه
لمدام بوفارى ، وقد ادمى بعض اشواكها اصابعه ، إذ حملها

فى « العصفورة » على ركبتيه ! .. واقامت السيدة خارج
نافذتها قاعدة من الخشب وضعت عليها الأصص . ولما كانت
للكاتب حديقة صغيرة معلقة ، فقد اخذ كل منهما يشاهد الآخر
وهو يعنى بأزهاره عند النافذة !

ومن بين نوافذ القرية ، كانت ثمة نافذة ينبعث منها اكبر
قدر من النشاط .. فطيلة ايام الآحاد ـ نهارها ومساؤها ـ
وبعد ظهر كل يوم ، حين يصحو الجو ، كان المرء يرى خلال
كوة مخزن الغلال منظرا جانبيا لوجه « بينيه » وقد انحنى
على مخرطته فانبعث طنينها الرتيب حتى صار يسمع فى فندق
« الأسد الذهبى » .

وولج « ليون » غرفته ذات يوم ، فالفى فيها سجادة من
المخمل والصوف ، نقشت عليها افنان على قاعدة شاحبة ،
فاستدعى مدام « هوميه » والسيد « هوميه » و « جوستان »
والأطفال والطباخة ليشهدوها ! .. وتحدث إلى رئيسه
عنها .. ورغب الجميع فى أن يروا هذه السجادة ، وهم
يسائلون انفسهم : ترى لماذا تقدم زوجة الطبيب للكاتب
هدايا ؟ .. إنه لأمر جد عجيب ! .. ووقر فى نفوسهم انها لابد
حبيبته ، لا سيما وقد كان فى مسلكه ما يبرر هذا الظن ، إذ كان
دائم الحديث عن سحرها وذكائها ، حتى لقد رد عليه « بينيه »
مرة فى عنف قاس : « وماذا يعنينى من امرها وانا لست من
اصدقائها ؟ ! » .

واخذ « ليون » يعتصر ذهنه بحثا عن وسيلة يعلن بها
حبه لها .. فقد كان يتردد بين الخوف من ان يثير استياءها وبين

الخجل من جبنه ! .. كان يبكى من الرغبة وعدم الجراة ، ثم لا يلبث ان يستجمع عزيمته ويعمد إلى كتابة خطابات يمزقها بعد ان ينتهى منها ، ويرجىء الأمر إلى أوقات اخرى ، ثم يعود فيرجئه من جديد ! .. وكثيرا ما كان يهم بمواجهة الأمر فى عزم ، فلا تكاد تحضر « ايما » حتى يتبدد هذا العزم ! .. وكان إذا دعاه « شارل » إلى مرافقته فى عربته لعيادة مريض فى قرية مجاورة لبى الدعوة لفوره، فيحيى السيدة وينصرف.. ولم لا ، اليس زوجها جزءا منها ؟

اما « ايما » فلم تسائل نفسها قط عما إذا كانت تحبه . فهى تعتقد ان الحب يفد فجاة مصحوبا برعد وبرق ، كما لو كان عاصفة تنقض من السماء على الأرض ، فتقلب كيانها ، وتنتزع الإرادات انتزاعها لأوراق الشجر ، وتجرف القلب !.. ولم تفطن إلى ان المطر يحيل الشرفات بحيرات إذا كانت الميازيب مغلقة .. وهكذا ظلت مطمئنة ، حتى اكتشفت فجاة صدعا فى الجدار .. جدار قلبها !!

الفصل الخامس

● كان ذلك فى أصيل يوم احد من شهر فبراير ، والجليد يتساقط .. وهم جميعا — السيد بوفارى وزوجته ، وهوميه ، والسيد ليون — على بعد نصف فرسخ من (ايونفيل) ، وقد خرجوا فى رحلة لمشاهدة مصنع لغزل الكتان كان العمل جاريا فى إقامته فى الوادى .. وكان الصيدلى قد اصطحب معه « نابوليون » و « أمالى » للرياضة ، كما رافقهم « جوستان » حاملا المظلات على كتفه .

بيد انهم لم يجدوا فيما ذهبوا لرؤيته شيئا يثير الفضول .. مساحة ارض واسعة ، خالية ، تناثرت فى ارجائها بين اكداس الرمل والحصى الملقاة فى غير انتظام ، بضع عجلات ذات تروس يعلوها الصدا . ووسط هذه الأرض قام مبنى مستطيل ، يتخلل جدرانه عدد من النوافذ الصغيرة .. ولم يكن البناء قد اكتمل ، فكانت السماء ترى خلال هيكل السقف الذى علقت باحدى كتله الخشبية حزمة من سنابل القمح والقش راحت ترفرف فى الهواء بالوانها الثلاثة .. وانطلق « هوميه » يشرح للجماعة ما سوف يكون لهذه المؤسسة من اهمية ، وما ستكون عليه ارضها الخشبية من متانة ، وجدرانها من سمك .. وابدى اسفه إذ لم يكن يملك عصا للقياس كتلك التى كان السيد « بينيه » يقتنيها لاغراضه الخاصة !

وكان يتابط ذراع « ايما » التى راحت تميل معتمدة على كتفه بعض الشىء ، لتتطلع إلى الشمس التى كان قرصها

يرسل من بعد — خلال الضباب — ضوءا أخذ يســطع فى شحوب .. وحانت منها التفاتة ، فرأت « شارل » قد كبس قلنسوته حتى حاجبيه ، وراحت شفتاه الغليظتان ترتجفان ، مما أضفى على وجهه مزيدا من الغباء ! .. حتى ظهره .. ظهره الساكن .. كان يثير الاشمئزاز ، وكأنما انتشرت على « ردنجوته » مظاهر تفاهة شخصيته !!

وفيما كانت تتأمله ، مستشعرة فى اشمئزازها لونا من المتعة الشاذة ، اقترب « ليون » خطوة . وقد لاح أن البرد الذى أصابه بالشحوب قد أسبغ على وجهه استرخاء زاده بهاء .. وكانت ياقة القميص واسعة بعض الشىء ، تكشف — بين الرقبة ورباطها — عن بشرته .. وبرز طرف أذنه من خلال خصلة من الشعر .. وخيل لإيما أن عينيه الواسعتين الزرقاوين — اللتين كانتا تتطلعان إلى السحب — أكثر صفاء وجمالا من البحيرات الجبلية التى ينعكس لون السماء على مياهها !

وهتف الصيدلى فجأة : « يا للشقى ! » .. ثم عدا نحو ابنه الذى قفز إلى كومة من الجير ليطلى حذاءيه بلون أبيض .. وراح « نابوليون » يصرخ إذ انهال عليه توبيخ أبيه ، بينما أسرع « جوستان » ينظف له حذاءيه بحزمة من القش . بيد أنه احتاج إلى سكين ، فقدم إليه «شارل» واحدة .. وإذ ذاك حدثت « إيما » نفسها قائلة : « آه ! .. إنه يحمل سكينا فى جيبه كالفلاحين ! » .

وتساقط الصقيع ، فعادوا إلى « ايونفيل » .. ولم تذهب مدام «بوفارى» لزيارة جيرانها فى ذلك المساء .. وإذ غادرها

« شارل » وخلت إلى نفسها ، عادت إليها المفارقة بوضـوح الاحساس المباشر الذى يكاد يكون واقعا ، وبالعمق الذى تخلعه الذاكرة على الأشياء ! .. وتمثل لعينيها — وهى تتأمل من سريرها النار وهى تستعر صافية فى المدفأة — المنظر الذى رأته هناك ، وكأنه لا يزال أمامها : « ليون » وقد وقف يثنى عصاه بإحدى يديه ، ويمسك « أتالى » باليد الأخرى ، وهى تستحلب فى هدوء قطعة من الثلج .. وبدا لها فاتنا ! .. ولما لم تستطع أن تنتزع نفسها عنه ، أخذت تستعيد مواقف أخرى له فى أيام غير ذاك اليوم ، وكلمات صدرت عنه ، وجـرس صوته ، وكل كيانه .. ومضت تردد وهى تمط شفتيها كأنها تقبل أحدا : « أجل .. فاتن .. فاتن ! .. ألا تراه قـد أحب ؟ .. ومن عساه أحب ؟ .. أنا ؟ ! » .

وأخذت الأدلة تنبعث أمامها ، فقفز قلبها .. وألقى وهج النار على السقف ضوءا راح يتراقص فى مرح ، وانقلبت على ظهرها باسطة ذراعيها .. وإذ ذاك بـدا الرثـاء الأبدى : « أواه .. ليت السماء دفعته إلى حبى .. ولم لا ؟ .. ما الذى يحول دون ذلك ؟ ! » .

ولاحت — حين عاد « شارل » فى منتصف الليـل — وكأنها استيقظت لتوها .. وشكت من صداع إذ أخذ يخلع ثيابه فى جلبة ، ثم سألته عرضا عما حدث فى السهرة فقال : « لقد غادرنا السيد ليون مبكرا وأوى إلى غرفته ! » .

ولم تتمالك أن ابتسمت ، ونامت ونفسها مفعمة بلون من الغبطة جديد عليها !

* * *

• وعند غروب شمس اليوم التالى ، زارها السيد «لوريه» تاجر الأقمشة . وكان بائعا ماهرا ، ولد فى (جسكونيا) ولكنه نشأ فى (نورمانديا) كأحد ابنائها ، فجمع بين لباقة أهل الجنوب وبين دهاء أهل (كو) . وكان وجهه السمين، المتهدل، الحليق ، يبدو وكأنه طلى بنقيع باهت من « العرقسوس » ، وقد زاد شعره الأبيض نظرات عينيه السوداوين الصغيرتين حدة ودهاء ! .. ولم يكن ثمة من يدرى ماضيه ، فهناك من يقول : إنه كان بائعا متجولا ، بينما يقول آخرون: إنه كان صرافا فى (روتو) .. على أن المحقق انه كان قديرا على أن يجرى فى ذهنه عمليات حسابية معقدة يدهش لها « بينيه » نفسه . وكان يغالى فى التأدب نفاقا ، فيقف محدودب الظهر كمن ينحنى للتحية او الدعوة !

وبعد ان ترك لدى الباب قبعته المحلاة بالديباج ، ووضع على المائدة صندوقا اخضر من الورق المقوى ، شرع يشكو للسيدة ـ فى ادب جم ـ من أنه لم يحظ بعد بثقتها ، قائلا : إن من الصحيح ان حانوته الفقير لم يكن اهلا لأن يجتذب « سيدة انيقة» ـ وضغط على هاتين الكلمتين ـ مثلها ، ومع ذلك فليس لها سوى أن تأمر وهو قمين بأن يوافيها بأى شىء تبغيه من الخردوات أو الثياب الداخلية او القبعات أو الكماليات ، لأنه يتردد على المدينة بانتظام اربع مرات فى الشهر ، ويتعامل مع خير متاجرها .. وتستطيع أن تسأل عنه فى « التروا فرير» ـ (الأخوة الثلاثة) ـ و «البارب دور» ـ (اللحية الذهبية)ـ و « الجران سوفاج » ـ (المتوحش الكبير) ـ فإن أصحاب هذه المتاجر جميعا يعرفونه معرفتهم لما فى جيوبهم ! ومن ثم

فهو قد جاء اليوم يعرض على السيدة ـ إذ مر بدارها ـ بضع سلع قدر له ان يحصل عليها بمحض المصادفة النادرة . ثم اخرج من الصندوق ست ياقات مطرزة، فحصتها مدام بوفارى ثم قالت : « لست فى حاجة إلى شىء ! » .. وإذ ذاك عرض فى رفق ثلاثة من شيلان الجزائر ، وعدة مجموعات من الإبر الإنجليزية ، وزوجا من النعال القش ، وأخيرا ، أربع كؤوس للبيض صنعت من لحاء جوز الهند وقد زانها نزلاء السجون بنقوش محفورة ، مفرغة. ثم اعتمد على المائدة بيديه واشرأب بعنقه ، وراح يرقب « ايما » ـ التى كانت تجول بين سلعه مترددة ـ وقد انحنى إلى الأمام وفغر فاه .. ومن وقت لآخر، كان يمس بأظفره الشيلان الحريرية المبسوطة على سعتها ـ وكأنه ينفض عنها غبارا ـ فكانت تهتز فى حفيف ضئيل ، وتبرق الخيوط المذهبة التى تتخلل نسيجها كنجوم صغيرة تومض فى ضوء الفسق الضارب إلى الخضرة .. وسألته اخيرا : « ما ثمنها ؟ » .. فأجاب : « لا شىء فى الواقع .. ثمن ضئيل لا يذكر .. ولا داعى للعجلة ، بل ادفعى حين يحلو لك .. فلسنا يهودا ! » .

وفكرت لبضع لحظات ، ثم انتهت إلى رفض ما عرض المسيو « لوريه » من جديد ، فأجاب غير آبه لرفضها : « حسنا .. سيفهم كل منا الآخر شيئا فشيئا .. لقد اعتدت دائما ان اوفق إلى ارضاء السيدات ، وإن لم افلح فى إرضاء زوجتى ! » .

وابتسمت « ايما » ، بينما استطرد قائلا فى طيبة قلب، بعد النكتة : « إنما احببت ان انبئك بأن النقود ليست بالشىء

الذى يقلقنى ، بل اننى على استعداد لان اقدم لك منها ما قد تكونين بحاجة إليه ! » .

وبدرت منها حركة تنم عن دهشة ، فبادر قائلا بصوت خفيض : « آه ، لن اضطر إلى ان اذهب بعيدا للحصول على ما تريدين ، فاركنى إلى ! » .

وتحول يسال عن الأب « تيلييه » — صاحب « المقهى الفرنسى » — الذى كان السيد « بوفارى » يعالجه « ما بال الأب تيلييه ؟ .. إنه ليسعل حتى يهز بيته باسره ، واخشى ان لا يمضى طويل وقت حتى يكون اكثر حاجة إلى كفن منه إلى صدار من « الفانيلا » ! .. لقد كان فى شبابه مسرفا فى العربدة ! .. هؤلاء الناس يا سيدتى لا يعرفون الاعتدال ، لقد أحرق نفسه بكحول الخمر .. على انه من المحزن — مهما يكن الأمر — ان يرى المرء احد معارفه يفنى ! » .

ومضى يتحدث عن مرضى الطبيب ، وهو يربط صندوقه ، ثم أردف وهو يتأمل الأرض عابسا : « ان الجو ولا ريب هو سبب هذه الأمراض . فانا الآخر اشعر بتوعك ، وما ارانى إلا مضطرا لأن استشير الطبيب يوما ما بشأن الم بظهرى . حسنا يا مدام « بوفارى » .. استودعك الله .. إنى خادمك الخاضع فى خدمتك ! » .. واغلق الباب فى رفق .

وطلبت « ايما » أن يحمل إليها العشاء على صـفحة لتتناوله إلى جوار المدفأة فى مخدعها .. وقضت وقتا طويلا فى الأكل ، إذ كانت راضية عن كل شىء .. وقالت لنفسها وهى تفكر فى الشيلان : « ما كان أحكم تصرفى ! » .

وسمعت خطى على السلم ، فادركت أن القادم «ليون»،

ونهضت فتناولت من الصوان اول صف من المنافض التى لم تثن اطرافها بعد .. فلما وصل ، بدت جد منهمكة فى العمل . ودار الحديث بينهما متراخيا ، إذ كانت مدام « بوفارى » تنصرف عنه ، بينما بدا الشاب نفسه مرتبكا .. واخـذ يقلب علبـة « الكستبان » العاجية بين اصابعه ، وهو جالس على مقعد منخفض إلى جوار المدفاة ، وهى ماضية فى التطريز ، تطوى — من آن لآخر — طرف القماش بظفرها ، دون ان تتكلم . ومن ثم لزم هو الآخر الصمت ، وقد أسره سكوتها ، كما كان من الممكن ان ياسره حديثها ! .. وقالت تحدث نفسها : « يا للشباب المسكين ! » .

على ان « ليون » لم يلبث ان قال : إنه مضطر لأن يذهب إلى (روان) يوما فى بعض مهام عمله ، واردف : « لقد انتهى اشتراكك فى الموسيقى ، فهل اجدده لك ؟ » .. فاجابت : « لا » .. وسالها : « لماذا ؟ » .. فقالت : « لأن .... » .

ثم زمت شفتيها واخذت تشد الخيط الرمادى فى غرزة طويلة .. وكان عملها هذا يضايق « ليون » ، إذ بدا انه يؤدى إلى تخشين اناملها ! .. وخطرت له عبارة رقيقة ، ولكنه لم يجرؤ على النطق بها .. بل قال : « إذن فسوف تستغنين عنها ؟ » .. فقالت : « ماذا ؟ » .. ثم أردفت بسرعة : « الموسيقى ؟ .. آه ! .. اجل ! .. اليس لدى بيتى ارعاه ، وزوجى اعنى به ، والف شىء .. وكثير من الواجبات التى يجب ان اؤديها اولا ؟ » .

ونظرت إلى الساعة ، فاذا «شارل» قد تأخر ، وإذ ذاك تظاهرت بالقلق .. بل لقد رددت مرتين أو ثلاثا : « لكم هو

طيب ! » .. وكان الكاتب يحب السيد « بوفارى » ، ولكن حنان زوجته نحوه ادهشه وساءه . ومع ذلك فقد اخذ يمتدحه ويقول : إن كل امرىء — لا سيما الصيدلي — يثنى عليه .. فعادت « ايما » تردد : « آه .. إنه طيب ! » .. واجاب الكاتب : « حقا ! » .. وشرع يتحدث عن مدام «هوميه» التى كان اسرافها فى اهمال مظهرها يثير ضحكهما ، فقاطعته « ايما » قائلة : « وما قيمة ذلك ؟ .. ان ربة البيت الصالحة لا تحفل بمظهرها » .. ثم اخلدت إلى الصمت !

وتكررت الحال فى الايام التالية .. حديثها ، ومسلكها ، وكل شيء فيها قد تغير . واخذت تبدى اهتماما بشئون منزلها، وتذهب إلى الكنيسة بانتظام ، وتحاسب خادمتها فى مزيد من الشدة . واستردت طفلتها « برت » من المرضعة . وكانت « فيليستيه » تحملها — إذا وفد ضيوف — فتخلع مدام « بوفارى » عنها ثيابها لتعرض اطرافها ، وتردد انها تعبد الاطفال وتجد فيهم عزاءها وفرحها وهيامها .. وتقرن مداعباتها للطفلة بانطلاقات شعرية كانت كفيلة بان تذكر اى فرد — عدا سكان (ايونفيل) — بساشيت فى رواية « نوتردام دى بارى »(١) .

واصبح « شارل » يجد خفيه — حين يعود إلى الدار — وقد وضعا إلى جوار المدفاة ليكتسبا دفئا!.. ولم يعد صداره يفتقد البطانة ، ولا اقمصته تعوزها الازرار .. وكان يسره

(١) كانت ساشيت راهبة تحدث عنها « فيكتور هيجو » فى روايته الخالدة : « احدب نوتردام » .

ان يرى الطاقيات فى الصوان وقد انتظمت فى صفوف متساوية الارتفاع . ولم تعد « ايما » تتذمر من المساهمة فى الحديقة كما كانت تفعل من قبل . وغدت تنفذ ما يقترح ، وان لم تفهم الرغبات التى كانت تنصاع لها دون تململ . وكان « ليون » حين يرى الزوج إلى جوار النار بعد العشاء ، ويداه على بطنه ، وقدماه على حافة المدفاة ، وخداه متضرجان من التغذية ، وعيناه نديتان لفرط هناءته ، والطفلة تزحف على البساط ، وهذه المراة ذات الخصر النحيل تسعى من خلف مقعده الوثير لتطبع على جبينه قبلة .. كان « ليون » حين يرى هذا ، يقول لنفسه : « يا له من جنون ! .. وكيف السبيل إليها ؟ ! » .

كانت باعمالها هذه تلوح له جد فاضلة وموفورة الحصانة ، حتى لقد فقد كل امل . ولكنه — بهذا التحول — انزلها مكانا غير عادى ، إذ اصبحت فى نظره مجردة من مفاتنها البدنية التى لم ينل منها شيئا ، ومن ثم اخذت تسمو فى قلبه ، وتبعد عن متناوله كروح الهية تحلق عاليا ! .. وداخله شعور من تلك المشاعر الطاهرة التى لا تمت إلى الحياة الدنيوية ، والتى يتعهدها المرء فى نفسه لانها نادرة ، ويخلف فقدها من الحزن اكثر مما يضفيه من اللذات !

واخذت « ايما » تزداد نحولا ، وخداها يزدادان شحوبا ، ووجهها يستطيل . الم تصبح بشعرها الاسود ، وعينيها الواسعتين ، وانفها الاقنى ، ومشيتها التى تشبه حجل الطير ، والسكون الذى اصبحت تخلد إليه .. أو لم تكن تبدو — بهذا كله — وكانها تجتاز الحياة ولا تكاد تمسها ،



وهذه المرأة ذات الخصر النحيل تسعى من
خلف مقعده الوثير لتطبع على جبينه قبلة

وتحمل على جبينها ميسم مصير قدسى ؟ ! .. كانت جد حزينة وهادئة ، وقد غدت فجأة جد رقيقة ومتحفظة ، حتى ليشعر المرء إلى جوارها بأن فتنة جليدية استولت عليه .. كما يحدث لنا فى الكنائس حين يبعث أريج الزهور فى امتزاجه ببرودة الرخام قشعريرة فى ابداننا ! .. بل إن الآخرين لم يفلتوا من هذه الفتنة ، حتى لقد قال الصيدلى : « انها امرأة عظيمة المواهب .. ما كان ينبغى أن تعيش فى بلدة صغيرة ! »

وكانت ربات البيوت يعجبن باقتصادها ، والمرضى يعجبون بادبها ، والفقراء ببرها .. ولكنها كانت تحترق بالشهوات ، والغيظ ، والبغضاء ! .. كان هذا الثوب المستقيم الثنايا ، يخفى قلبا حائرا ، لا تنفرج تلكما الشفتان العفيفتان عن شىء من عذابه .. كانت تهوى « ليون » وتنشد العزلة لتسعد بطيفه فى طمأنينة ! .. وكانت رؤية شخصه تعكر عليها متعة نجواها ! .. كانت تهتز طربا لوقع خطواته ، ثم يخمد الانفعال فى حضوره ، ولا يتبقى لها بعد ذلك سوى دهشة عارمة تنتهى إلى أسى طاغ !

* * *

● ولم يكن « ليون » يعلم أنها كانت — إذا غادرها قانطا — تنهض بعد انصرافه لترقبه فى الطريق .. وانها كانت تشغل بتتبع روحاته وغدواته ، بل إنها لفقت قصة محبوكة لتجد عذرا يبرر لها زيارة غرفته .. وبدت لها زوجة الصيدلى سعيدة لأنها تنام تحت السقف الذى يأويه ! .. واخذت افكارها تحوم دائما حول ذلك البيت ، كحمائم فندق « الأسد الذهبى » التى كانت تأتى لتغمس ارجلها الوردية واجنحتها البيضاء فى مياه ميازيبه ، على ان

« ايما » كانت تزداد كبتا لحبها كلما ازدادت ادراكا له ، حتى لا يتجلى واضحا ، وحتى تستطيع أن تضعفه ! .. كانت تود ان يحدسه « ليون » من تلقاء نفسه ، وتتصور ما يمكن ان ييسر ذلك من مصادفات وكوارث . وما كان مانعها من الاتيان بالخطوة الأولى سوى الكسل ، والخوف .. وشعور بالحياء ايضا ! .. وخيل إليها انها قد تمادت فى صده حتى فوتت الفرصة وضيعت كل شىء .. وإذ ذاك ، كانت تجد فى الكبرياء ، وفى البهجة التى تراودها إذ تملك ان تقول لنفسها : « انا امرأة فاضلة » ، وان تتأمل نفسها فى المرآة متخذة أوضاع الإذعان والاستكانة .. كانت تجد فى كل هذا عزاء بعض العزاء عن التضحية التى اعتقدت انها كانت تقوم بها !

ثم اخذت شهوات الجسد ، وجشع المال ، واشجان العاطفة ، تختلط جميعا فى نوع واحد من العذاب ، كانت تزداد استكانة إليه — بدلا من أن تنتزع نفسها منه — مستحثة نفسها على الشعور بالالم ، باحثة فى كل مكان عن فرصة لذلك . فكانت تنفعل إذا أسىء تقديم صنف من الطعام ، او إذا رات بابا منفرجا ، وتندب ما لا تملكه من مخمل ، وما ينقصها من سعادة ، وما يبعد عن متناولها من احلام ، وما كان عليه بيتها من ضيق !!

واغاظها ان « شارل » لم يبد اى انتباه إلى عذابها .. وبدا لها اعتقاده بانه حقق لها كل سعادة إهانة وقحة ، واطمئنانه إلى هذا الاعتقاد جحودا .. فمن اجل من إذن كانت عفتها وفضيلتها ؟ ! .. او لم تكن من اجله هو ؟ ! .. هو الذى كان حجر العثرة فى سبيل كل سعادة ، والسبب فى كل

تعاسة .. والذى كان كالمحبس المدبب يحكم إغلاق ذلك الطوق المعقد اللعين الذى يطبق عليها من كافة النواحى ! .. لذلك صبت عليه وحده كل تلك الأحقاد العديدة التى تجمعت من ضيقها ، وكان كل مجهود للتخفيف من هذه الأحقاد إنما يضاعفها ، إذ كان المجهود الضائع يضيف سببا جديدا لخيبة الأمل ، ويزيد الهوة بينهما عمقا ! .. وكان تلطفها مع نفسها يزيدها تمردا على زوجها ، وضعة حياتها المنزلية تدفعها إلى احلام ملؤها البذخ ، كما كانت الملاطفات الزوجية تسلمها إلى شهوات داعرة ! .. ولكم ودت لو ان « شارل » ضربها حتى تجد مبررا لأن تكرهه وتعمل على الانتقام لنفسها منه ! .. وكانت تذهل احيانا للخيالات الفظيعة التى كانت تراود خاطرها . ومع ذلك لم يكن هناك بد من ان تستمر فى الابتسام ، وأن تسمع الادعاء بأنها سعيدة يردد على مسمعها فى كل الأوقات ، وأن تتظاهر بالسعادة ، وتدع سواها يعتقد انها سعيدة !

على انها كانت تشعر باشمئزاز من هذا النفاق . وتملكها إغراء راح يزين لها الفرار إلى مكان ما ، مع « ليون » ، لتبدأ حياة جديدة .. ولكن هوة غامضة مفعمة بالظلام ، كانت لا تلبث ان تنشق فى اعماقها ، فتذهب تردد لنفسها : « ثم إنه — إلى جانب هذا — لم يعد يحبنى ، فماذا يصيبنى ؟ .. اى عون يرجى .. اى عزاء .. اية تسرية ؟ » .. وتخرج من هذا كله محطمة ، لاهثة ، عاجزة ، فتنتحب فى صوت خفيض ، ثم تنساب دموعها مدرارة !

وكانت الخادم تسالها إذا اقبلت عليها خلال هذه الأزمات: « لم لا تخبرين السيد بهذا ؟ » .. نتجيبها « ايما » : إنها الأعصاب ! .. لا تخبريه ، حتى لا تتولاه الهموم » .

وتقول « فيليسيتيه » : « آه ، حسن ! .. انك مثل « لاجيرين » ابنة الأب «جيران» صياد السمك فى (بوليه) — التى كنت اعرفها فى (دييب) قبل ان آتى اليكما .. كانت جد حزينة ، مفرطة الحزن ، حتى ليخالها المرء — حين يراها على عتبة دارها — كفنا مبسوطا امام الباب ! .. وكان مرضها على ما يبدو نوعا من الضباب ينتشر فى رأسها . ولم يستطع الأطباء ، ولا القس ، أن يفعلوا شيئا .. وكانت إذا اشتدت بها نوبات المرض تذهب وحيدة إلى شاطىء البحر ، فكان ضابط الجمرك يراها كثيرا — اثناء طوافه — منكفئة على الحصى تبكى. ثم قيل إنها شفيت بعد الزواج » !

وتعقب « ايما » قائلة : « اما انا ، فقد بدأ مرضى بعد الزواج » !!

الفصل السادس

● بينما كانت «ايما» جالسة إلى جوار النافذة المفتوحة ، فى احدى الأمسيات ، رأت « ليستيبودوا » — الشماس — يشذب اغصان حديقة القس .ولم تلبث أن سمعت الناقوس يدق معلنا صلاة المساء ..

وكان ذلك فى اوائل ابريل ، حين تتفتح البراعم ، وتهب ريح دافئة على احواض الزهور التى تم حرثها منذ عهد قريب .. والحدائق تبدو كالنساء تتزين لأعياد الصيف . ومن بين اعمدة العرائش ، وحولها من كل النواحى ، كان النهر يرى فى الحقول ، هائما بين العشب فى انحناءات مرتجلة .. وابخرة المساء تتصاعد بين اشجار الحور المجردة من أوراقها، تضفى على إطارها لونا بنفسجيا ، اشد شحوبا وشفافية من شاش رفيع يعلق بين اغصانها .. وكانت الماشية تبدو عن بعد وهى تتحرك دون أن يسمع لها خطو ولا خوار .. والناقوس ماض فى رنينه ، ناشرا فى الهواء شجاه وحزنه الوديع !

وعلى رنين دقاته المتواترة ، هام فكر السيدة الشابة فى ذكرياتها القديمة ، أيام الشباب والدراسة فى الدير . فتذكرت الشمعدانات الضخمة التى كانت تبدو من وراء الأوانى المليئة بالأزهار فوق المذبح ، والهيكل المقدس ذا الأعمدة الصغيرة .. وتمنت لو انها ظلت كما كانت إذ ذاك ، تائهة وسط صف الأوشحة البيضاء الذى كانت تتخلله — هنا وهناك — بقع سوداء متناثرة تمثل محارم الراهبات المنحنيات

فوق المراكع .. ثم قداسات ايام الأحد ، حين كانت ترفع راسها اثناء الصـلاة فتلمح وجه العذراء العذب ، وسـط غلالات الدخان المائلة إلى الزرقة ، التى كانت تتصاعد من المباخر ! .. إذ ذاك جاشت عواطفها ، فأحست بأنها ضعيفة ، مهجورة ، كريشة فى مهب العاصفة .. وسعت — دون وعى منها — إلى الكنيسة ، تواقة إلى أية فرائض تتاح لها ، كى تذيب روحها فيها .. فيتلاشى الوجود !!

والتقت فى الميدان المؤدى إلى الكنيسة باليستيبودوا عائدا .. فقد كان يؤثر أن يوقف عمله ثم يستأنفه ، بدلا من أن يتحيف ساعات العمل اليومية .. حتى لقد كان يدق الناقوس لصلاة المساء كما يلائمه .. فضلا عن أن دقه مبكرا عن موعده كان ينبه الصبية إلى موعد درس الدين !

وكان بعض الصبية قد وصلوا فعلا ، وراحوا يلعبون « البلى » على بلاط المقابر ، ويهزون أرجلهم فيحصدون بأحذيتهم زهور « بنات النار » التى نمت بين السور والمقابر المتاخمة له .. هذا هو المكان الوحيد الذى تشيع فيه الخضرة . اما ما عداه، فلم يكن سوى احجار يكسوها دواما غبار ناعم ، رغم مكنسة الشماس ! .. وكان الصبية يعدون فى أرجاء المكان باحذيتهم ذات الأعناق الطويلة ، وكأنه ساحة اعدت لهم ، واصواتهم تعلو خلال رنين الناقوس الذى اخذ يخفت رويدا تبعا لاهتزازات الحبل الطويل الذى كان يتدلى من البرج ، فيتجرر طرفه على الأرض .. واخذت بعض الطيور تحوم ، مرسلة صرخات رفيعة ، وتشق الهواء بحواف اجنحتها ، ثم ترتد فى رشاقة إلى اعشاشها الصفراء ، تحت

قرميد حافة البناء البارزة .. وفى أقصى الكنيسة كان ثمة مصباح يتقد ، او بالأحرى فتيلة فى زجاجة معلقة يلوح ضوؤها من بعيد كهالة بيضاء تهتز فوق الزيت .. بينما امتد شعاع طويل من الشمس عبر صحن الكنيسة كله ، فزاد من ظهور الظلام جانبيها واركانها ..

وسألت مدام « بوفارى » صبيا كان يلهو بهز مزلاج الباب فى عروته الواسعة : « أين القس ؟ » .. فأجاب الصبى : « هاهو ذا قادم » .

وبالفعل ، انبعث صرير من باب مسكن القس .
وما لبث الأب « بورنيزيان » أن ظهر ، فهرع الأطفال إلى الكنيسة فى هرج .. وتمتم القس : « يا لهؤلاء الأوغاد ! .. إنهم دائما على هذه الحال ! » .. ثم التقط نسخة مهلهلة من كتاب الصلوات تعثرت فيها قدمه ، وقال : « إنهم لا يحترمون شيئا ! » .

على انه لم يكد يلمح مدام « بوفارى » حتى هتف : « معذرة ! .. لم اتبينك ! » .. ودس كتاب الصلوات فى جيبه ، ووقف وهو يعبث بمفتاح الهيكل الثقيل يحاول أن يوازنه بين أصبعيه .. وفى ضياء غروب الشمس المنصب على وجهه ، بدا مسوحه الصوفى حائل اللون ، لامعا عند المرفقين ، باليا عند الذيل .. وكانت بقع الدسم والتبغ تتناثر على صدره العريض موازية لصف الأزرار الصغيرة ، ثم تتكاثر عند فتحة العنق التى ارتكزت عليها ثنايا من جلد ذقنه الأحمر ، المتهدل ، الذى تناثرت فيه بقع صفراء توارت تحت شعر لحية خشنة وخطها المشيب .. وكان قد فرغ لتوه من

تناول العشاء ، فراح يتنفس بصـوت مسـموع .. وعاد يقول : « كيف حالك ؟ » .

فأجابت « ايما »: « ليست طيبة .. اننى مريضة !».. ورد القس قائلا : « وانا كذلك .. إن ايام الحر الأولى هذه تضعف المرء بدرجة عجيبة .. اليست كذلك ! .. لكنا على كل حال خلقنا لنتعذب ، كما يقول بولس الرسول . ولكن ، ما راى السيد بوفارى فى مرضك ؟ » .

فبدرت منها حركة ازدراء ، وقالت : « هو ؟ ! » .. فقال الرجل الطيب وقد أخذته الدهشة : « ماذا ؟ .. أو لم يصف لك دواء ؟ » .

فقالت « ايما » : « آه .. ليس الذى احتاج إليه بعلاج دنيوى ! » .

ولكن القس كان ينظر من آن إلى آخر نحو الكنيسة ، حيث ركع الأطفال واخذوا يتدافعـون بالمناكب ، ويتهاوون كرقع من الورق ..

ومضت « ايما » تقول : « اريد ان أعرف .. » .

وهنـا صـاح القس فى صـوت غاضب : « حذار يا ريبوديه .. لسوف الهب اذنيك أيها الشيطان ! » .. ثم قال إذ تحول نحو « ايما » : « أنه ابن بوديه النجار .. والداه فى يسر ، ولذلك يتركانه يفعل ما بدا له .. على ان بوسعه ان يتعلم بسرعة لو انه اراد ، فهو شديد الذكاء .. وكيف حال السيد بوفارى ؟ » .

ولاح انها لم تكن تسمعه ، فاستطرد قائلا : « لا ريب

انه جم المشاغل دائما .. فهو وانا اكثر النـاس عمـلا فى الأبرشية .. وهو طبيب الأجسـام » .. ثم اردف وهو يطلق ضحكة اجشة : « وانا طبيب الأرواح ! » .

وحدجتـه « ايما » بعينين ضـارعتين وهى تقول : « اجل .. انك تخفف الأحزان ! » .

ــ « آه يا مدام بوفارى .. لا تحدثينى عن ذلك ، فقد اضطررت فى هذا الصباح إلى الذهاب إلى (باديوفيل) من اجل بقـرة كانت مريضة ، فظنـوا انها كانت تحت تأثير الشيطان .. كل ابقارهم هكذا ، وإن لم ادر لهـذا مبررا ! ولكن ، معذرة .. » ثم التفت نحـو الصـبية وصـاح : « لونجمار وبوديه .. هلا كففتما عن هـذا ؟ » .. وقفز مسرعا إلى داخل الكنيسة .

وكان الصبية قد تجمعوا حول القمطر الكبير ، وتسلقوا مقعد المنشد ، وفتحوا كتـاب القداس ، بينما اخذ بعضهم يتسلل خلسة حتى كاد يبلغ جوف « مقصورة الاعتراف » .. ولكن القس انهال عليهم فجاة بوابل من الصفعات ، ممسكا بتلابيب ستراتهم ، وأخذ يرفعهم عن الأرض ثم يهبط بهم على ركبهم فوق بلاط ساحة المذبح بشدة ، كما لو كان يريد ان يغرسهم فيها !

وقال حين عاد إلى « ايما » وهو ينشر منديله القطنى، ويمسك بأحد اطرافه بين اسـنانه : « اجل .. ما اجـدر المزارعين بالرثاء ! وغيرهم ايضا ! » .

ــ بالتاكيد .. هناك عمال المدن مثلا .

ــ لست اقصدهم ...

— عفوا ! .. لقد عرفت بينهم أمهات بائسات يعلن اسرات .. ونساء فاضلات — بل أؤكد لك انهن قديسات فعلا — لا يجدن الخبز !

فقالت « ايما » وقد اخذ جانبا فمها يختلجان وهى تتكلم : « ولكن اولئك .. اولئك اللاتى يجدن الخبز يا سيدى القس ، ولا يجدن ... » .

قال : « النار فى الشتاء » ؟ !

— اواه .. وما قيمة هذا ؟

— ماذا ؟ .. ما قيمته ؟ .. يخيل إلى انه إذا ما وجد المرء الدفء والغذاء .. إذ .. على كل حال ..

فتنهدت قائلة : « يا الهى ! يا الهى ! » .

— انك تعانين من عسر هضم ولا ريب .. يجب ان تعودى إلى دارك يا مدام « بوفارى » فتشربى قليلا من الشاى ، فانه يقويك .. أو تناولى كوبا من الماء البارد المزوج بمحلول السكر المركز (السكر المعقود) .

وتساءلت « ايما » وقد بدت كمن يفيق من حلم : « لماذا ؟ » فقال : « ذلك لانك كنت تضعين يدك على جبينك فخيل إلى انك تشعرين بدوار » .. ثم استدرك قائلا : « ولكنك كنت تسألينني عن شىء .. فما هو ؟ .. إننى لا اذكره » .

فرددت « ايما » : « انا ؟ .. لاشىء ! لاشىء ! » .. ووقع بصرها — إذ اجالته ببطء فيما حولها — على مسوح القس .. ثم عاد كل منهما يحدق فى الآخر صامتين . وما لبث ان قال فى النهاية : « والآن معذرة يا مدام بوفارى ، فان

الواجب قبل كل شىء ، كما تعلمين ، ولابد من ان اتولى علاج تلاميذى هؤلاء الذين لا يصلحون لشىء ، فان حفلة « التناول » الاولى قادمة عما قريب ، واخشى ان تدهمنا ولما نستكمل استعدادنا .. ولذلك استبقيهم ساعة بالاضافة إلى الفترة المحددة للدرس فى يوم الأربعاء من كل أسبوع ، منذ عيد الصعود ، فى مواظبة قاسية .. يا للمساكين ! .. إن المرء لا يملك ان يرشدهم بسرعة كبيرة إلى طريق الرب ، كما اوصانا هو بذاته على لسان ابنه القدوس .. لك تمنياتى يا سيدتى بالصحة الجيدة ، ولزوجك احتراماتى ! » .

ودلف إلى الكنيسة وهو يثنى ركبته احتراما عند الباب .. وراته « ايما » يغيب بين صفى المقاعد ، وهو يسير بخطى ثقيلة ، وراسه مائل على كتفه قليلا ، ويداه مبسوطتان ، وقد اخرجهما من المسوح .. وما لبثت أن دارت على كعبيها بكل جسمها — قطعة واحدة — كتمثال على قاعدة تدور ، ويممت شطر بيتها . غير أن صوت القس المرتفع ، واصوات الأطفال الصافية ، ظلت تصل إلى اذنيها وتلاحقها .. « هل انت مسيحى ؟ » .. « نعم ، انا مسيحى » .. « ومن هو المسيحى؟ » .. « هو ذلك الذى عمد .. عمد .. عمد »!!

وصعدت درجات السلم متشبثة بالحاجز (الدرابزين) ، حتى إذا بلغت حجرتها القت بنفسها فى مقعد مريح .. وكان الضوء الشاحب المنساب خلال زجاج النافذة يهبط فى تموجات خفيفة .. ولاحت قطع الأثاث فى أماكنها اكثر جمودا مما هى عادة ، واشد تواريا فى الظلال وكانها تغوص فى بحر من الظلمات .. والمدفأة مطفأة ، والساعة سادرة فى دقاتها .

وساور « ايما » عجب غامض لهذا الهدوء الذى يسود كل
الأشياء ، بينما يفعم جوفها باضطراب صاخب ! .. وفطنت
إلى ان « برت » الصغيرة كانت هناك — بين النافذة ومنضدة
الحياكة — تتأرجح على حذاءيها المنسوجين باليد (تريكو) ،
وتحاول ان تسعى إلى أمها لتمسك بأطراف اشرطة مرولتها ..
فقالت وهى تنحيها بيدها : « دعينى وشأنى ! » .

على أن الصغيرة لم تلبث ان اقتربت من ركبتى امها ،
فاستندت إليهما بذراعيها ، وتطلعت بعينيها الزرقاوين
الواسعتين ، وقد انساب من بين شفتيها خيط صغير من
اللعاب اخذ يتساقط على مرولتها الحريرية .. فكررت
الشابة فى ضيق : « دعينى وحدى ! » .. وافزع وجهها
الطفلة ، فاخذت تصرخ .. ولكزتها الأم بمرفقها قائلة :
« هلا تركتنى وحيدة ؟ » .. وسقطت « برت » عند قاعدة
الصوان ، فشق مقبض الدرج النحاسى خدها ، الذى شرع
ينزف دما . ووثبت مدام « بوفارى » ترفعها ، وقطعت
حبل الجرس ، فنادت الخادم باعلى صوتها .. وعندما
همت بأن تلعن نفسها ، ظهر « شارل » ، إذ كانت ساعة
العشاء قد حانت ، فعاد إلى البيت ..

وقالت «ايما» فى صوت هادىء : « انظر يا عزيزى ! ..
لقد وقعت الصغيرة وهى تلعب ، فجرحت نفسها » ..
فطمأنها «شارل» إلى ان الامر ليس خطيراً ، وذهب ليحضر
بعض الضمادات اللاصقة (البلاستر) .

ولم تهبط مدام « بوفارى » إلى قاعة الطعام ، إذ
رغبت فى ان تخلو للعناية بالطفلة . وإذ اخذت ترقبها وقد

نامت ، زايلها رويدا ما احست به من قلق ، وبدا لها انها
كانت غبية وساذجة إذ داخها كل ذلك الانزعاج لامر بسيط
كهذا . فالواقع ان « برت » لم تعد تشهق بنهنهة البكاء ،
بل ان انفاسها اخذت ترفع فى رفق الغطاء القطنى الذى
اسبغته عليها امها .. وعلقت قطرات كبيرة من الدموع
بأركان اجفانها المغمضة ، التى كان المرء يلمح بين اهدابها
حدقتين شاحبتين ، غائرتين .. والضمادة اللاصقة بخدها
تشد جلدها فى خط منحرف . وعبر خاطر ببال « ايما »
فقالت لنفسها : « ايما » يا عجبا ! .. ما اقبح هذه
الطفلة ! » .

وعندما عاد « شارل » فى الساعة الحادية عشرة من
الصيدلية — حيث كان قد ذهب بعد العشاء ليرد ما تبقى من
الضمادة اللاصقة — وجد زوجته تقف إلى جوار المهد ، فقال
وهو يقبل جبينها : « قلت لك إنها إصابة تافهة ، فلا تنزعجى
يا حبيبتى المسكينة ، وإلا أسلمت نفسك للمرض » .. وكان
قد مكث طويلا فى بيت الصيدلى ، إذ جهد « هوميه » فى
التسرية عنه وتقوية روحه المعنوية ، رغم انه لم يبد كثيرا من
القلق والتأثر .. ثم اخذوا يتحدثون عن الأخطار العديدة التى
يتعرض لها الأطفال ، وعن إهمال الخدم . وكانت مدام
« هوميه » على دراية بشىء من هذا ، إذ كان صدرها لا يزال
يحتفظ بآثار وعاء ملىء بالحساء الساخن ، أسقطته طاهية
على صدر مرولتها فيما مضى ، فتجشم ابواها من اجلها
متاعب لما تكد تنتهى ! ومن ثم اصبحت السكاكين — فى منزل
الصيدلى — لا تشحذ قط ، والأرض لا تدهن بالشمع ،

واقيمت قضبان على النوافذ ، وقضبان أخرى متينة من
الحديد أمام المدفأة .. وكذلك أصبح أبناء « هوميه »
لا يكادون — رغم حريتهم — يتحركون دون رقيب يرعاهم .
وكان أبوهم « يحشوهم » بأدوية الصدر عند أتفه إصابة
بالبرد .. كما كانوا — حتى سن الرابعة — يقسرون فى غير
إشفاق على ارتداء طاقيات من الوبر .. وكان هذا تطرفا من
مدام « هوميه » فى الواقع ، مما كان يبعث فى نفس زوجها
قلقا ، إذ كان يخشى آثار مثل هذا الضغط على أجهزة الرأس ،
حتى لقد كان يقول لها أحيانا : « أتريدين أن تجعلى منهم فرقة
من الهنود الحمر أو من قبائل حوض البحر الكاريبى ؟ ! » .

وحاول « شارل » أن يقطع الحديث أكثر من مرة ،
فهمس فى أذن الكاتب : « أود أن أتحدث إليك فى أمر » ..
فتقدمه الكاتب صاعدا السلم وهو يسائل نفسه : « أتراه قد
حدس شيئا ؟ » .. وأخذ قلبه يخفق ، وراح يرهق ذهنه
بالافتراضات .. وأخيرا ، رجاه « شارل » — بعد أن
أغلق الباب — أن يسأل بنفسه فى (روان) عن ثمن صورة
فوتوغرافية بديعة ، إذ كان يود أن يعد لزوجته مفاجأة
عاطفية .. لفتة رقيقة تتمثل فى صورة له وهو يرتدى الحلة
السوداء . ولكنه أراد أولا أن يعرف كم تتكلف .. وما كان
السؤال ليضايق السيد « ليون » فى شىء ، إذ كان يذهب
إلى المدينة فى كل أسبوع تقريبا .

ولكن .. لماذا « ليون » بالذات ؟ ! .. حدس السيد
« هوميه » أن وراء المسألة مغامرة من مغامرات الشباب ..
أو مؤامرة ! .. ولكنه كان مخطئا ، إذ أن السيد « ليون »

لم يكن يسعى إلى غرام .. بل إنه كان أكثر اكتئابا منه فى أى
وقت مضى ، كما لمست ذلك مدام « لوفرانسوا » من كمية
الطعام التى أصبح يتركها فى طبقه . وقد سألت محصل
الضرائب عله يزيدها علما وإيضاحا ، ولكن « بينيه » أجابها
فى جفاء بأنه « لا يعمل فى البوليس ! » .

ومع ذلك ، فقد لاح له زميله فى حال جد غريبة ، إذ
كثيرا ما كان « ليون » ينطرح فى مقعده ، ويمد ذراعيه ،
ويشكو من الحياة فى أسلوب غامض ! .. وقد قال له
المحصل : « إنما يرجع ذلك إلى أنك لا تحصل على نصيب
كاف من الراحة والتسلية » ..

— أية تسلية ؟

— لو كنت فى مكانك لهويت العمل بالمخرطة ..

قال الكاتب : « ولكنى لا أعرف كيف أديرها » ..
فرد الآخر وهو يحك ذقنه فى مزيج من الترفع والرضا :
« آه .. هذا صحيح ! » .

❊ ❊ ❊

● كان « ليون » قد برم بالحب الذى لا غاية له ، ثم
بدأ يشعر بذلك الضيق الذى يسببه مضى الحياة على وتيرة
واحدة متكررة ، دون ما هدف يوجهها ، أو أمل يعززها .
واشتد به الملل من « ايونفيل » وأهلها ، حتى أصبحت رؤيته
بعض الأشخاص والبيوت ، تثيره إلى درجة لم يعد
يتحملها ! .. وقد كان الصيدلى رجلا طيبا ، إلا أنه أصبح
لا يطيقه البتة .. ومع ذلك فإن التفكير فى نوع جديد من
الحياة كان يفزعه بقدر ما كان يستهويه ! .. وتحولت هذه

الهواجس بعد قليل إلى نفاد صبر ، وإذ ذاك اخذت باريس
تناديه – على البعد – بضجيج حفلاتها الراقصة الصاخبة ،
وضحكات عاملاتها اللعوبات ! .. وإذ كان لابد له من أن
يتم دراسته القانونية هناك ، فلماذا لا يرحل إليها لتوه ؟ ..
وما الذى يمنعـه ؟ .. وشرع يعـد متاعه ، ودبر أعماله
مقدما ، وأثث فى خياله مسـكنا يعيش فيه حيـاة فنان ..
فيتلقى دروسا فى العزف على « الجيتار » ، ويقتنى « روب
دى شـامبر » ، وقلنسـوة على غرار قلنسـوات أهـل
(الباسك) ، وخفين من المخمل الأزرق ! .. بل إنه بـدأ
يتصـور فى إعجاب سيفين متقاطعين فـوق مدفأة مسـكنه
وفوقهما « جيتار » تعلوها جمجمة !

وكانت العقبة تنحصر فى الفوز بموافقة أمه .. على
انه لم ير ما هو احكم من هذا التدبير .. بل إن رئيسه نفسه
نصحه بأن يلتحق بمكتب آخر يستطيع فيه أن يحرز تقدما
سريعا فى مرانه ودراسته . وإذ ذاك ، انتهج « ليـون »
طريقا وسطا ، فأخـذ يبحث عن مكتب فى (روان) يقبله
ككاتب ثان ، فلما لم يجـد ، كتب إلى امه فى النهاية خطابا
طويلا مسهبا شرح فيه اسباب مبادرته للرحيل إلى باريس
والإقامة فيها .. فوافقت ! .. على انه لم يتعجل .. وظل
« هيفير » شهرا باكمله يحمل معه كل يوم من (ايونفيل) إلى
(روان) ، ومن (روان) إلى (ايونفيل) صناديق ، وحقائب،
وحزما .. حتى إذا اعد « ليون » ثيابه ، وجدد حشو مقاعده
المريحة الثلاثة ، واشترى عددا من ربطات العنق ، وقام –
بالاختصار ! – باستعدادات تفوق ما يلزم لرحلة حـول

العالم ، اخذ يرجىء سفره من اسبوع إلى آخر ، حتى تلقى
من امه خطابا ثانيا تسـتحثه فيه على الرحيـل ما دام قد
اعتزم أن يتقدم للامتحان قبل موسم العطلات .

وعندما حانت ساعة الوداع ، بكت مدام « هوميه » ،
وانتحب « جوسـتان » ، واخفى « هوميه » تأثره – كرجل
قوى الأعصـاب ! – ورغب فى ان يحمل بنفسـه معطف
صديقه حتى باب مكتب الموثق الذى كان سيقل « ليون » فى
عربته إلى (روان) . ولم يتبق لليون سوى لحظـات يودع
فيها السيد « بوفارى » . فلما بلغ قمة السلم ، توقف وقد
تتابعت انفاسه لاهثة .. وإذ دلف إلى المكان ، نهضت مدام
«بوفارى» فى عجلة ، فقال ليون : « ها انذا مرة اخرى » ..
فقالت : « كنت متأكدة من هـذا » .. وعضت شـفتيها ،
واندفع فيض من الدماء خلال بشرتها فاصطبغت – من منابت
شعرها حتى طوق ثوبهـا – بالحمـرة . وظلت واقفة ،
مستندة بكتفها إلى الخشب الذى كان يكسو الجدار .. بينما
مضى متسائلا : « هل الطبيب هنا ؟ » .. فأجابت : « انه فى
الخارج .. فى الخارج ! » .. ثم سادهما صمت .. واخذ
كل منهما يرمق الآخر ، وقد رزحت افكارهما تحت ألم واحد ،
متعانقة كصدرين ينبضان .. ثم قال « ليون » : اود أن اقبل
« برت » .. فهبطت « ايمـا » بضـع درجـات ونـادت
« فيليسيتيه » .. والقى نظـرة طويلة على ما حـوله من
جدران ، وزخارف ، ومدفأة ، وكأنه ينفذ خـلال كل شىء ،
ويحمل معه كل شىء ! .. وعادت الخادم تحمل « برت » وهى
تهز طاحونة هواء صغيرة مقلوبة رأسا على عقب ومعلقة فى

خيط . وطبع « ليـون » عدة قبـلات على عنقها وغمغم :
« فى رعاية الله أيتها الطفلة المسكينة ! .. استودعك الله
أيتها الصغيرة الحبيبة ! .. وداعا ! » .. ثم ردها إلى امها ،
فقالت للخادم : « اخرجى بها » .. وبقيـا وحيدين ، وقد
اولته مدام « بوفارى » ظهرها ، والصقت وجههـا بزجـاج
النافذة .. بينما امسك « ليون » بقلنسوته يضرب بها فخذه
برفق ..

وقالت « ايما » : « السـماء ستمطر ! » .. فأجاب :
« لدى معطف » .. قالت : « آه » .. ثم استدارت ، وقد
خفضت ذقنها ، فبرز جبينها ، وسقط عليه الضـوء ــ كما
يسقط على قطعة من مرمر ــ فانحدر حتى حاجبيها ، دون
ان يملك المرء ان يحدس ما كانت « ايما » تراه عند الأفق ،
ولا ما كان يجول فى سريرتها .. وما لبث « ليون » ان تنهد
قائلا : « والآن .. وداعا ! » .. فرفعت « ايما » رأسـها
بحركة سريعة وقالت : « اجل ، وداعـا .. اذهب ! » ..
وتقدم كل منهما نحـو الآخر ، ومد يده ، ولكنها ترددت .. ثم
قالت وهى تسلمه يدها ، وتغتصب ضحكة : « فليكن على
الطريقـة الإنجليـزية إذن ! » .. وتحسـس « ليـون »
راحتها بين اصابعه ، ولاح له ان روح كيانه كله قد انسابت
إلى يدها الرطبـة .. ثم فتح يده ، وتلاقت اعينهما مـرة
اخرى .. ثم اختفى ! .. حتى إذا بلغ السوق ، انحـرف
متواريا خلف عمود ، وتزود بنظرة أخيرة من البيت الأبيض
ذى النوافذ الخضراء .. وخيل إليه انه راى طيفا خلف نافذة
حجرة « ايما »، ولكن الستارة انسابت على مشجبها ، وكأن

شخصا اخذ يزحزحها ، فراحت تنسدل رويدا ناشرة ثنياتها
الطويلة المائلة ، ثم انبسطت كلها أمام النافذة ، وظلت مسدلة
فى استقامة ودون ما حراك ، كجدار من الجص !

وانطلق « ليون » يعدو .. ورأى عن بعد عربة رئيسه
على الطريق ، وإلى جوارها رجل فى مرولة سميكة ، يمسك
بالجواد .. وكان «هوميه» والسيد «جويومان» يتحدثان ..
ريثما يصل ! .. وقال له الصـيدلى والدمـوع تترقرق فى
عينيه : « قبلنى ! هاك معطفك يا صـديقى العزيز .. خذ
حذرك من البرد ، واحترس لنفسك .. اعتن بنفسك ! » .
وقال موثق العقود : « هيا يا ليون .. اصعد ! » .. وانحنى
« هوميه » على « رفرف » العربـة ، ونطق بهاتين الكلمتين
الحزينتين بصوت يقطعة النشـيج : « رحلة سارة ! » ..
فأجابه السيد « جويومان » : « عم مساء ! » .

وتحركت العربة .. وقفل « هوميه » عائدا .

❋ ❋ ❋

● كانت مدام « بوفارى » قد فتحت النـافذة المطلـة
على الحديقة واخذت ترقب السحب ، فاذا هى تتجمع حول
الشمس الغاربة فى اتجاه (روان) ، ثم تطوى بسرعة ذيولها
السوداء ، فتندفع من ورائها خيوط الشمس الطويلة كأنها
سهام من ذهب فى درع معلقة ، بينما كانت بقيـة السـماء
خالية ، بيضاء كالخزف .. على أن الريح لم تلبث أن هبت
فأحنت هامات شجر الحور ، ثم سقط المطر فجأة ، واخذت
قطراته ترتطم بالورق الأخضر فى صـوت مسـموع .. ثم
عادت الشمس إلى البزوغ ، فانبعث صوت الدجاج ، واخذت

الطيور تنفض اجنحتها وسط الأعشاب الكثيفة المخضلة ، وحملت المياه معها وهى تنحدر على الحصباء زهور اللبخ الوردية ..

وحدثت « ايما » نفسها قائلة : « آه ! .. ما ابعد المسافة التى يكون ولابد قد قطعها الآن ! » .

وجاء السيد « هوميه » فى منتصف السابعة ، اثناء تناول العشاء — كعادته — وقال : « لقد ودعنا صديقنا الشاب ! » .. فقال الطبيب : « علمت بذلك » .. ثم دار فى مقعده وقال : « هل من انباء عن الأسرة ؟ » .

— لاشىء يستحق الذكر ، اللهم إلا ان زوجتى كانت متأثرة بعد ظهر اليوم .. انت تعرف النساء .. يتأثرون لأتفه الأمور ولا سيما زوجتى .. ونخطىء لو اننا عارضنا ذلك ، إذ ان جهازهن العصبى أرق من جهازنا !

وقال شارل : « مسكين ليون ! .. ترى كيف سيعيش فى باريس ؟ .. وهل يألفها ؟ » .. فتنهدت مدام « بوفارى » .. وطقطق الصيدلى بلسانه قائلا: « يألفها » ! .. حفلات العشاء فى المطاعم والمراقص التنكرية والشمبانيا .. أؤكد لك ان كل هذا سيحلو له ! » .. فاعترض « بوفارى » قائلا : « ما أظنه سينزلق إلى الفساد » .. فأسرع السيد « هوميه » قائلا : « ولا انا .. وإن كان سيضطر إلى ان يجارى الآخرين خشية ان يظنوه من « الجيزويت » ! وما اراك تعرف اية حياة يمارسها اولئك « الكلاب » من شباب الحى اللاتينى مع الممثلات .. ثم ان الطلبة يحظون بنظرة طيبة فى باريس ، ويكفى ان يظهروا بعض المواهب حتى يقبلهم القوم

فى خير المجتمعات .. بل إن من سيدات حى «سان جيرمان» من يتدلهن فى هواهم ، فيتحن لهم الفرص لزيجات طيبة جدا ! » .

قال الطبيب : « ولكنى اخشى عليه .. هناك .. » ، فقاطعه الصيدلى قائلا : « اصبت .. هذا هو الجانب الآخر للموضوع . فالمرء هناك مضطر إلى ان يبقى يده فوق جيبه .. انك قد تكون فى حديقة عامة — مثلا — فيتقدم إليك شخص حسن الهندام — وربما كان يحلى صدره بوسام حتى ليحسبه المرء من رجال السلك الدبلوماسى — ويستدرجك ، ويتلطف معك ، ويقدم إليك قبضة من سعوط ، او يلتقط قبعتك إذا وقعت ، ثم يزداد ودا فيصحبك إلى مقهى ، ويدعوك إلى منزله الريفى .. وبين كأسين من النبيذ يقدمك إلى كافة انواع الناس . وفى ثلاثة ارباع الحالات لا يكون ذلك إلا لينشل ساعتك ، او ليورطك فى مأزق خبيث ! » .. فقال « شارل » : « هذا صحيح ! .. على اننى كنت افكر بوجه خاص فى الأمراض .. حمى التيفويد مثلا ، التى تصيب الطلبة الوافدين من الريف ! » .

وارتعدت « ايما » .. بينما قال الصيدلى : « هذا راجع إلى تغيير نظام الأكل ، وما يترتب عليه من اضطراب فى الجهاز كله .. ثم ، هناك ماء باريس ، الم تسمع عنه ؟ .. وكل تلك الأطعمة التى تقدم فى المطاعم .. كل تلك الأغذية الكثيرة التوابل ، التى تنتهى إلى اشاعة الحرارة فى الدم ، وهى لا تعادل — مهما يقول الناس عنها — حساء طيبا ! .. لقد اعتدت — شخصيا — ان افضل الطعام البسيط دائما ، فهو

اكثر فائدة من سواه . لذلك اقمت ــ حين كنت ادرس الصيدلة فى (روان) ــ فى نزل خاص (بنسيون) ، وكنت اتناول طعامى مع الأساتذة » .

وهكذا استمر يعرض آراءه ، وميوله الشخصية ، حتى اقبل « جوستان » يدعوه .. فصاح : « اما من لحظة راحة ؟ .. دائما ارانى مشدودا إلى الصيدلية والعمل ! .. او استطيع ان اخرج دقيقة ؟ .. هل اظل اكد واكدح كالحصان المشدود إلى المحراث ! .. يا لها من عبودية » ! .. حتى إذا بلغ الباب ، التفت قائلا : « بهذه المناسبة ، هل عرفتما النبأ ؟ » .

ــ اى نبأ ؟

اجاب « هوميه » رافعا حاجبيه ، متخذا اكثر مظاهره جدية : « من المحتمل جدا ان الاجتماع الزراعى ــ الذى كان يعقد عادة فى مقاطعة السين السفلى ــ سيعقد هذا العام فى (ايونفيل) .. هذه هى الشائعة المنتشرة . وقد اشارت إليها الصحيفة فى هذا الصباح . وسيكون هذا امرا بالغ الأهمية لمنطقتنا . على اننا سنتحدث عن هذا فيما بعد .. شكرا ، إنى ارى طريقى ، فان « جوستان » يحمل المصباح» .

الفصل السابع

● كان اليوم التالى حزينا بالنسبة لايما ، إذ لاح لها كل شيء ملتفا فى جو اسود يطفو فى اضطراب حائر على اسطح الأشياء ومظاهرها .. واخذ الأسى يغوص فى اعماق نفسها فى عواء واهن كالذى تبعثه رياح الشتاء فى القلاع الخربة! .. كان ذلك صدى لمثل ذلك التفكير الحالم الحزين الذى نخلعه على الأشياء التى لا رجعة لها ، او الكلل الذى يعتريك بعد الجهد المبذول ، او الالم الذى يسببه جمود حركة معتادة سادرة ، او التوقف الفجائى لأى اهتزاز طال به الأمد !

وكما حدث عند العودة من (فوبيسار) ــ حين كانت الرقصات تدور فى راسها ــ اعترتها كآبة قاتمة ، وقنوط خدر نفسها .. وعاودها طيف « ليون » اطول قامة ، واكثر ملاحة، وفتنة ، وغموضا .. فهو لم يفارقها ، وإن كان قد انفصل عنها .. كان هناك ، وكأن جدران البيت ما زالت تحتفظ بشبحه ! .. ولم تكن تملك ان تحول بصرها عن البساط الذى سار عليه ، ولا عن تلك المقاعد الخاوية التى كان يجلس عليها .. ولقد ظل النهر ينساب ، ويدفع فى بطء موجاته الصغيرة على طول الضفاف الزلقة .. كم من مرة سارا هناك على الحصباء المكسوة بالطحالب، يرافقهما خرير الأمواج؟! .. ما كان اشد تالق الشمس إذ ذاك ! .. اية اصائل هانئة شهداها وحدهما فى الظل عند نهاية الحديقة ! .. كان يقرا لها بصوت مرتفع ، وهو عارى الرأس ، وقد جلس فوق مقعد من الأغصان الجافة ، وريح المروج الرقيقة تهز صفحات الكتاب

وازهار الخميلة .. أواه ! .. لقد ذهب ! .. فتنة حياتها ، والأمل الوحيد فى السعادة المحتملة ! .. لم لم تقتنص تلك السعادة حين واتتها ؟ .. لم لم تتشبث بها بكلتا يديها ، وكلتا ركبتيها ، حين همت بأن تفر منها ؟ ! .. واخذت تلعن نفسها لأنها لم تحب «ليون» .. لشد ما كانت ظامئة إلى شفتيه ! .. واستولت عليها الرغبة فى أن تفر وراءه وتلحق به ، فتلقى بنفسها بين ذراعيه وتقول له : « ها أنذى ! .. إننى لك!» .. ولكنها ما لبثت ان تقاعست ازاء صعوبات المغامرة ، ولم تزدد شهواتها — التى ضاعفها الندم — إلا ضراوة !

* * *

● ومنذ ذلك الحين غدت ذكرى « ليون » محورا لسأمها .. كانت تشتعل هناك ، فى أزيز يفوق أزيز نار خلفها المسافرون فوق الجليد ، فى سهول المراعى الروسية ! .. وكانت تقفز نحوه، وتلتصق به، وتحرك فى عناء النار المحتضرة وتبحث فى كل ما حولها عن شىء يذكيها ! .. وجمعت أبعد الذكريات ، واقرب المناسبات ، وما خبرته ، وما تخيلته .. وشهواتها العربيدة التى لم تحظ بالاشباع ، ومشروعات السعادة التى تكسرت فى الرياح كما تتكسر الأغصان الذاوية ، وفضيلتها العقيم ، وآمالها المبددة ، والالفة المنزلية .. كل هذا جمعته — دون ان تغفل شيئا — ثم اتخذته وقودا لشجونها !!

على ان اللهب لم يلبث ان خمد ، إما لان الوقود قد نفد ، أو لانه تراكم اكثر مما ينبغى . وشيئا فشيئا ، اخذ الحب يخمد بسبب الفراق ، والندم يختنق بحكم الاعتياد ،

ووهج الحريق الذى اشاع فى سمائها الشاحبة لونا قرمزيا يخبو رويدا ! .. وفى غفلة ضميرها ، ظنت ان اشمئزازها من زوجها إن هو إلا تلهف لحبيبها ! .. بيد ان العاصفة ظلت هوجاء .. حتى إذا احترقت الشهوة فصارت رمادا ، دون ان تتلقى عونا ، ودون ان تشرق شمس ، اطبق الليل على المسكينة من كل جانب ، وضلت فى البرد الفظيع الذى كان يخترمها .. ثم عاودتها ذكرى أيام (توست) البغيضة .. واصبحت ترى نفسها اكثر تعاسة ، إذ كانت قد خبرت الحزن، فايقنت أنه لن ينتهى !

.. وإن امرأة تفرض على نفسها مثل هذه التضحيات ، لخليقة بأن تسمح لنفسها ببعض النزوات ! .. وبالفعل ، ابتاعت « ايما » مقعدا قوطيا للصلاة ، وانفقت خلال شهر واحد اربعة عشر فرنكا فى شراء ليمون لتنظيف اظافرها ، وكتبت إلى (روان) فى طلب ثوب من الكشمير الأزرق ، واختارت شالا من ابدع شيلان « لوريه » ، واعتادت ان تعقده حول خصرها على الثوب الكشمير ، ثم تغلق النوافذ ، وتستلقى فى هذا الزى على اريكة ، وفى يدها كتاب ! .. وكثيرا ما اخذت تبدل طريقة تصفيف شعرها ، فأحيانا تصففه على الطريقة الصينية ، أو ترسله فى خصلات رخوة تجدلها فى ضفائر ، أو تفرقه على جانب الراس مقصوصا من اسفل كما يفعل الرجال !

وارادت ان تتعلم الإيطالية فابتاعت معاجم وكتابا فى النحو ، وكمية من الورق الأبيض .. وجربت القراءة الجدية

فى التاريخ والفلسفة .. وكان « شارل » يستيقظ مجفلا اثناء الليل احيانا ، ظانا ان احدا يناديه لإسعاف مريض ، فيغمغم : « ها انذا قادم ! » ، ثم يفطن إلى ان ما سمع لم يكن ســوى صوت عود من ثقاب أشعلته « ايما » لتوقد المصباح ! .. ولكن قراءاتها لم تكن اسعد حظا من تطريزها .. كلها لم تحظ بأكثر من الخيوط الاولى ، ثم كانت تلقى بها فى الصــوان ، وتشرع فى تطريز غيرها ، لتلقى بها بدورها .. وهكذا لم تكن تشرع فى قراءة كتاب حتى تطرحه جانبا وتتناول سواه !

وكانت تتولاها نوبات من السهل ان تنساق خلالها إلى ارتكاب اية حماقة .. فقد تحدت زوجها يوما بأنها تستطيع أن تشرب كاسا كبيرة من « البراندى » . وإذ كان « شارل » من الحمق بحيث قبل هذا التحدى ، فقد ازدردت ما كان فى الكأس حتى آخر قطرة ! .. وبالرغم من تصرفاتها النزقة ـــ كما كانت ربات البيوت فى (ايونفيل) يصفنها ـــ فان «ايما» لم تكن قط مرحة ، بل كان يحف بجانبى فمها عادة ذلك التقلص الجامد الذى ينتاب وجوه العوانس ، والرجال ذوى الطموح الخائب ! .. واشتد بها الشحوب حتى غدت كالثوب الابيض، واصبح جلد انفها مشدودا عند الفتحتين ، وغدت عيناها ترنوان إليك بنظرات مبهمة .. وراحت تكثر من الحديث عن شيخوختها ، بعد ان اكتشفت ثلاث شعرات بيضاء فى مفرقها!

وكثيرا ما كانت تصاب بالإغماء ، حتى بصقت دما ذات يوم . وعندما اخذ « شارل » يروح ويجىء حولها فى اهتمام ينم عن قلق ، قالت له : « آه ! .. وما اهميه هذا ؟ » .. فاسرع « شارل » إلى مكتبه وانخرط فى البكاء ، وقد اتكأ

بمرفقيه على مكتبه وهو جالس فى مقعده تحت صورة الجهاز العصبى .. ثم كتب لأمه يسألها أن تحضر ، وراحا يعقدان معا الأحاديث الطويلة ، ويتبادلان الراى بشأن « ايما » .. ما الذى ينبغى ان يتخذاه .. ما الذى ينبغى فعله ما دامت ترفض كل علاج طبى ؟ .. وقالت مدام « بوفارى » الأم : « أفتعرف ما الذى يلزم لزوجتك .. إنها تحتاج إلى ان تنهمك فى عمل يدوى يشغلها .. ولو انها كانت مضطرة ـــ ككثيرات غيرها ـــ إلى كسب عيشها ، لما راودتها هذه الأوهام التى تواتيها من كثير من الافكار التى تحتشد بها راسها ، ومن البطالة التى تعيش فيها » .. فقال « شارل » : « ولكنها دائما مشغولة » .

ـــ آه ، حقا .. مشغولة بماذا ؟ .. قراءة الروايات ، والكتب الرديئة ، والمؤلفات الموضوعة ضد الدين ، والتى يسخر مؤلفوها من القسس بأقوال مقتبسة عن «فولتير» ؟ .. كل هذا يشتت العقل يا بنى المسكين ! .. اى إنسان بلا دين لا بد ان ينتهى اسوأ نهاية !

.. ومن ثم استقر الراى على منع « ايما » من قراءة الروايات .. ولم يكن الأمر هينا ، ولكن السيدة تعهدت بالأمر ، فرؤى أن تذهب بنفسها إلى متعهد الكتب ـــ عند مرورها بروان ـــ فتخبره بأن « ايما » اوقفت اشتراكها .. ترى ، اليس لهما الحق فى ان يلجآ إلى البوليس إذا اصر صاحب المكتبة ـــ رغم ذلك ـــ على المضى فى تجارته التى تسمم العقول ؟ !

وكان الوداع بين الحماة وزوجة ابنها فاترا .. لم تكونا خلال الأسابيع الثلاثة التى قضيتاها معا قد تبادلتا ست كلمات، فوق الأسئلة والعبارات التى كانتا تتبادلانها على المائدة ، وقبل اللجوء إلى الفراش بالليل .. ثم رحلت مدام « بوفارى » الكبيرة فى احد ايام الأربعاء ، التى تعقد فيها سوق (ايونفيل) .. وكان الميدان منذ الصباح قد اكتظ بصف من العربات التى امتدت بمحاذاة المنازل من الكنيسة إلى الفندق ، وقد ارتكزت على مؤخراتها ، وارتفعت اذرعها فى الهواء .. وعلى الجانب الآخر ، كانت ثمة خيام تباع فيها الأقمشة القطنية والاغطية ، وجوارب الصوف مع سروج الخيل ، ولفائف الأشرطة الزرقاء التى تتطاير أطرافها مع الريح .. وكانت قطع الحديد الخردة منتشرة بين البيض المنسق على شكل اهرامات ، واقراص الجبن التى يبرز منها قش لزج .. وإلى جوار آلات درس القمح ، كان الدجاج ينقنق فى اقفصة منخفضة وهو يمد رقابه خلال القضبان .. والجمهور متجمع فى مكان واحد ، لا يبغى عنه انتقالا ، حتى لقد كان يوشك احيانا ان يهشم واجهة الصيدلية التى كانت لا تخلو ابدا فى ايام الأربعاء من الذين كانوا يقبلون طلبا للمشورة الطبية اكثر منهم لشراء ادوية ، نظرا لما كان للسيد « هوميه » من صيت ذائع فى القرى المجاورة ، حيث فتن الريفيون بقوة اعتداده بنفسه ، فكانوا يعتبرونه اعظم الأطباء طرا !!

وكانت « ايما » تتكىء على حافة النافذة ، على نحو ما كانت تفعل فى كثير من الأحيان .. فالنافذة تحل فى الريف محل المسرح والنزهة .. وفيما هى تتسلى بمشاهدة حشد من

الأجلاف ، رأت سيدا فى « ردنجوت » من المخمل الأخضر ، وفى يديه قفازان اصفران ، وقد غطى حذاءيه بزوج من « جيتر » سميك .. وكان يسعى نحو منزل الطبيب ، يتبعه فلاح يسير مطاطىء الرأس ، بادى الاستغراق فى التفكير .. وقال الرجل يسأل « جوستان » ـ الذى كان يتحدث إلى « فيليسيتيه » عند درجات المدخل ـ وقد ظنه خادما فى المنزل : « هل أستطيع أن اقابل الطبيب ؟ .. قل له : إن السيد «رودولف بولانجيه» من (لاهوشيت) هنا » .. وما قرن اسمه بـ « لاهوشيت » من قبيل النعرة الاقليمية ، وإنما زيادة فى التعريف بنفسه .. والواقع ان (لاهوشيت) كانت ضيعة على مقربة من (ايونفيل)، ابتاع السيد « رودولف » قصرها ، ومزرعتين منها يستطيع ان يزرعهما بنفسه ، ولكن دون أن يجشم نفسه كثير عناء . وكان يعيش اعزب .. وقيل : إن دخله بلغ «خمسة عشر ألفا من الفرنكات فى العام ، على الأقل ! » .

واقبل « شارل » على الغرفة ، فقدم إليه السيد « بولانجيه » رفيقه الذى كان يريد ان يفصد لأنه كان يحس « بتنميل يسرى فى كل جسمه » ! .. وقال الرجل يعارض كل حجة : « لسوف يطهرنى هذا » .. ومن ثم أمر « بوفارى » بضمادة ووعاء سأل « جوستان » أن يمسكه له ، ثم قال للفلاح الذى شحب لونه : « لا تخف يا بنى ! » .. فقال الآخر : « لا .. لا ، يا سيدى .. هيا » .. وفى تظاهر بالجرأة ، مد ذراعه الضخمة .. وبوخزة من المبضع ، انبثق الدم ملطخا المرآة ، فهتف شارل : « قرب الوعاء » .. بينما قال الفلاح :

« يا الهى ! .. ان المرء ليحسبها نافورة صغيرة .. ما اشد حمرة دمى ! .. إنها دلالة طيبة .. اليست كذلك ؟ ! » .

فقال الطبيب : « ان المرء لا يشعر بشىء فى البداية — احيانا — ثم يواتيه الاغماء فيما بعد ، لا سيما ذوى البنية القوية كهذا الرجل ! » .. وعند هذه الكلمات ، افلت الفلاح الكيس الذى كان يعبث به بين اصابعه .. وطقطق ظهر المقعد إذ سرت فى كتفيه رعدة .. وسقطت قبعته ، فقال « بوفارى » وهو يضغط الوريد باصبعه : « لقد توقعت هذا » .. واخذ الوعاء يهتز بين يدى « جوستان » ، وارتجفت ركبتاه ، وشحب لونه ، فنادى شارل : « ايما ! .. ايما ! » .. وهبطت السلم فى وثبة واحدة ، فصاح : « بعض الخل .. يا الهى ! .. اثنان فى وقت واحد » .. وتعذر عليه — لفرط انفعاله — أن يضع الكمادة !

وقال السيد « بولانجيه » فى هدوء وهو يمسك بذراع « جوستان » ويجلسه على المائدة وظهره إلى الحائط : « ما هذا بشىء ! » .. وراحت مدام « بوفارى » تخلع عنه رباط رقبته .. وانعقد الشريط الذى يضم فتحة قميصه ، فظلت دقائق تحرك اصابعها الرقيقة حول عنق الفتى ، ثم سكبت بعض الخل على منديلها « الباتيسته » ، ورطبت صدغيه بلمسات خفيفة وراحت تنفخ فيهما برفق .. وما لبث الفلاح ان افاق ، ولكن إغماء « جوستان » طال ، واختفت حدقتاه فى بياض عينيه كما تغيب الزهور الزرقاء فى اللبن .. فقال شارل : « يجب أن نخفى هذا عنه » ، فتناولت مدام « بوفارى » الوعاء لتضعه تحت المائدة .. وإذا تحركت

منحنية ، انتشر حولها — على بلاط الغرفة — ثوبها . وكان ثوبا صيفيا اصفر ، ذا اربعة « كرانيش » وخصر طويل وذيل واسع .. وترنحت « ايما » قليلا وهى منحنية فبسطت ذراعيها ، فالتف القماش حول صدرها ، مبينا قسماته .. ثم ذهبت لتحضر ابريق ماء . وفيما كانت تذيب بعض قطع السكر فيه ، وصل الصيدلى ، وكانت الخادم قد ذهبت فى غمرة الارتباك لاستدعائه . وما إن راى عينى تلميذه تحملقان ، حتى تنفس الصعداء ، ثم ذهب إليه فحدق فيه من راسه إلى قدمه وقال : « مغفل ! .. مغفل كبير ! .. مغفل بالثلث ! .. كأنى بالحجامة عملية خطيرة ، اليس كذلك ؟ ! .. افهكذا يتحول الصنديد الذى لا يخشى شيئا إلى سنجاب من النوع الذى يتسلق الى ارتفاعات شاهقة ليسقط بعض البندق ! .. اى نعم ، تكلم واطنب مزهوا فى مدح نفسك ! .. يا لها من استعدادات طيبة لممارسة الصيدلة فيما بعد ! .. إنك قد تستدعى فى ظروف خطيرة إلى المحاكم لتنير اذهان القضاة ، وإذ ذاك يتحتم عليك ان تحتفظ برباطة جاشك وقوة حجتك ، وان تظهر بمظهر الرجل .. وإلا كنت ابله ! » .

ولم يجب « جوستاف » ، فاستطرد الصيدلى : « من سالك ان تحضر ؟ انك لتثقل دائما على السيد والسيدة ، فضلا عن اننى لا استغنى عنك فى ايام الاربعاء ، ففى الحانوت الآن عشرون شخصا ، وقد تركت كل شىء وحضرت نظرا لاهتمامى بامرك . فهيا ، انهض .. اسرع ! .. عجل ! .. انتظرنى هناك ، وانتبه للقوارير » .. وما إن انصرف « جوستان » — بعد ان سوى ثيابه — حتى اخذوا يتحدثون بعض الوقت

عن نوبات الاغماء ، فزعمت مدام « بوفارى » أنها لم تفقد قط وعيها .. فقال السيد « بولانجيه » : « هذا عجيب بالنسبة لسيدة ! .. على ان بعض الناس شديد الحساسية ، فقد رايت — فى إحدى المبارزات — شاهدا يفقد وعيه بمجرد سماعه صوت حشو المسدسات ! » .

وقال الصيدلى : « ان مــراى دمــاء الغير لا تؤثر فى — شخصيا — على الاطلاق ، ولكن مجرد التفكير فى ان دمى يسيل كاف لأن يفقدنى الوعى .. لو تماديت فى التفكير ! » .. وعندئذ سرح السيد « بولانجيه » خادمه ، موصيا إياه بان يهدىء من جاشه بعد أن تخلص من وهمه . ثم اضاف : « إنه قد أتاح لى فرصة التعرف بكم » .. ونظر نحو « ايما » إذ قال ذلك ، ثم وضع ثلاثة فرنكات على ركن من المائدة ، وانحنى فى غير اكتراث ، وانصرف . وسرعان ما كان منطلقــا على الضفة الأخرى للنهر ، فى طريقه إلى (لاهاشيت) .. ورآته « ايما » يسير فى المرعى تحت أشجار الحور ، وهو يتمهل بين آن وآخر ، كما لو كان يفكر .

كان يحدث نفسه بهذه الخواطر : « إنها لطيفة جدا .. لطيفة جدا .. زوجة الطبيب هذه ! .. اسنان بديعة ، وعينان سوداوان ، وقدم صغيرة ، وقوام كقوام الباريسيات .. من اين جاءت بحق الشيطان ؟ .. من اين التقطها هذا الرجــل البدين ؟ » .

وكان « رودولف بولانجيه » فى الرابعة والثلاثين من عمره ، ذا مزاج عنيف ، وذكاء نافذ ، وقد خــالط كثيرا من

النساء حتى غدا خبيرا بهن ، ومن ثم لاحت له هذه المــراة جميلة ، فراح يفكر فيها وفى زوجها .. ويقــول لنفســه : « اعتقد أنه مغفل ، وأنها قد سئمته ولا ريب ، فان اظافره قذرة ، ولحيته لم تحلق منذ ثلاثة أيام . وبينما ينطلق لعيادة مرضــاه ، تعكف هى على رتق الجــوارب ، فلا تلبث ان تسأم ! .. ولابد أنها تتوق لسكنى المدينة ، ورقص « البولكا » كل مساء .. يا للمراة المسكينة ! .. كأنى بها تتعطش للحب كما تتعطش السمكة للماء فوق مائدة المطبخ ! .. وان ثلاثا من كلمات الغزل لكافية لأن تجعلها تعبد المرء . إننى واثق من ذلك ! .. ولسوف تكون رقيقة ، فاتنة .. اجل ، ولكن ، كيف السبيل إلى التخلص منها بعد ذلك ؟ » .

غير ان متاعب اللــذة التى تراءت له جعلته ينقلب إلى التفكير فى عشيقته على سـبيل المقــارنة .. كانت ممثلة فى (روان) ، وقد استخلصها لنفسه واخذ يعولها . وما إن اخذ يتأمل صورتها — على صفحة ذاكرته — حتى احس بجــذوة رغبته تخمد .. فقال لنفســه : « آه ! .. ان مدام بوفــارى اجمل ، واكثر نضرة بوجه خاص .. فلقد بدات فرجينيا تميل للبدانة بالتاكيد .. وهى امراة من العسير ارضاء رغباتها .. ثم إنها ذات ولع جنونى ببراغيث البحر (الجمبرى) !! » .

ولما كانت الحقول خالية من الناس ، لم يكن رودولف يسمع حوله سوى خشخشة الأعشاب إذ تحتك بحذاءيه مع خطواته المنتظمة .. وصرخة جرادة تختفى بين الشــوفان بعيدا .. وعاد يتمثل صورة « ايما » فى الحجرة ، وفى الثوب

الذى رآها فيه .. ثم شرع يخلع عنها ثيابها فى خياله ! وصاح وهو يفتت قطعة متماسكة من الطين بضربة من عصاه : « آه .. لسوف انالها ! » .. وشرع لفوره يدرس الأسلوب « السياسى » للمغامرة ، فساءل نفسه : « اين نلتقى » ؟ .. وباى الوسائل ؟ .. لسوف تضايقنا دائما الطفلة ، والخادم ، والجيران ، والزوج ، وكل هذه الهموم . اف ! .. ان المرء معرض لأن يضيع كثيرا من الوقت فى كل ذلك » .. ثم عاد يقول : « إن لها فى الحق عينين تخترقان قلب المرء كالبريمة .. وبالشحوب بشرتها ! .. إننى اعبد الشاحبات ! » .

وعندما بلغ قمة تلال (أرجى) ، كان ذهنه قد استقر على امر ، فقال : « لم يبق إلا تصيد الفرص . حسنا ، لسوف أقدم على زيارتهم بين آن وآخر .. وسارسل لهم بعض الصيد والدواجن ، وساطلب « حجامة » لنفسى لو استدعى الأمر .. ولن نلبث ان نغدو اصدقاء ، فأدعوهم إلى منزلى » .. ثم اضاف : « مرحى ! .. ان المعرض الزراعى عما قريب ، ولسوف تزوره فأراها هناك .. ولنبدأ فى جراة ، فهذه أضمن الطرق ! » .

الفصل الثامن

● حان اخيرا موعد المعرض الزراعى الذى ذاع ذكره .. وفى صباح يوم الافتتاح ، وقف جميع اهل (ايونفيل) على ابوابهم يتحدثون عن الاستعدادات .. كانت واجهة مبنى البلدية قد زينت بفروع اللبلاب ، واقيم سرادق فى احد المروج للمادبة .. وامام الكنيسة — فى وسط الميدان — نصب مدفع من النوع الذى يحدث فرقعة ، لاعلان وصول مدير المقاطعة ، وتحية اسماء المزارعين الفائزين بجوائز . ووفد الحرس الوطنى من (بوشى) — إذ لم يكن فى (ايونفيل) حرس — لينضم إلى فريق رجال الاطفاء الذين كان « بينيه » يراسهم .. وقد ارتدى فى ذلك اليوم ياقة أعلى من ياقته العادية ، وشدت الأزرار سترته حول جسمه إلى درجة احالت جذعه إلى كتلة متيبسة لا تتحرك ، فبدا كما لو كان الجزء الحى من جسمه كله قد هبط إلى ساقيه اللتين كانتا ترتفعان فى خطوات رتيبة على إيقاع واحد .. ولما كانت ثمة منافسة بين محصل الضرائب وضابط الحرس الوطنى ، فقد اخذ كل منهما يقوم بمناورات مع رجاله — على حدة — ليظهر مواهبه .. فكان المرء يرى الأشرطة الحمراء والشارات السوداء تروح وتغدو بالتناوب ، دون ان يكون لهذا العرض من نهاية ! .. ابدا لم ير فى قرية (ايونفيل) عرض للأبهة والعظمة مثل هذا !

وكان عدد كبير من المواطنين قد غسلوا واجهات دورهم فى المساء السابق ، وتدلت الأعلام الثلاثية الألوان من النوافذ المنفرجة المصاريع .. وازدحمت الحانات جميعا .. وفى الجو

— الذى كان صحوا — بدت الياقات المنشاة ، والصلبان المذهبة ، والأوشحة الملونة ، انصع بياضا من الثلج فى ضياء الشمس ، فكانت تخفف بتباينهـا وتناثرها من اطراد حلكة « الردنجوت » والملابس الشعبية الزرقاء .. وكانت زوجات المزارعين القادمات من المزارع المجاورة ينتزعن — إذا ما ترجلن عن جيادهن — الدبابيس الكبيرة التى كانت تثبت ذيول ثيابهن حول اجسامهن ، إذ كن قد رفعنها خشية الوحل .. فى حين كان الأزواج ، من ناحيتهم ، ينشرون حول قبعاتهم — حماية لها — مناديل امسكوا اطرافها بين اسنانهم .

واخذت الجماهير تتوافد من مختلف انحاء القرية على الشارع الكبير ، متدفقة من الأزقة والدروب والبيوت . ومن وقت لآخر ، كان المرء يسمع ارتطام الأبواب وهى تغلق وراء النسوة اللاتى يخرجن من دورهن — وقد ارتدين قفازاتهن — يسعين إلى مشاهدة الاحتفال .. وكان اشد ما حاز الإعجاب، حاملان طويلان زخرا بالمصابيح ، وقد حفا بمنصة اعدت لجلوس ذوى النفوذ . وإلى جانب ذلك ، اقيمت حول اعمدة دار البلدية اربع قوائم تحمل كل منها علما صغيرا من قماش يميل لونه إلى الخضرة ، نقشت عليه كلمات بحروف ذهبية .. وقد كتب على العلم الأول : « إلى التجارة » ، وعلى الثانى : « إلى الزراعة » ، وعلى الثالث : « إلى الصناعة » ، وعلى الرابع : « إلى الفنون الجميلة » .

وكان الحبور الذى اشرقت به الوجوه جميعا قد انقلب تجهما على وجه مدام « لوفرانسوا » ، صاحبة الفندق . إذ راحت تتمتم لنفسها ، وهى واقفة على درجات مطبخها :

« يا للحماقة ! .. يا للسخف ! .. هذا السرادق من القماش السميك الخشن (المشمع) ! .. او يظنون ان مدير الاقليم سيغتبط بتناول العشاء تحت هذه الخيمة كمهرج السيرك ؟!.. او يسمون هذا العمل المستهجن خدمة لصالح البلدة ؟ .. إذن، ففيم كان استدعائى « المرمطـون » من (نيوشـاتل) ! .. ولمن ؟ .. لرعاة البقر ! .. للحفاة ! » .. ومر بها الصيدلى إذ ذاك ، وكان يرتدى سترة سوداء ، وبنطلونا من المخمل القطنى ، وحذاءين من نسيج الفراء .. ومن العجيب انه كان يلبس فوق هذا قبعة ذات قبة منخفضة !

وقال «هوميه» لصاحبة الفندق : « ايذنى لى ! .. معذرة ، فانى على عجل ! » .. وإذ سالته الأرملة البدينة إلى اين هو ذاهب ، اجاب : « إن الأمر يبدو لك غريبا .. اليس كذلك؟.. انا الذى اظل حبيسا فى معملى اكثر من فار الرجل فى جبنه!».. فسالته : « اى جبن ؟ » .. فتابع حديثه قائلا : « آه ، لا شىء! لا شىء ! .. إنما اردت ان انبئك يا مدام لوفرانسوا باننى اعيش فى بيتى عادة كالناسك . اما اليوم ، فمن الضرورى ، بحكم الظروف ... » ، فقاطعته فى ازدراء : « آه .. انت ذاهب إلى هناك ! » ، فاجاب الصيدلى فى دهشة : « اجل ، انا ذاهب .. او لست عضوا فى اللجنة الاستشارية ؟ » ..

وحدقت فيه الأم « لوفرانسوا » بضع لحظات ، ثم قالت فى النهاية وهى تبتسم : « هذا وضع آخر ! ولكن ، فيم تهمك الزراعة ؟ اتفهم فيها شيئا ؟ » .

— بالتاكيد .. إننى افهمها ما دمت صيدليا .. اى كيميائيا . فان غاية الكيمياء يا مدام لوفرانسوا هى معرفة التفاعل

الجزئى والتأثير المتبادل بين كافة الأجسام الطبيعية ، ومن ثم فان الزراعة تدخل فى نطاقها . والواقع أن تركيب السماد ، وتخمر السوائل ، وتحليل الغازات ، وتأثير التعفن .. إننى لأسالك ما هذا كله ؟ .. أليس هو الكيمياء فى أنقى وابسط مظاهرها ؟ !

ولم تجب صاحبة الفندق ، فاستطرد « هوميه » قائلا : « هل تظنين انه لا بد للمرء من ان يحرث الأرض او يربى الدواجن ويسمنها بنفسه لكى يكون من رجال الزراعة ؟ .. ان الأكثر ضرورة هو أن يعرف تركيب المواد التى تتعلق بالزراعة .. الخواص الجيولوجية ، والعوامل الجوية ، ونوع التربة ، والمعادن ، والمياه ، وكثافة الأجسام المختلفة ، وخاصية الجاذبية الشعرية — التى يتوقف عليها سريان العصارات المغذية للنبات — وما إلى هذا .. كذلك يجب ان يكون المرء على إلمام تام بمبادىء الصحة كى يتولى التوجيه ونقد العيوب فى إنشاء المبانى ، وتغذية الحيوان ، وتغذية الخدم . وفوق ذلك يا مدام « لوفرانسوا » ، يجب ان يكون المرء على دراية بعلم النبات ، وان يستطيع ان يميز بين النباتات كما تعلمين .. فيعرف أيها الصحى المفيد ، وأيها الضار ! .. أيها لا ينتج ، وأيها ذا القيمة الغذائية .. وهل من المفيد ان نقتلعها من هنا ونعيد زرعها هناك ، وان نستكثر بعض الأنواع ، ونقضى على البعض الآخر .. وبالايجاز ، يجب ان يظل المرء متتبعا للعلم عن طريق النشرات والصحف العامة ، وان يكون يقظا ليتعرف التحسينات .. » .

ولم تحول صاحبة الفندق عينيها عن « المقهى الفرنسى »،

بينما مضى الصيدلى قائلا : « انى لأدعو الله ان يكون كل المشتغلين بالزراعة عندنا كيميائيين ، أو أن يولوا مجالس العلم اهتماما ، على الأقل .. فأنا مثلا قد ألفت اخيرا كتيبا لا بأس به .. مذكرة فى اكثر من اثنتين وسبعين صفحة ، بعنوان : « شراب التفاح (السيدر) ، صنعه وتأثيره .. مع بعض الأفكار الجديدة فى الموضوع » .. وارسلتها إلى الجمعية الزراعية فى (روان) ، فكانت سببا فى « أن حظيت بشرف الانضمام إلى عضويتها .. فى قسم الزراعة ، وفى الفرع الخاص بزراعة الفواكه. ولو ان مؤلفى هذا اتيح للجمهور .. ».

على أن الصيدلى أمسك هنا عن الكلام ، إذ بدا ان مدام « لوفرانسوا » كانت فى شغل عنه .. ثم قالت اخيرا : « الا انظر إليهم ! .. شىء غير مفهوم ! .. هذه الحانة الحقيرة ! » .. وهزت كتفيها فى حركة ازاحت عن جسمها الصدار الصوفى (التريكو) ، واشارت بكلتا يديها إلى حانة منافسها ، التى كانت تنبعث منها اصوات تغنى .. ثم اضافت قائلة : « لن يدوم هذا امدا طويلا ، على اية حال ، وسينتهى كل شىء قبل أسبوع » .. فتراجع « هوميه » مذهولا ، بينما هبطت ثلاث درجات لتهمس فى اذنه : « مـاذا ! او لا تعلم هذا ؟ .. هناك حجز سيوقع فى الأسبوع المقبل ، و « لوريه » هو الذى سيتسبب فى بيع الحانة ، إذ قضى عليه بدفع قيمة الصكوك (الكمبيالات) .. » ، فصاح الصيدلى الذى كان يجد دائما من التعبيرات ما يتمشى مع كل مناسبة يمكن تصورها : « يا لها من نكبة مفزعة ! » .

إذ ذاك شرعت ربة الفندق تروى له القصة التى كانت

قد سمعتها من « تيودور » ـ خادم السيد « جويومان » ـ ومع انها كانت تبغض «تيلييه » ، إلا انها راحت تنحى باللوم على « لوريه » واصفة إياه بأنه غشـــاش ، دنىء ! .. وقالت : « ها هو ذا ! .. انظر إليه ، إنه فى الســـوق ، ينحنى لمدام « بوفارى » التى ترتدى قبعة خضراء . عجبا ، انها تأخـذ بذراع السيد بولانجيه» .. فهتف هوميه : «مدام بوفارى ! .. يجب ان اذهب فورا فأقدم لها احتراماتى .. لعلها ستسر جدا بان تحصل على مقعد فى الحلبة ، تحت الرواق » .. ولم يلق الصيدلى بالا إلى الأم « لوفرانسوا » التى اخذت تناديه لكى تسهب له فى القصص ، بل ابتعد فى خطوة سريعة ، وعلى شفتيه ابتسامة ، وقد شد عرقوبه ، وراح يسخو فى الانحناء يمنة ويسرة موزعا التحيات ، وذيل سترته السوداء يطير مع الريح من خلفه ، شاغلا فراغا كبيرا .. لكن « رودلف » لمحه من بعيد ، فراح يغذ السير وهو يجذب مرافقته معه ، ولكن انفاس مدام «بوفارى» تقطعت، فاضطر إلى ان يتباطأ ، وقال فى لهجة جافة وهو يبتسم : « ما هذا إلا لكى نفر من هـذا الرجل البدين .. الصيدلى ، كما تعلمين ! » .. فضغطت مرفقه .. فسألها وهو يرمقها من طرف عينه : « ما معنى هذا ؟ » .. وكانت صفحة وجهها هادئة ، لا تنم عن شىء ، وقد برزت من إطار قلنسوتها البيضاوية الشكل ، التى كانت مزدانة باشرطة باهتة تشبه اوراق البوص. وكانت عيناها ـ باهدابهما الطويلة المقوسة ـ تنظـــران إلى الامام فى خط مستقيم . ومع انهما كانتا مفتوحتين على وسعهما ، إلا انهما لاحتـــا متواربتين بعض الشىء ، كمـــا لو كـــانت وجنتاهـــا

تدفعانهما ، وقـــد راح الـــدم يسرى برفق تحت بشرتهمـــا الرقيقة .. وعلى طول الحاجز الذى كان يتوســـط فتحتى انفهـــا ، امتد خط وردى . وكان راســـها يميل على احدى كتفيها ، كما كانت الأطراف اللؤلؤية لأسنانها البيضـــاء ترى من بين شفتيها !

وسأل « رودولف » نفسه : « اتراها تسخر منى؟ » .. غير ان الحركة التى بدرت من « ايمـــا » لم تكن ترمى إلا إلى تنبيهه . فقد كان السيد « لوريه » يرافقهما ، وكان يتكلم بين آن وآخر ، وكأنه يود أن يندمج معهما فى الحديث .. وما لبث ان قـــال : « يا له من يوم رائع ! .. لقـــد غـــادر الجميع دورهم ! .. إن الرياح تهب من الشرق ! » .. ولم ترد عليه مدام بوفارى ولا رودولف بشىء ، بينما كان هو يقترب منهما عند اية حركة تبدر منهما ويقـــول : « معذرة ! » ، ويـــرفع قبعته ! .. حتى إذا بلغـــوا منزل البيطـــار ، لم يمضوا فى الطريق العامة حتى الحاجز ، بل انحرف رودولف فجاة إلى طريق ضيقة ، ساحبا معه مدام بوفارى ، وهو يهتف : « عم مساء يا مسيو لوريه ! .. إلى اللقاء ! » .

وقالت «ايما» ضاحكة : « ما ابرع ما تخلصت منه ! » .. فعقب قائلا : « ولماذا يترك المرء نفسه عرضة لأن يثقل عليه الآخرون ؟ .. ولما كنت اليوم سعيدا بأن اكون معك ... » .

وتضرج وجه « ايما » .. ولم يتم رودولف عبارته ، بل تحول يتحدث عن جمال الجو ، ولذة السير على العشب .. وكانت بعض زهرات « المرجريت » قد استوت على سيقانها فقال : « ها هى ذى بعض زهور المرجريت البديعة تبشر بعيد

الفصح .. وها هو ذا عدد منها يكفى لتقديم النبوءات لكافة العذارى العاشقات فى المنطقة ! » .. ثم اضاف : « هل اقتطف بعضها ؟ .. ما رأيك ؟ » .. فسعلت قائلة : « وهل انت عاشق ؟ » .. فأجاب رودولف : « ا .. ا .. من يدرى ؟ ! » . وكان المرج يمتلىء ، وربات البيوت يزاحمنك بمظلاتهن الكبيرة ، وسلالهن ، واطفالهن .. وكثيرا ما كان المرء يضطر إلى افساح الطريق لصف طويل من الريفيات او الخادمات ممن يلبسن جوارب زرقاء ، واحذية مسطحة النعال ، وخواتم من الفضة .. وتفوح منهن — إذ ما مر المرء بالقرب منهن — رائحة اللبن ! .. وقد سرن متشابكات الأيدى ، شاغلات عرض الميدان .. من اشجار الحور إلى سرادق الاحتفال ! .. وكان موعد فحص المعروضات قد حان ، فأخذ الفلاحون يدخلون — واحد بعد آخر — إلى ما يشبه حلبة للسباق ، يحدها حبل طويل شد إلى عصى ..

وكانت الماشية تربض هناك وانوفها موجهة نحو الحبل ، وقد اصطفت فى مجموعات غير متساوية ولا منظمة . وخياطم الخنازير المتثاقلة مدسوسة فى الأرض ، والعجول تخور ، والنعاج تثغو ، والأبقار تمد بطونها على النجيل وقد ثنت سيقانها تحتها ، وهى تجتر فى بطء ، وجفونها الثقيلة تختلج من الذباب الذى كان يحوم حولها فى طنين . والحوذية قد شمروا عن سواعدهم يشدون اعنة الجياد الجامحة التى راحت تصهل — منتفخة الخياشيم — وهى تنظر نحو إناثها التى وقفت هادئة ، تمد اعناقها ، واعرافها متدلية ، بينما كانت صغارها مستكينة فى ظلالها، تقبل على الرضاع منها بين

آن وآخر ! .. وفوق هذا الخضم الزاخر من الاجسام المكدسة ، كانت ترتفع فى الهواء اوراق بيضاء كأنها الموجات ، او تبرز قرون حادة ، أو رؤوس رجال يجرون حولها .. وخارج الحلبة ، وقف — على بعد نحو مائة خطوة — ثور اسود ضخم ، مكمم فى انفه بحلقة من حديد .. وهو لا يتحرك ، كأنه صيغ من البرونز ، بينما امسكه بحبل اطفال فى اسمال مهلهلة ..

وسار بين الصفين اعضاء اللجنة بخطى ثقيلة ، يفحصون كل حيوان ، ثم يستشير كل منهم الآخر فى صمت خفيض ، وقد اخذ واحد منهم — كان يبدو اهم من الآخرين مكانة — فى تدوين بعض الملاحظات من وقت إلى آخر .. ذاك كان السيد « ديروزيراى دى لابانفيل » ، رئيس المحكمين .. وما إن راى رودولف حتى اسرع متقدما منه ، وابتسم فى ود قائلا : « ما هذا يا سيد بولانجيه .. اتتخلى عنا ؟ » .. فاعتذر رودولف بأنه قد وصل لتوه ، ولكن ، ما إن انصرف الرئيس حتى قال لايما : « لعمرى ! .. لن اذهب ، فان صحبتك خير من صحبته ! » .. وكان يبرز بطاقته الزرقاء لرجال الشرطة — ليمر فى يسر — وهو يسخر من المعرض .. وكان يقف احيانا امام حيوان بديع ، لا يروق لمدام بوفارى على الاطلاق . وإذ فطن إلى ذلك ، تحول يرسل النكات الساخرة عن سيدات (ايونفيل) وازيائهن ، ثم انقلب يعتذر عما فى زيه من إهمال ، إذ كان خليطا من المبتذل والأنيق معا ، يرى فيه عامة الناس دليلا على غرابة فى الطباع ، واضطراب فى الإحساس ، ومغالاة فى الفن، و — دائما — نوعا من الاستخفاف بالعادات الاجتماعية

المألوفة ، مما يفتنهم او يغيظهم ! .. من ذلك ان قميصه كان من « الباتيسته » ، تكثر الثنيات عند معصمى كميه .. وقد كان ينتفخ بفعل الهواء الذى كان يتسلل من فتحة صدار من التيل الرمادى .. وكان ساقا سرواله ذى الخطوط العريضة يكشفان عند الكعبين عن حذاءين من « الشمواه » الذى تتخلله اجزاء من الجلد كانت تلمع حتى لتنعكس عليها صور العشب .. وكان يطأ بهذين الحذاءين روث الخيل وقد دس احدى يديه فى جيب من سترته ، وأمال قبعته المصنوعة من القش جانبا ..

وعاد يتابع الكلام قائلا : « ثم إن المرء حين يكون مقيما فى الريف .. » ، فقالت ايما : « انها مضيعة للوقت » ، فأجاب : « هذا حق .. تصورى ان احدا من هؤلاء الناس لا يستطيع ان يفهم، حتى طراز سترته ! » .. ثم دار الحديث عن الريف الكئيب ، وما يضيع فيه من اعمار ، وينهار من آمال .. فقال رودولف : « لهذا السبب تغمرنى الكآبة » .. فعقبت مذهولة : « انت ! ؟ .. ظننتك شديد المرح ! » .

— آه .. اجل . هكذا ابدو ، لاننى اعرف كيف اخفى وجهى وراء قناع ساخر ، وسط المجتمع .. ومع ذلك ، فكم ساءلت نفسى حين كنت ارى مقبرة فى ضوء القمر : اليس من الخير ان اشارك اهلها فى سباتهم !

فهتفت : « اواه ! .. واصدقاؤك ؟ .. الست تفكر فيهم ؟ » .. فقال : « اصدقائى ! .. اى اصدقاء ؟ .. هل لى اصدقاء ؟ .. من يحفل بى ؟ » .. واردف بصفير خافت من بين شفتيه .. وما لبثا ان اضطرا إلى الانفصال ، كل عن

الآخر ، بسبب حمل كبير من المقاعد كان احد الرجال يرفعه خلفهما .. وكان من الكثرة بحيث لم يكن فى وسع الرجل ان يرى مقدم حذاءيه الخشبيين ، او نهاية ذراعيه المبسوطتين . وكان هذا الرجل هو « ليستيبودوا » ، حفار القبور ، وقد حمل مقاعد الكنيسة ، واخذ يجوس بين الناس ، إذ كان نشيط الذهن فى كل ما يعود عليه بالنفع ، وقد فطن إلى هذه الطريقة للافادة من المعرض ، وصادفت فكرته نجاحا ، إذ تكاثرت عليه الطلبات حتى لم يعد يدرى ايها يجيب ، والواقع أن القرويين الذين برح بهم التعب ، اخذوا يتشاجرون من اجل هذه المقاعد التى كان عبير البخور يفوح من قشها ، ويضطجعون على مساندها السميكة — المتسخة بدهن الشموع — فى زهو وخيلاء !

وعادت مدام بوفارى فامسكت بذراع رودولف الذى كان ماضيا فى الحديث ، وكانه يكلم نفسه : « اجل ، كم اضعت من اشياء .. فانا وحيد على الدوام ! .. آه ، لو كان لى هدف فى الحياة ! .. لو اننى لقيت شيئا من الحب .. لو اننى التقيت بشخص يعطف على ! .. ما كان احرانى إذ ذاك ان ابذل كل ما اوتيت من طاقة ، وان اذلل كل شىء ، وان اتغلب على كل شىء ! » .. فقالت : «ومع ذلك، انك لا تبدو فى حال تدعو للرثاء ! » .. قال : « آه .. او هذا ظنك بى؟ » .. فاستطردت قائلة : « لانك قبل كل شىء ، حر ... » ، وترددت ، ثم اردفت : « وغنى ! » .. فاجاب : « لا تسخرى منى » .. وبينما كانت تؤكد انها لا تسخر ، دوت طلقة مدفع ، فاذا الجميع ينطلقون متدافعين فى هرج نحو القرية ..

ولكن التنبيه كان كاذبا ، فان مدير الاقليم لم يكن قد حضر ، وشعر اعضاء لجنة التحكيم بالحيرة ، إذ كانوا لا يدرون ايبدءون الحفل ، أم ينتظرون أمدا آخر ..

ــ وأخيرا ، ظهرت فى اقصى الميدان عربة كبيرة مستاجرة ــ من الطراز المغلق الجوانب ــ يجرها جوادان هزيلان ، يسوطهما بكل قوته حوذى بقبعة بيضاء .. واسرع « بينيه » صائحا : « قرقول سلاح ! » ، فحذا الضابط حذوه ، وهرول الجنود نحو السرادق ، لقد نسى بعضهم أن يرتدوا ياقاتهم .. ولكن ركب المدير كان قد توقع الزحام مقدما ، فخفف الجوادان من سرعتهما ، ووصلا عن رنين اعنتهما إلى منصة البلدية ، فى اللحظة التى تم فيها تجمع الحرس الوطنى وفريق الإطفاء ، ومن ثم اخذوا يدقون الطبول ، وينظمون خطواتهم .. وصاح « بينيه » : « خطوة تنظيم ! » .. فصاح الضابط : « قف ! .. إلى اليسار در ! » .. وبعد أن ارتفعت البنادق للتحية ، وانطلقت الموسيقى كرنين وعاء نحاسى ينحدر على سلم ، خفضت البنادق من جديد . وإذ ذاك ، غادر العربة سيد فى حلة ذات سترة قصيرة موشاة بخطوط فضية .. وكان اصلع فى مقدمة راسه ، ويضع شعرا مستعارا فى مؤخرتها ، وقد بدا كالح اللون، تلوح عليه امارات الطيبة . وكان يعلو عينيه الجاحظتين جفنان سميكان ، نصف مطبقين عليهما ، إذ راح ينعم النظر فى الجماهير ، رافعا ــ فى الوقت ذاته ــ انفه الحاد ، راسما على فمه الفاغر ابتسامة . وعرف الرجل العمدة من وشاحه ، فاوضح له أن مدير الاقليم لم يتمكن من الحضور ، وانه هو مستشار الاقليم .

ثم أردف مرددا بعض الاعذار ، فرد السيد « توفاش » ــ العمدة ــ ببعض المجاملات .. وبدا على الآخر الارتباك ! .. وظلا واقفين وجها لوجه ، تكاد جبهتاهما أن تتلامسا ، وحولهما اعضاء لجنة التحكيم والمجلس البلدى ، والأعيان ، والحرس الوطنى ، والجمهور . وكرر المستشار انحناءاته بالتحية ، وهو يضم إلى صدره قبعته الصغيرة السوداء الثلاثية الجوانب ، بينما انحنى «توفاش» كالقوس ، وابتسم هو الآخر ، وتلعثم إذ حاول أن يقول شيئا ، ثم أكد ولاءه للملكية ، واعرب عن الشرف الذى اتيح لايونفيل باقامة هذا المعرض ! .

واخذ « هيبوليت » ــ سائس الفندق ــ عنانى الجوادين من الحوذى ، وقادهما وهو يعرج بقدمه الشوهاء إلى باب « الأسد الذهبى » ، حيث تجمع عدد من الفلاحين يتأملون العربة .. ودقت الطبول ، ودوى المدفع ، وتقاطر السادة صاعدين المنصة ليتبوءوا المقاعد الحمراء التى اعارتها مدام « توفاش » للمحتفلين .. وكان هؤلاء السادة جميعا متشابهين .. فوجوههم السمينة الشقراء التى لوحتها الشمس قليلا تبدو فى لون شراب التفاح ، وشعور لحاهم تنتفش على جانبى وجوههم متهدلة على ياقات كبيرة متيبسة ، تحيط بها أربطة عنق بيضاء ، لها عقدة عريضة.. وصداراتهم جميعا من القطيفة ، وكافة الساعات تحمل ــ فى نهاية أشرطة طويلة ــ ما يشبه خاتما بيضاويا من العقيق .. والأيدى مرتكزة على الأفخاذ ، تسوى فى عناية ثنيات السراويل التى كان قماشها الجديد يفوق الأحذية لمعانا .

ووقفت زوجات السادة خلفهم ، بين الاعمدة ، بينما احتشد الجمهور فى الناحية المقابلة ، بين وقوف وجلوس على المقاعد ، إذ كان « ليستيبودوا » قد نقل جميع المقاعد من المسرج إلى هناك ، وراح يجرى طيلة الوقت ليحضر من الكنيسة غيرها .. وبسبب بنشاطه التجارى هذا ارتباكا جعل بلوغ سلم المنصة امرا عسيرا ! .. وقال « لوريه » للصيدلى إذ مر به ذاهبا إلى المكان المخصص له : « من رايى انـه كان من الواجب عليهم أن يقيموا صاريين على طراز البندقية ، يحملان بعض الزينة القيمة ، حتى يصبح المنظر متعة للعين » .. فأجاب هوميه : « هذا حق .. ولكن ، ماذا كنت تتوقع وقد استأثر العمدة بالاشراف على كل شىء .. لكم هو محـدود الذوق هذا التوفاش المسكين ! .. بل إنه محروم مما يسمى عبقرية الفن ! » .

* * *

● وفى تلك الأثناء ، كان رودولف قد صـعد مع مدام بوفارى إلى قاعـة الاجتماعـات بالطـابق الأول من مبنى البلدية .. وإذ كانت القاعة خالية ، فقد قال : إن فى وسعهما أن يستمتعا بالفرجة منها وهما مستريحان . وحمل ثلاثـة مقاعد من حول المائدة البيضاوية ومن أسفل التمثال النصفى للملك ، ووضعها على مقربة من إحدى النوافذ ، ثم جلسـا متجاورين .. وكانت ثمة جلبة فوق المنصة ، وهمسات طويلة . ومفاوضـات .. واخيرا وقف السيد المستشار ، فعـرف الجمهور إذ ذاك انه يدعى « ليبفـان » ، وسرى الاسم بين الجمع ، من شخص إلى آخر .. وبعد ان اخرج بضـعة

اوراق ، وانحنى عليهـا ليراها بوضـوح ، شرع يقـول : « سادتى : اسمحوا لى اولا وقبل ان احدثكم عن الغرض من اجتماع اليوم ان اقر بالفضل ـ وأنا واثق من أنكم تشاطروننى هذا الشعور ـ للحكومة .. للملك .. لكنا ايها السادة .. هذا الملك المحبوب الذى لا تغيب عن اهتمامه ناحية من نواحى الرخاء العام أو الخاص ، والذى يقود بيـد تجمع بين الحزم والحكمة سفينة الدولة ، بين الأخطـار المتلاحقة فى بحـر عاصف ، وهو يعرف ـ فوق هذا ـ كيف يجعل للسلام من الاحترام مثل ما للحرب والصناعة والتجارة والزراعة والفنون الجميلة ! » .

وهنا قال رودولف : « يجب ان ارتد قليلا إلى الوراء » .. فقالت ايما : « لماذا ؟ » .. وفى تلك اللحظة ، ارتفع صوت المستشار فوق المألوف وهو يقول : « لقد مضى ايها السادة ذلك الزمن الذى كان الشقاق بين المواطنين فيه يلطخ الميادين العامة بالدماء ، والذى كان فيه المالك ، وصاحب الأعمال ، والعامل نفسـه ، يأوون إلى مضاجعهم لينعموا بالنوم ، وهم يرتجفون خشية أن يستيقظوا فجـاة على ضجيج عربـات الحريق .. والذى كانت فيه أعنف المبادىء الهدامة تدك فى جراة كافة الأسس » ..

وعاد رودلف يتابع الكلام : « قد يلمحنى احد ، فاضطر عندئذ إلى ان اظل اسبوعين انتحل الأعذار .. فضلا عن ان سمعتى سيئة ! » .. فقالت ايما : « انك تظلم نفسك ! » .. قال : « لا .. إنهـا سـيئة .. اؤكـد لك ! » .. ومضى المستشـار يقول : « على اننى حين انحى عن الذاكرة هـذه



وهنا قال ((رودولف)) : يجب أن ارتد قليلا إلى الوراء .
فقالت ((إيما)) : لمـــاذا ؟

الصور الحالكة ــ أيها السادة ــ انتقل ببصرى إلى الأحوال الراهنـــة فى وطننا العزيز .. فمـــاذا أرى ؟ .. فى كل مكان تزدهر التجـــارة والفنـــون ، وفى كل مكان طـــرق جـــديدة للمواصلات ، كأنها شرايين حديثة فى جسد الدولة ، تقيم فى أرجائها علاقات جديدة .. وقد استأنفت مراكزنا الصناعية الكبرى نشاطها .. والدين ـــ الذى ازداد وحدة وتوطدا ـــ يبتسم فى كل قلب .. وموانئنـــا مليئة ، والثقة قد نبتت من جديد .. وفرنسا قد عادت تتنفس ! » .

واستأنف رودولف الحديث: «الواقع أنهم ربما كانوا ـ من وجهة نظر المجتمع ــ على حق ! » .. فقالت ايما : « كيف ذلك ؟ » .. قال : « الأمر بسيط .. أو لا تعلمين أن هناك نفوسا مضناة تعيش فى عذاب دائم ، وأن لا بد لهـــا من أن تتقلب بالتناوب بين الحلم والعمل .. بين العواطف السامية النبل ، وبين الشـــهوات المتطرفـــة العنف ! ومن ثم تلقى بأنفسها فى كافة ألوان الأهواء والحماقات ؟ ! » .. فنظرت إليه كما ينظر المرء إلى رحالة ارتاد بلادا غريبة ، وقالت : « نحن النســاء البائسات لا نملك حتى هذه التسلية ! » .. فقال : « وإنهـــا لتسلية محزنة ، إذ أن المـــرء لا يجد فيهـــا السعادة ! » .. فتساءلت : «وهل من سبيل إلى العثور على السعادة يوما ؟ » .. فأجاب : « أجل .. أنهـــا لا تلبث أن تجىء يوما ! » .. هذا بينما كان المستشار ماض فى خطابه : « .. وهـــذا هـــو ما فهمتموه انتم ، معشر الزراع وعمال الريف .. أيهـــا الرواد المســالمون ، فى ميدان الحضـــارة الفسيح ! .. انتم يا رجال التقـــدم والأخلاق قد فهمتم أن

العواصف السياسية اشد خطرا – فى الحقيقة – من اضطرابات الطبيعة .. » (:)

وتابع رودولف حديثه : « ان المرء لا يلبث ان يلقى السعادة فجأة .. يوما ما ، بعد ان يكون قد يئس منها .. فإذ ذاك ، ينفرج الأفق .. وكان صوتا يصيح : « ها هى ذى ! » .. وتحسين بالحاجة إلى ان تفضى بكل أسرار حياتك ، وبأن تهبى كل شىء ، وتضحى بكل شىء ، من اجل ذلك الكائن! .. ولا داعى عندئذ للكلام، فإن كلا يفهم الآخر ، إذ يكون كل قد راى الآخر فى احلامه ! » .. ورمقها بنظرة وهو يستطرد : « وبالاجمال ، ترين امامك اخيرا الكنز الذى طالما بحثت عنه .. إنه يتلألأ ، ويبرق .. ومع ذلك فإن المرء يظل فى ريب ، فلا يصدق .. يظل مبهورا ، وكأنه خرج من الظلمة إلى النور ! » .. وما إن انتهى الشاب من هذا القول ، حتى قرنه بالاشارة ، فمسح وجه بيده كرجل احس بدوار ، ثم تركها تسقط على يد ايما .. فسحبت هذه يدها !

هذا والمستشار ماض فى خطابه : « .. اى وجه للعجب فى ذلك ! لا ينكر روح اهل الزراعة إلا من أصيب بالعمى ، وغرق – ولا اخشى من ان اقولها بهذه الصراحة – فى اوهام عصر مضى وانقضى ! .. وفى الحق ، اين نجد وطنية تفوق ما نجد فى الريف ، وإخلاصا للصالح العام فوق إخلاصهم؟ .. وفى كلمة واحدة ، اين نجد ذكاء اعظم مما نجد فى الريف .. ولست اعنى ، ايها السادة ، هذا الذكاء السطحى الذى تتحلى به النفوس المتسكعة ، وإنما اعنى ذلك الذكاء المتزن ، الذى ينصب على السعى إلى الأهداف النافعة قبل كل شىء ،

وبذلك يساهم فى رخاء كل فرد ، والارتفاع بالمستوى العام ، وتدعيم الدول ، نتيجة لاحترام القوانين والنهوض بالواجبات ! » .

وعقب رودولف قائلا : « آه .. هل عدنا ثانية .. الواجبات ، دائما ! .. لقد سئمت هذه الكلمة .. إن هؤلاء الذين يطنون فى آذننا باستمرار قائلين : « الواجب ! الواجب ! » ليسوا سوى ثلة من ذوى الفكر الجامدة الملتفين فى صدارى من « الفانيلا » ، ومن العجائز المتعبدات ! .. آه لعمرى ! .. ما الواجب إلا ان نحس بما هو عظيم ، وان نحب ما هو جميل ، لا ان نقبل كل معتقدات المجتمع بما تفرضه علينا من ربقة وإذلال ! » .. فاعترضت مدام بوفارى قائلة : « ومع ذلك .. مع ذلك .. » .

– لا، لا! .. لماذا يصرخون ضد الرغبات العاطفية ؟.. اليست هى الشىء الجميل الوحيد على الأرض ؟ .. اليست منبع البطولة والحماسة والشعر والموسيقى والفنون .. او بإيجاز : كل شىء ؟

فقالت ايما : « ولكن على المرء ان ينحنى إلى حد ما لراى المجتمع ، وان يتقبل قانون الأخلاق » .. فأجاب : « اجل ، ولكن هناك قانونين : قانون صغير ، ويمثل ما تعارف عليه الناس ووضعوه ، وهو يتغير باستمرار ، ويصرخ فى صخب ، ويثير مثل هذه الجلبة التى نراها تحتنا .. إنه ارضى من تراب ، كهذا الحشد من الأغبياء الذين ترينهم هناك ، تحتنا ! .. اما القانون الآخر ، فهو الخالد ، وهو يشملنا

ويعلونا ، كالطبيعة التى تحيط بنا ، والسماء الزرقاء التى
تمنحنا النور ! » .

وكان السيد « ليفان » قد مسح فمه بمنديل ، واستطرد
فى خطابه : « وماذا على أن أفعل أيها السادة ، لأظهركم على
فائدة الزراعة ؟ .. من الذى يمدنا بحاجاتنا ؟ .. من الذى
يقدم لنا أقواتنا ؟ .. أليس هو الزارع ؟ .. الزارع أيها
السادة هو الذى يبرز بيده النشيطة فى خطوط الحقل
الخصيبة ، فينبت القمح الذى يجرش ويطحن بأجهزة معقدة
يخرج منها تحت اسم الدقيق .. ثم ينقل إلى المدن ، فينتهى
إلى الخباز الذى يصنع منه غذاء للفقير والغنى على
السواء ! .. أليس هو الفلاح الذى يربى هذه القطعان
الوفيرة ليوفر لنا الكساء ؟ .. أنى لنا الكساء والغذاء بدون
الفلاح ؟ .. بل ، هل أنا بحاجة أيها السادة إلى أن أذهب
بعيدا لأبحث عن أمثلة ؟ .. منذا الذى لم يفكر كثيرا فى تلك
الأشياء العظيمة التى نحصل عليها من هذا الحيوان الضئيل ،
زينة حظائر الدواجن عندنا ، والذى يوفر لنا وسائد لينة
لمضاجعنا ، ولحما طريا لموائدنا ، وبيضا ؟ .. على أننى لن
أنتهى إذا مضيت فى تعداد المنتجات المختلفة التى تجود بها
الأرض ــ إذا نحن أحسنا زراعتها ــ كالأم السخية على
أبنائها ! .. فها هنا شجر الكروم للنبيذ ، وفى مكان آخر
شجر التفاح لشراب « السيدر » .. وهناك اللفت ، وبعده
أنواع الجبن ، والتيل الذى تقدم إنتاجه بخطى واسعة جدا
فى السنوات الأخيرة ، والذى أود أن ألفت إليه انتباهكم
بوجه خاص » .

ولم تكن ثمة حاجة به إلى أن يلفت انتباههم ، إذ كانت
أفواه الحشد كله فاغرة ، وكأنهم يعبون من كلامه .. وكان
« توفاش » إلى جواره ، ينصت وهو يحملق فيه .. والسيد
« ديروزيراى » يغمض عينيه فى رفق بين آن وآخر .. وعلى
مسافة منه ، وضع الصيدلى يده خلف أذنه حتى لا يفوته
مقطع من كلمة ، وابنه « نابوليون » على ركبتيه .. وكانت
ذقون أعضاء لجنة التحكيم الآخرين تهتز فى بطء على
صداراتهم ، دليل الاستحسان .. أما رجال الإطفاء ،
فاستندوا ــ أسفل المنصة ــ على حرابهم ، ووقف « بينيه »
جامدا فى مكانه ، وقد ثنى ذراعيه ، وذؤابة سيفه فى
الهواء .. ولعله كان يسمع ، ولكنه بلا شك لم يكن يرى
شيئا ، بسبب حافة قلنسوته التى كانت تهبط فوق أنفه ! ..
وكان مساعده ــ الابن الأصغر للسيد « توفاش » ــ يلبس
قلنسوة أكبر من تلك ، إذ كانت واسعة ، تترجرج فوق
رأسه ، وقد برز منها طرف منديله القطنى .. وكان يبتسم
تحتها فى وداعة الطفل ، وقطرات العرق تتساقط من وجهه
الصغير الشاحب ، وقد لاحت عليه أمارات الانشراح والنوم !

* * *

● وكان الميدان مزدحما بالناس حتى مواقع المنازل ،
فكان المرء يرى قوما متكئين بمرافقهم على جميع النوافذ ،
وآخرين يقفون أمام الأبواب ، وبدا «جوستان» أمام الصيدلية
وقد سمر فى مكانه لفرط ما استهواه المنظر .. وكان صوت
السيد « ليفان » يضيع فى الهواء رغم الصمت الشامل ،
فلا تصل إلى مسمعيك سوى نتف من العبارات ، يقطعها

صرير المقاعد المنبعث هنا وهناك .. ثم لا تلبث ان تسمع خوار ثور ، او ثغاء الحملان ، يجاوب بعضه بعضا عند اركان الشارع .. إذ كان رعاة البقر والغنم قد ساقوا ماشيتهم حتى هناك ، فكانت تخور من آن إلى آخر وهى تنتزع بالسنتها نتفا من اوراق الشجر المتدلية امام افواهها .

وكان رودولف قد ازداد من ايما اقترابا ، وقال لها بصوت خفيض ولهجة سريعة : « او لا يثيرك تآمر المجتمع على هذا النحو ؟ .. وهل هناك احساس واحد لا يستنكره ؟ .. إن انبل الغرائز واسمى الميول تضطهد ويشهر بها .. وإذا حدث ان التقت روحان بائستان ، فان كل العوامل تنتظم لتحول دون امتزاجهما .. ومع ذلك فانهما ستحاولان ، وترفرفان باجنحتهما ، وتسعى كل منهما إلى الأخرى .. اواه ! .. لا باس ، فانهما لن تلبثا أن تجتمعا وتتحابا ، طال الزمن او قصر .. فى ستة اشهر او فى عشر سنوات .. فان القدر قد كتب هذا لهما ، إذ خلقت كل منهما للأخرى » .

وكان جالسا وقد تقاطعت ذراعاه فوق ركبتيه .. وتطلع إلى ايما وهو جد قريب منها ، وثبت بصره عليها ، فلمحت فى عينيه خطوطا ذهبية صغيرة تومض من اعماق حدقتيه السوداوين .. بل إنها راحت تشم عطر الدهان الذى ضمخ به شعره .. وما لبثت ان غشيتها نوبة من شرود ، فذكرت الفيكونت الذى رقصت « الفالس » معه فى (فوبيسار) ، إذ كانت تنبعث من لحيته رائحة الليمون والفانيليا التى تفوح من هذا الشعر .. واسبلت جفنيها — بحركة آلية — فى نصف إغماضة ، وهى تنتشق فى شعره هذا العطر . ولكنها حين

اضطجعت فى المقعد لمحت على البعد — عند حافة الأفق — عربة الركاب القديمة ، « المصفورة » تنحدر فى بطء هابطة تل (ليو) ، وهى تجر ذيلا طويلا من الغبار ! .. هذه العربة الصفراء التى كثيرا ما عاد إليها فيها «ليون» ، وفى ذلك الطريق رحل عنها إلى غير رجعة .. وخيل إليها انها تراه واقفا عند نافذته .. ثم اختلطت الرؤى ، واكفهرت السحب ، وخيل إليها انها عادت تدور فى رقصة «الفالس» — تحت اضواء الثريات — بين ذراعى «الفيكونت» ، وان «ليون» ليس بعيدا عنها ، وانه قادم .. ومع ذلك . كانت طيلة الوقت تشم عبير راس رودولف إلى جانبها . وتغلغل هذا الاحساس العذب فى رغباتها القديمة ، التى اخذت تتحرك جيئة وذهابا ، فى نفحات هذا العطر الذى ران على روحها ، كما تتحرك ذرات الرمل فى مهب الريح .. ففتحت طاقتى انفها عدة مرات لتعب من عبق اللبلاب الملتف حول رؤوس الأعمدة . ونزعت قفازيها ، فمسحت يديها ، ثم حركت منديلها امام وجهها كالمروحة ، بينما كان صوت المستشار يصل إليها — خلال نبض صدغيها — مرددا عباراته ، وكانه يترنم بها : « واصلوا ، وثابروا ، ولا تنصتوا إلى ما يوصى به الروتين ، او ما تدعو إليه النصائح المرتجلة المبنية على تجارب طائشة ! .. واتجهوا بجهودكم — بنوع خاص — إلى تحسين التربة ، والسماد الجيد ، والاكثار من سلالات الخيل والبقر والخنازير والأغنام الجيدة .. ولتكن هذه المعارض — بالنسبة لكم — اشبه بالساحات السلمية ، يمد المنتصر فيها يده — إذ يغادرها — إلى المنهزم ، ويؤاخيه ، املا فى فوز افضل .. وانتم ايها

العمال الشيوخ ، والخدم المتواضعون ، الذين لم ترمقهم حكومة حتى اليوم بعين الاعتبار .. تعالوا لتتسلموا جزاء فضائلكم الصامتة ، وثقوا من أن الدولة ترمقكم ، وتشجعكم ، وتحميكم .. وستستجيب لمطالبكم العادلة ، وتخفف بقدر ما تستطيع من عبء تضحياتكم ! » .

وجلس السيد « ليفان » إذ ذاك فنهض السيد « ديروزيراى » ، وشرع يلقى خطابا آخر .. ولعله لم يكن خطابا منمقا كخطاب المستشار ، ولكنه امتاز عنه بأسلوب اكثر إيجابية ، أو بالأحرى ، بمعلومات أدق ، واعتبارات اسمى .. فلم يشغل مدح الحكومة — مثلا — سوى حيز صغير منه . اما الدين والزراعة ، ففازا بقسط أوفر ، إذ القى الضوء على العلاقة بينهما ، وعلى دورهما المشترك فى لخدمة الحضارة .. وبينما كان رودولف يحدث مدام بوفارى عن الاحلام ، والتكهنات ، والجاذبية المغناطيسية ، كان الخطيب يتكلم عن نشأة المجتمع ، متدرجا من العصور الأولى التى كان الإنسان يتغذى فيها بثمار البلوط فى اعماق الغاب ، إلى تلك العهود التى تحول فيها الناس عن جلود الحيوان إلى الأقمشة المنسوجة ، وراحوا يحرثون الأرض ويزرعون الكروم .. أفكان هذا التحول خيرا ؟ .. او لم يكن فى هذه الاكتشافات من الضرر فوق ما فيها من نفع ؟ .. وتولى السيد « ديروزيراى » علاج السؤال .. بينما كان رودولف قد تطرق متنقلا من المغناطيسية إلى الميول والعلاقات .. واخذ رئيس اللجنة يذكر « سنسناتوس » ومحراثه ، و « ديوكلسيان »

إذ زرع الكرنب ، واباطرة الصين حين كانوا يفتتحون ببذر البذور .. فى حين كان الشاب — رودولف — ماضيا يشرح للشابة ان الميول والانجذابات ترجع فى سببها إلى نوع سابق من الوجود .. او حياة سابقة !

ومضى يقول : « ومن ثم ، لماذا قدر لكل منا ان يعرف الآخر ؟ .. اية إرادة شاءت هذا ؟ .. لقد تم ذلك بسبب انجذاب كل منا إلى الآخر — كجدولين يجريان لكى يلتقيا ويتحدا — وهكذا دفعت اتجاهاتنا الفكرية الخاصة بكل منا إلى صاحبه ! » .

وامسك بيدها ، فلم تسحبها منه .. وفى تلك اللحظة ، كان الخطيب يصيح : « جائزة الزراعة الجيدة .. » .. ورودلف ماض فى حديثه : « فمثلا عندما اتيت إلى بيتكم .. ».

وهكذا اخذت عبارات رودولف والخطيب تتتابع فى تناوب واختلاط :

كان الخطيب يقول : « إلى السيد بيريه من كونكانبوا » .

ورودولف يقول: هل كنت اعلم ان قد قدر لى ان اصحبك؟

الخطيب : سبعون فرنكا ..

رودولف : بل لقد حاولت مائة مرة ان أرحل .. ولكننى تبعتك .. وبقيت !

الخطيب : جائزة الأسمدة ..

رودولف : سوف ابقى الليلة ، وغدا ، وكل الأيام المقبلة، وحياتى كلها !

الخطيب : إلى السيد « كارون » من (أرجيى) .. ميدالية ذهبية .

رودولف : فانى لم التق بمثل هذه الفتنة الشاملة فى صحبة اى شخص آخر .

الخطيب : السيد « بان » من جيفرى سان مارتان ..

رودولف : وسوف احمل معى ذكراك ...

الخطيب : جائزة عن كبش اسبانى من نوع «مارينو»..

رودولف: ولكنك سوف تنسيننى .. سأتلاشى كالطيف!

الخطيب : إلى السيد « بيلو » من نوتردام ...

رودولف : آه ، لا ! .. بل سأبقى فى فكرك ، وحياتك .. اليس كذلك ؟

الخطيب : سلالة الخنازير .. الجائزة مناصفة بين السيدين « لهيريسيه » و «كيلمبور» .. وقدرها ستون فرنكا.

وضغط رودولف يد ايما ، فأحس بها دافئة ، تنتفض ، كاليمامة الحبيسة التى تبغى انطلاقا .. وسواء كانت تحاول أن تنتزع يدها ، أو كانت تستجيب لضغطه ، فانها حركت اصابعها ، فهتف : « آه ، شكرا لك .. فانت لا تصديننى!.. ما أطيبك ! .. انك تدركين اننى ملك يديك ! .. الا دعينى انظر إليك ! .. دعينى أتاملك ! » .

وهبت من النافذة ريح ثنت أطراف غطاء المائدة ، وأطاحت بقبعات الفلاحات الكبيرة — فى الميدان — فطارت كاجنحة فراشات بيضاء ترفرف ! . .وكان رئيس لجنة التحكيم ماضيا فى قوله : « جائزة استخدام كسب البذور الزيتية .. السماد الفلمنكى .. زراعة التيل .. الصرف .. الايجارات الطويلة .. الخدمات الأهلية » ... اما رودولف فلم يعد يتكلم ، إذ راح يرمق « ايما » .. وهى ترمقه ،

وشفاههما ترتجف بتأثير رغبة جامحة ! .. وفى استرخاء ، ودون ما جهد ، تعانقت أصابعهما .. ورئيس لجنة التحكيم ماض فى سرد الجوائز !

ـ كاترين نيكيز اليزابيث ليرو من (ساستولاجيرير) .. من اجل بقائها خمسة وخمسين سنة تخدم مزرعة واحدة .. ميدالية فضية ومكافاة قدرها خمسة وعشرون فرنكا !

وردد المستشار النداء قائلا : « اين هى كاترين ليرو ؟ » .. لكنها لم تتقدم .. وسمعت أصوات تتهامس : « استمر ! » .. « لا » .. « إلى اليسار » .. « لا تخافى ! » .. « آه ، يالها من غبية ! » .. وصاح «توفاش» : « وبعد ، أموجودة هى ؟ » .. « نعم .. ها هى ذى ! » .. « فلتتقدم إذن ! » ورؤيت إذ ذاك امراة عجوز ، ضئيلة الجسم ، تتقدم واجفة نحو المنصة ، وهى تكاد تتوارى فى ثيابها التعسة ، وفى قدميها حذاءان ضخمان من الخشب ، بينما انسدلت على ردفيها مرولة كبيرة زرقاء .. وكان وجهها الضامر ، المحاط بطاقية لا حافة لها ، اكثر تجعيدا من تفاحة صغيرة ذابلة .. ومن كمى سترتها الحمراء ، برزت يدان بدت مفاصلهما كالعقد ، وقد غطتها البقع والبثور والبشرة الخشنة من اثر غبار الأجران ، و « البوتاس » الذى تستخدمه فى إزالة بقع الشحم عن الملابس الصوفية ، حتى انهما كانتا تبدوان قذرتين رغم غلسهما بالماء الصاف .. وقد مكثتا منفرجتين لطول ما خدمتا ، وكأنهما تقدمان دليلا متواضعا على ما تكبدتا من مشاق مضنية ! .. واكسب وجهها جلالا شيء من جمود الرهبنة . ولم يكن يخفف من حدة

نظراتها شىء من الحزن أو من الحنـــان .. وكانت لكثرة
معاشرتها للحيوانات قد أخذت عنها الصمت والسكوت ..
وكانت هذه هى أول مرة ترى فيها نفسها وسط مثل هـــذا
الجمع الغفير ، فداخلها ذعر من الأعلام والأبواق ، وأولئك
السادة الذين كانوا فى ثياب سوداء ، وذلك الوســـام الذى
كان يزين صدر المستشـــار .. فظلت مسمرة فى مكانهـــا ،
لا تدرى أتتقدم ، أم تلوذ بالفرار .. ولا تفهم لـــماذا راحـــوا
يدفعونهـــا إلى الأمام ، ولا لـــماذا كان الحـــكام يبتســـمون
لها ؟ ! .. وهكذا وقفت أمام المواطنين السعداء ، تمثالا حيا
لنصف قرن من العبودية ! .. وكان المستشار قد أخذ قائمة
الفائزين بالجوائز من يد رئيس الحكام ، فقال لها : « اقتربى
أيتها المبجلة كاترين نيكيز اليزابيث ليرو » .. وأخذ ينقـــل
بصره بين قائمة الفائزين والسيدة العجوز ، مكررا فى لهجة
أبوية : « اقتربى ! اقتربى ! » .

وقال « توفاش » وهو يتململ فى مقعده : « أصـــماء
أنت ؟ » .. ثم راح يصيح فى أذنها : « أربع وخمسون سنة
فى الخدمة ! .. ميدالية فضـــية ! .. وخمســـة وعشرون
فرنكا .. لك ! » .. وتأملت « الميداليـــة » إذ تناولتهـــا ،
وما لبث وجهها أن أشرق بابتسامة راضية ، ثم تمتمت وهى
تنصرف : « سأعطيها لقس قريتنا كى يقيم لى قداسا ! » ..
فمال الصيدلى نحو موثق العقود قائلا : « يا للتعصب ! » .

* * *

● وانتهى الحفل ، فأخذ الجمهور يتفرق .. وعاد كل
امرىء إلى مكانه ، وكل شىء إلى مجراه .. وأخذ الســـادة

ينهرون الخدم ، وهؤلاء يضربون الماشية .. تلك الماشـــية
الفائزة ، التى علق بقرونهـــا تاج أخضر ، وهى تعـــود إلى
حظائرها ! .. هذا بينما صعد جنود الحرس الوطنى إلى
الطابق الأول من مبنى البلدية ، وقد رشقوا الفطائر الجافة
فى حرابهم ، وحمل قارع الطبل سلة مليئة بالزجاجات ..
وأخذت مدام بوفارى بذراع رودولف الذى رافقها حتى دارها،
ثم افترقا لدى الباب ، وسار هو يتنزه وحيدا فى المرج ، فى
انتظار موعد الوليمة .

وكانت المأدبة طويلة ، صاخبة ، سيئة النظام، ازدحمت
إلى درجة لم يكن معها فى وسع المرء أن يحرك مرفقه ، وحتى
أوشكت الألواح الضيقة — التى استخدمت كمقاعد — أن
تتحطم تحت ثقل الجالسين .. وأكل القوم فى إسراف ، إذ عنى
كل واحد بأن يملأ بطنه ، حتى تفصد العرق على كل جبهة ،
وانبعث بخار يميل إلى البياض — كذلك الذى يتصـــاعد من
جدول فى صباح يوم من أيام الخريف — وأخذ يخيم فوق المائدة
بين المصابيح المدلاة .. واستند رودولف إلى قماش السرادق،
وقد استغرقه التفكير فى إيما ، حتى أنه لم يسمع شيئا مما كان
يدور حوله . وكان الخدم من ورائه يجمعون الأوانى المتسخة،
وجيرانه يوجهون إليه الحديث فلا يظفرون منه بجواب .. ومن
ثم ملئوا له كأسه ! .. وران على فكره سكون رغم الضجيج
المحيط به .. كان يحلم بما قالت ، وبشكل شفتيها .. وكان
وجهها يتمثل له منعكسا على خوذات الجنود ، وكأنه يراه فى
مرآة سحرية .. وثنايا ثوبها تنتشر على الجدران .. وأخذت
أيام الهوى تتتابع أمام عينيه فى أفق المستقبل ، وهى لا تكاد
تنتهى !

ورآها ثانية فى المساء ، اثناء الاحتفال باطلاق الصواريخ . بيد انها كانت مع زوجها ومدام « هوميه » ، والصيدلى الذى كان شديد القلق بسبب خوفه من الصواريخ الشاردة ، حتى انه كان يترك الجماعة فى كل لحظة ، ليذهب إلى « بينيه » ويقدم له النصائح .. وكانت الصواريخ — التى وردت باسم السيد « توفاش » — قد اختزنت فى قبو منزله ، زيادة فى الحيطة، ومن ثم لحقت الرطوبة بالبارود فلم يشتعل.. وفسدت تماما القطعة الرئيسية ، وكانت صاروخا يمثل تنينا يعض ذيله ! .. ومن وقت لآخر ، كانت تنفجر شعلة رومانية هزيلة ، فتنبعث من الجمهور الفاغر الأفواه ضجة تختلط بها صيحات النساء اللواتى كان الرجال يدغدغون خصورهن فى الظلام ، وقد التصقت ايما — فى رفق — بكتف شارل ، وراحت تتتبع انبثاق الضوء من الصواريخ فى السماء المعتمة ، وهى رافعة الذقن ، ورودولف يتأملها فى ضوء المصابيح المشتعلة !

وخمدت الصواريخ شيئا فشيئا ، واضاءت النجوم ، وسقطت بعض قطرات من المطر ، فعقدت ايما حرملتها فوق رأسها العارية .. وفى هذه اللحظة ، اقبلت عربة المستشار من الفندق ، وقد اخذت الحوذى المخمور غفوة طارئة ، فكان جسمه الضخم يرى على مقعده بين مصباحى العربة وهو يهتز يمنة ويسرة مع ارتجاجات العربة .. فقال الصيدلى : « الحق ان من الواجب تشديد العقوبة على من يفرط فى تناول الخمر.. وبودى لو سجلت اسبوعيا على لوحة خاصة — على باب البلدية — اسماء الذين يثملون خلال الأسبوع من المشروبات الكحولية ! .. فضلا عن اننا سنحصل بذلك — من الناحية

الاحصائية — على قوائم سنوية رسمية ، نطلع عليها عند الحاجة ، ولكن .. اسمحوا لى ! » .. وعدا ثانية نحو القائد ! .. وكان هذا الأخير عائدا إلى منزله ليتفقد مخرطته .. فقال له هوميه : « انك لن ترتكب خطأ لو انك اوفدت احد رجالك .. او تذهب بنفسك .. » ، فاجاب محصل الضرائب : « دعنى وشأنى ! .. اطمئن ! » .

وبعد ان عاد الصيدلى إلى أصدقائه قال: « اطمئنوا !.. لقد اكد لى السيد بينيه ان التدابير اتخذت ، ولم تسقط اية شرارة ، كما ان المضخات مليئة .. فهيا بنا نسترح ! » .. فقالت مدام « هوميه » وهى تتثاءب بقوة : « الواقع اننى بحاجة إلى النوم ، ولكن .. لا بأس ، فقد قضينا يوما جميلا كأنه العيد!» .. فردد رودولف بصوت خفيض، ونظرة ناعمة: « آه ، اجل ! .. كان جميلا جدا » .. وانحنى كل منهم لسواه، ثم انصرفوا .

وبعد ذلك بيومين ، نشرت صحيفة « فنال دى روان » مقالا طويلا عن المعرض ، كان هوميه قد كتبه بأسلوبه المتحمس فى اليوم التالى للاحتفال ، وقال فيه : « لم هذه الولائم ، وهذه الأزهار ، وهذه الباقات ؟ .. وإلى اين يعدو هذا الجمهور وكأنه أمواج بحر ثائر ، تحت سيل من اشعة الشمس الحامية التى تنشر حرارتها فوق حقولنا ؟ ! » .. وتكلم عن حال الفلاحين ، فقال : إن الحكومة قد فعلت الكثير ولا شك من اجلهم ، ولكن هذا لم يكن كافيا ، ومن ثم اهاب بها: « إلى الأمام ، فهناك الف مشروع لازمة ، وعلينا ان ننجزها » . ثم تحدث عن وصول المستشار ، فلم ينس « المظهر العسكرى

الرائع لجنودنا » ولا « فلاحاتنا الموفورات النشاط » ، ولا « الشيوخ ذوى الرؤوس الصلعاء كأنهم البطارقة .. وقد احس من بقى منهم من رجال كتائبنا القدامى ، بقلوبهم لا تزال تخفق على دق الطبول القوى » .. وذكر نفسه بين أوائل الاعضاء المكونين لهيئة التحكيم ، مشيرا ــ بطريقة تستلفت الانتباه ــ إلى ان السيد هوميه ، الصيدلى ، قد ارسل مذكرة عن شجر التفاح إلى الجمعية الزراعية ! .. وإذ تطرق إلى الحديث عن توزيع الجوائز ، صور فرح الفائزين بأسلوب خيالى مبالغ فيه : « فالأب يقبل ابنه ، والأخ اخاه ، والزوج زوجته . وكم من واحد منهم كان يزهو بإظهار « ميداليته » المتواضعة ، التى لن يلبث ـ إذا ما عاد إلى زوجته الصالحة ـ ان يعلقها بجوار فراشه والدمع ينهمر من عينيه .. وحوالى الساعة السادسة ، اقيمت مأدبة فى بستان السيد « ليجار » ضمت الشخصيات الرئيسية التى حضرت الاحتفال، وسادتها روح المودة الخالصة .. وشربت عدة انخاب ، فشرب السيد « ليفان » نخب الملك ، والسيد « توفاش » نخب المدير ، والسيد « ديروزيراى » نخب الزراعة ، والسيد « هوميه » نخب الصناعة والفنون الجميلة ــ التوامين ــ والسيد « ليبليشيه » نخب الاصلاحات . وفى المساء ، انطلقت فى السماء صواريخ لامعة اضاءتها فجاة، حتى لقد كان يخيل للمرء انها منظار سحرى ، او منظر مسرحى حقيقى . وكأن بالقرية الصغيرة قد انتقلت ــ للحظة من الزمن ــ إلى حلم من احلام الف ليلة وليلة ! » .

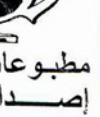
ثم اضاف قائلا : « ولنسجل انه لم يكدر صفو هذا

الاجتماع العائلى اى حادث يدعو للأسف .. وكانت الملاحظة الوحيدة هى تخلف رجال الدين ، ولعل الكهنوت يفهم التقدم على نحو آخر ! .. كما تشاءون يا رسل ليولا ! » .

تم الجزء الأول

ويليه الجزء الثانى والأخير

———— • ————





مطبوعات كتابى
إصـــدار جـــديد

عزيزى القارئ ..

فى الفصل السادس من كتاب (وجوه الحب السبعة) ، أول كتاب من الاصدار الجديد لسلاسل (كتابى) ، حدثنا الكاتب العالمى « أندريه موروا » عن رواية (مدام بوفارى) باعتبارها تمثل الوجه السادس من وجوه الحب السبعة ، وهو الحب الذى يوحى به « الغجر » والرغبة فى الفرار من الواقع .. واليوم أقدم لك الجزء الأول من الترجمة « الكاملة » الأمينة لهذه الرواية الخالدة ، التى كتبت لمؤلفها « چوستاف فلوبير » الخلود فى عالم الأدب ، ودفعت به إلى قمة المجد ، تقديراً لبراعته الفائقة فى تحليل خلجات نفس الزوجة الخائنة « إيما بوفارى » زوجة الطبيب الريفى الطيب « شارل بوفارى » ، التى تمردت على زوجها لترتمى فى أحضان عشيقها ، حالمة بأن يحملها إلى عوالم خيالية طالما سمعت وقرأت عنها .. ولكن ..

وفى نهاية الجزء الثانى والأخير من الرواية ــ الذى تقرأه فى الكتاب القادم بإذن الله ــ أقدم لك تفاصيل المحاكمة التاريخية التى تعرض لها المؤلف على إثر نشر الرواية ، فى عصر لم يكن مهيأ لتقبل هذا النموذج الفذ من نماذج الأدب « الواقعى » !

حلمى مراد

